تائية السلوك
إلى
ملك الملوك

نظم قطب الوجود العارف بالله سيدى
أحمد عرب الشرنوبى

شرحها وحققها
الشيخ عبد المجيد الشرنوبى الأزهرى

الطبعة
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م





مكتبة القاهرة
لصاحبها: على يوسف سليمان وأولاده
١٢ شارع الصنادقية بالأزهرت: ٥٩٠٥٩٠٩
١١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهرت: ٥١٤٧٥٨٠
ص. ب ٩٤٦ ـ رمز بريدى ١١٥١١
العتبة ـ القاهرة ـ الأزهر
جمهورية مصر العربية

رقم الإيداع: ١٤٦٨١ / ٢٠٠٤
I.S.B.N
977 - 5437 - 90 - 3

بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى سلك بأحبابه سواء السبيل، ووفقهم لمرضاته فنالوا الجزاء الجزيل، والصلاة والسلام على الواسطة العظمى لنا فى كل نعمة، سيدنا محمد الذى أرسله الله لجميع العالمين رحمة . وعلى آله الظاهرين وأصحابه وجميع التابعين .

(وبعد): فيقول الفقير إلى مولاه الغنى، عبد المجيد الشرنوبى الأزهرى، بلغه الله الآمال، والطف به فى جميع الأحوال:

لما كان علم التصوف مما يصفى الفؤاد . ويوصل السالك بالجد إلى بلوغ المراد . وكان من أجمل ما ألف فيه هذه التائية الفريدة . التى هى فى بابها بديعة وحيدة، نسيجة قطب الوجود وعمدتى فى خطوبى . سيدى وسندى السيد أحمد عرب الشرنوبى بادرت إلى ارتشاف حميا كأسها الشهى . وطفقت أنظم لؤلؤاً فى جيدها البهى . ليكون ذلك شرحاً بديع المثال . مفصلاً لتلك الدرارى التى نسجت على أحسن منوال . ملتقط تلك اللآلئ البهية . من بحار السادة الأعلام، ذوى الكؤس الوفية . فإنى خادم أعتابهم وتراب أقدامهم .

(وللأرض من كأس الكرام نصيب)

وأنا أسأل الله وأتوجه إليه . وأتوسل بأكمل الرسل لديه . أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه . ويرشدنا لما يبلغ كل أحد منا مناه . وها أنا أشرع فى المقصود بعون العلى العظيم . فأقول:

قال المصنف ﷺ

تأئة السلوك إلى ملك الملوك

أُصُولُ طَرِيقِ الْقَوْمِ أَهْلِ الحقيقَةِ   هُدَاةِ الْوَرَى المَهْدِينَ مِنْ خَيْرِ مِلَّةِ
طَهَارَةُ أنْفَاس وَصِدْقُ مَوَدَّةٍ   وَجِدٌّ وَآدَابٌ وَتجْرِيدُ هِمَّة
حَياءٌ وَإِخْلاصٌ ذَكَاءٌ وَفِطْنَةٌ   كَذا الوَرَعُ المَحْمُودُ فِى كُلِّ شِرْعَةِ
وَذَوْقٌ وَشَوْقٌ وَالحُضُورُ بِقَلْبِهِ   وَفَطْمِ مُرَادِ النَّفْسِ عَنْ كُلِّ شَهْوَةِ
وَزُهْدٌ وَقُنْعٌ بِالْكَفَافِ وَرَهْبَةٌ   مِنَ اللهِ فِى حَالَيْ رَخَاءٍ وَشِدَّةِ
وَتَفْوِيضُ أَمْرٍ ثُمَّ حُسْنُ تَوَكُّلٍ   خُضُوعٌ خُشُوعٌ وَالْبُكَاءُ بِذِلَّةِ
وَتَقْوَى إِلهِ الْعَرْشِ سِرًّا وَجَهْرَةً   وَحُسْنُ مَسِيرٍ فِى عُلُومِ الشَّرِيعَةِ
وَعَزْفٌ عَنِ الأَكْدَارِ وَالغَيرِ وَالسِّوَى   وَبَذْلٌ وَتَهْذِيبٌ وَإِخْلاصُ نِيَّةِ
وَصَمْتٌ وَتَسْهِيدٌ وَمَوْتٌ بِحُبِّهِ   وَتَحْسِينُ أَوْصَافٍ وَتَجْوِيعُ مَعْدَةِ
وَإِثْبَاتُ إِيثَارٍ وَبَسْطُ كَرَامَةٍ   بِمَا حُزْتَ مِنْ مَالٍ وَرُوحٍ لِمِنْحَةِ
وَرِفْقٌ وَتَصْدِيقٌ وَعِشْقٌ مَحَبَّةٌ   وَسَحْقٌ وَمَحْقٌ وَالفَنَا بَعْدَ سَكْرَةِ
وَحَمْدٌ وَشُكْرٌ وَالوَفَا بِأَوَامِرٍ   وَلاَ تَعْدُ عَنْ حُكْمَيْ كِتَابٍ وَسُنَّةِ
وَرَاقِبْ جَنَابَ الحَقِّ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَرَى   لِنَفْسِكَ فِعْلاً مِنْ فِعَالٍ جَمِيلَةِ
وَجَاهِدْ تُشَاهِدْ كُلَّ مَعْنًى مُحَجَّبٍ   عَنِ العَقْلِ وَالأَبْصَارِ مِنْ غَيْرِ رِيبَةِ
وَلاَ بُدَّ مِنْ فِكْرٍ وَذِكْرٍ وَوِجْهَةٍ   عَلَى يَدِ شَيْخٍ عَارِفٍ بِالطَّرِيقَةِ
مَحَا لِحُظُوظِ النَّفْسِ بِالعِلْمِ وَالتُّقَى   نَصُوحٌ كَرِيمٌ بِالْعُلُومِ السَّنِيَّةِ
تَجَلَّى لَهُ الرَّغَبُوتُ وَالْهُوتُ فِى السُّرَى   وَنَاسُوتُهُ بِالسِّرِّ حَجَّتْ وَلَبَّتِ
وَقَدْ جَالَ فِى مَلَكُوتِ كُلِّ حَاصِلٍ   كَذَا رَهَبُوتُ الغَيْبِ مِنْ غَيرِ شُبْهَةِ
وَسَارَ بِعَزْمٍ فِى كَرَاسِي عُرُوشِهِ   وَطَارَ بِسِرِّ السِّرِّ فِى حَالِ نَشْأَةِ

يُضـيئُ كَضَـوْءِ الشَّـمْس تَـبْدُو لِـنَاظِرٍ   لَـهُ هِمَّـةٌ تُـبْرى عَلِـيلَ الجِـبِلَّةِ

حكِـيمٌ يُـدَاوى الطَّالِـبينَ بطِـبِّهِ   خَـبيرٌ بـدَاءِ القَلْـبِ فـى كـلِّ لَحْظَـةِ

يَـرَى بعِـيُون القَلْبِ مَـا كـانَ خَافِـياً   وَيُـدْرِكُ بالأبْصـارِ حُجْـبَ الأكِـنَّةِ

وأَدْرجَ فـى التَّوْجِـيهِ فـى طَـىِّ غَيْـبهِ   غُـيُوثُ عُـيُون الغَيْـثِ كـنزُ الذَّخـيرَةِ

وَأَدْرجَـتِ الأكْـوَانُ فـى غَيْـبِ ذاتِـهِ   كـإِدْرَاجِ مَيْـتٍ فـى قَمـيص وَعِمَّـةِ

وَيُخْـبرُ بالأشْـيَاءِ قَـبْلَ وقُوعِهَـا   مِـنَ اللـوْحِ يَقْـرَاهَا بعَـيْنِ البَصـيرَةِ

مَتِينُ الحِجَا يَدْعُو إلى الرُّشْدِ بالهدَى   وَقَـدْ جَاءَنـا تَشْـبيهُهُ بالنُّـبُوَّةِ

لَـهُ قَـدَمٌ فِـيَما يَقُـولُ وَيَدَّعِـى   وتَصْـرِيفُهُ فِـيهِ بحُكْـمِ المَشـيَئةِ

يَصُـرِّفُ أَقْوَامـاً وَمَـيْدَانُ سِـرِّهِ   جَـلاَ غَيْهَـبَ الأسْـرَارِ مِـنْ كـلِّ بُقْعَةِ

لَـهُ الفَضْـلُ وَالإجْـلاَلُ وَالْفَخْرُ وَالْعُلاَ   مِـنَ اللهِ وَالتَّوْفِـيقُ فـى كُـلِّ لَحْظَـةِ

هُـنَاكَ لَـهُ الإِمْـدَادُ فِـى كُـلِّ طَالِـبٍ   يَدَعْـهُ كمَـا الإبريـزُ فَـوْقَ البَسـيطَةِ

وَفَـرْضٌ عَلَـيْهِ أنْ يَكُـونَ مُؤَدَّبَـاً   لَـدَى شَـيْخِهِ فِـى كُـلِّ وَقْـتٍ وَسَـاعَةِ

لِيُـبْدِى لَـهُ الإِسْـكانُ فـى كُـلِّ صُـورَةٍ   وَيُلْقِـى لَـهُ مِـنْ سِـرِّ سِـرِّ الحقَـيقَةِ

وَيَصْـحَبُهُ كالمَيْـتِ فـى حَـال غُسْـلهِ   يُقَلِّـبُهُ لِلْغُسْـلِ مِـنْ كـلِّ وجْهَـةِ

مَعَ الذُّلِّ وَالتَّهْذِيبِ والخَوْفِ وَالرَّجَا   وَعَجْـزٍ وتَسْـليمٍ وَتَعْظِـيمِ حُـرْمَةِ

وَيَخْـرُجُ عَـنْ نَفْـسٍ تَوَالَـتْ هُمُومُهَـا   وَيَخْشَـعُ للهِ الكَـريمِ بخَشْـيَةِ

وَيَعْـتَقِدُ الأسْـتَاذَ فِـيمَا يَقُولُـهُ   وَيَفْعَلُـهُ مِـنْ غَـيْرِ شَـكٍّ وَرِيـبَةِ

وَيُـدْرجُ مَـا يَخْـتَارُهُ فِـى مُـرَادِهِ   وَأَوْصَـافُهُ بـاللُّطْفِ مِـنْهُ اسْـتَمَدَّتِ

فَـإِنْ قَـالَ لِـمْ يَوْمـاً فَذَلِـكَ عِـنْدَهُمْ   حَقـيقٌ بلَـمْ يُفْـلِح إلى يَـوْمَ بَعْـثَةِ

وَلَـمْ يَنْـتَفعْ مَـا لَمْ يَسْـرِ فِـى شُـهُودِهِ   مُـرَاعٍ لَـهُ مِـنْ غَـيْرِ مَـيْنٍ وَعِلَّـةِ

وَلاَ يَقْـتَرِفْ مَعْـنًى شَـهِيَّاً لِنَفْسِـهِ   فَـإِنَّ حُظُـوظَ الـنَّفْسِ رَأْسُ البَلِـيَّةِ

تَـزِينُ لَـهُ الأَفْعَـالِ مَـعَ قَوْلِـهِ وَلاَ يَكُـونُ لَـهُ مِـنْ فِعْلِـهِ وَزنُ ذَرَّةِ
وَيُظْهِـرُ مَـا يَخْطُـر عَلَـيْهِ لِشَـيْخِهِ فَفِـيْهِ أُمُـورٌ كالشُّـمُوسِ المُضِـيئَةِ
وَمِـنْهُ شُـؤُنٌ كالسُّـيُوفِ قَوَاطِـع وَفـى كَـتمِهِ حَجْـبٌ وَفَقْـدُ نَتِـيجَةِ
وَتَحْسِينُهُ مَـا حَسَّـنَ الشَّـيْخُ ثُـمَّ مَـا يُقَـبِّحُهُ مِـنْ بَعْـدِ نَصْـبِ الأدِلَّـةِ
وَإنْ صَـارَ يُخْفِـى عَـنْهُ شَـيْئاً فَإنَّـهُ بِذَلِـكَ يَعْصِـى عِـنْدَ أَهْـلِ الْحَقِـيقَةِ
بَـل الوَاجِـبُ المَشْـهُورُ إيـثَارُ أَمْـرِهِ وَإظْهَـارُهُ بالصِّـدْقِ دُونَ الْـبَرِيَّةِ
وَنَفْـىُ خِـلاَفٍ وَامْتِـثَالُ لأمْـرِهِ وَإبْـدَاءُ وَارِدِهِ بِصَـفْوِ السَّـرِيرَةِ
وَيُشْـهِدُهُ فِـى القُـرْبِ وَالـبُعْدِ عِـنْدَهُ مُقِـيماً عَلَـى حَـالَىْ حُضُـورٍ وَغَيْـبَةِ
وَإيـثَارُهُ بالمَـالِ وَالـرُّوحِ بالرِّضَـا وَتَفْوِيضُـهُ لله فِـى كُـلِّ طَـرْفَةِ
وَيَلْـزَمُ لُبْسَ الصُّوفِ فَهْوَ شِعَارُ مَنْ تَلَقَّـبَ بالصُّـوفِى بَـيْنَ الخَلِـيقَةِ
وَيَـتَّخِذُ الإبْـرِيقَ مِـنْ بَعْـدِ مِـئْزَرٍ وَقَـدْ صَحَّ فـى الأَخْبَارِ إرْخَاءِ عَذْبَةِ
وَتَطْوِيلُهَـا فِـتْراً لَقَـدْ جَـاءَ مُسْـنَداً وَلِلنَّاسِ فـى خَيْرُ الْوَرَى خَيْرُ أُسْوَةِ
وَخَـيْطاً وَمِخْـيَاطاً وَمُوسَـى وَسُـبْحَةً وَمَـا كَـانَ مُحْـتَاجاً إلَـيْهِ لِفِطْـرَةِ
وَيَعْـتَزِلُ الْخَلْـقَ الْجَمِـيعَ وَفِعْـلَهُمْ كَـذَاكَ وُلاَةَ الأَمْـرِ فـى دَارِ دُنْـيَةِ
وَلاَ يَلْتَفِـتْ يَوْمـاً إلى غَـيْرِ شَـيْخِهِ فَذَلِـكَ وَصْـفٌ مُوجِـبٌ لِلْقَطِـيعَةِ
وَإغْضَاضُـهُ لِلطَّـرْفِ حَـالَ جُلُوسِـهِ لَدَيْـهِ وَفـى حَـالاَتِ نَـسٍ وَوَحْشَـةِ
وَيَـرْفَعُ تَوْقِـيراً كَـبِيراً لِسِـنِّهِ كَـذَا فَاضِـلاً عَـنْهُ وَلَـوْ ابْـنَ لَـيْلَةِ
وَيَـرْفَعُ أَبْـنَاءَ الطَّـرِيقِ وَيَتَّصِـفُ بِأَوْصَـافِهِمْ يَسْـمُو بِـنَفْسٍ زَكِـيَّةِ
فَتَعْظِـيمُهُمْ أَجْـرٌ وَتَحْقِـيرُ نَفْسِـهِ وَإنْصَـافُهُمْ مِـنْها جَدِيـرٌ بِجَـنَّةِ
وَبَـرُّهُمُو إنْ تَسْـتَطِعْهُ فَوَاجِـبٌ وَإنْقَـاذُهُمْ مِـنْ كُـلِّ ضَـيْقٍ وَشِـدَّةِ
إذا جَـازَ هـذَا الْوَصْـفَ أَغْنى جَمِيعَهُ فَبَشِّـرْهُ بالقُـرْبِ السَّـنِىِّ لِحَضْـرَةِ

وَيَظْفَرُ بالدَّارِ التى عَزَّ وَصْفُها وَفِيهَا البُدُورُ الغِيدُ أَسْقَتْ وَغَنَّتِ
يُشَاهِدُ أقْمَاراً بهَا وَعَرَائِسَا وَيشْرَبُ مِنْ كأْسِ الهَنا والْمَسَرَّةِ
هُنَاكَ الكِرَامُ النَّازِلُونَ مِنَ العُلاَ مَنازِلَ أفْرَادٍ مَعَاهِدَ سَادَةِ
بحيْثُ البَهَا وَالأُنْسُ بالقُدْسِ يَنْجَلي عَلى السِّرِّ جَهْراً فى جَمَالٍ وَبهْجَةِ
وَحَيْثُ كَمَالُ الذَّاتِ بالذَّاتِ وَاحِدٌ تَغَانَتْ بِهِ الأكْوَانُ عَنْ كلِّ وجْهَةِ
وَحَيْثُ البَقا بَعْدَ الفَنَاءِ لِسَالِكٍ أَزَالَ حجَابَ العَيْنِ مِنْ غَيْرِ نُقْطَةِ
وَإنْ لَمْ يَكُنْ شَيْخٌ يُريهِ شُخُوصَها وَيُدْنِيه مِنْ أُمِّ القُرَى وَبُثَيْنَةِ
فَلَيْسَ لَهُ مِنْ عُمْرِهِ غَيْرَ رَسْمِهِ وَعِيشَتُهُ فِينَا كعَيْشِ البَهِيمَةِ
وَيُدْعَى لَقِيطاً أيْنَ حَلَّ مُعطَّلاً وَإنْ كَانَ ذا عِلْمٍ كَزَوْجٍ عَقِيمَة
دَعِيّاً مَعَ السَّادَاتِ فى كلِّ مَوْطِنٍ كَذا نَقَلُوهُ جُلُّ أهْلِ الحَقِيقَةِ
وَأيَّامُهُ تَمْضى وَأعْمَالُهُ بهَا بِلاَ وَفْقِ شَرْعٍ فى أُمُورِ الشَّرِيعَةِ
وَهذا الَّذِى قَدْ يَسَّرَ اللهُ نَظْمَهُ عَلَى أحمَدِ المَشْهُورِ بَينَ الخَلِيقَةِ
بوَالِدِهِ عُثْمَانُ مَرْبًا وَمَنْشأً بحَانَاتِ شَرْنُوبٍ بأَرْضِ البُحَيرَةِ
وَأرْجُوا مِنَ اللهِ الكَرِيمِ قَبُولَهُ وَسِتْرُ عَيُوبٍ فِيهِ طَمَّتْ وَعَمَّتِ
وَيَنْفَعُنَا بالعِلْمِ ثُمَّ يُعِينُنَا بتَوْفِيقِهِ فى كلِّ وقْتٍ ولَحْظَةِ
وَيَجْعَلَ إخْلاَصى إلَيْهِ مُحَقَّقاً وَيَرْحَمُ شَيْبِى فِى شَتَاتى وغُرْبتى
وَيُدْرِجُنَا فِى سِلْكِ قَوْمٍ أحَبَّهُمْ رَضُوهُ وَأرْضَاهُمْ بحُسْنِ مَزِيَّةِ
وَيَعْفُوَ عَنى وَالَّذِينَ أحِبَّهُمْ وَيَدْفَعُ عَنَّا كُلَّ سُوءٍ وَفِتْنَةِ
وَيَرْزُقَنا وَالمُسْلِمِينَ بأسْرِهِمْ يَقِيناً يَقِينا كُلَّ شَكٍّ وَرِيبَةِ
بجَاهِ نَبِىٍّ مِنْ سُلاَلَةِ آدَمٍ بمَنْ خَلْفَهُ الأمْلاَكُ وَالرُّسْلُ صَلَّتِ
وَلَوْلاَهُ مَا كانَتْ لآدَمَ صُورَةٌ وَلا تَابَ عَنْهُ اللهُ مِنْ بَعْدِ أكْلَةِ

فَفِي فَضْلِهِ القُرآنُ جَاءَ مُبَيَّناً ... وَنَاهِيكَ قَوْلُ اللهِ مِنْ غَيْرِ خِلْقَةِ

وَمَنْ قَالَ مَخْلُوقٌ كَلامُ إلهِنَا ... سَيَصْلَى سَعيراً لِلْعُصَاةِ أُعِدَّتِ

مُحَمَّدُ المَبْعُوثِ لِلْخَلْقِ رَحْمَةً ... ودَعْوَتُهُ فِيمَا سِوَى اللهِ عَمَّتِ

عَلَيْهِ صَلاَةُ اللهِ مَا هَبَّتِ الصَّبَا ... وَمَا نَاحَ طَيْرٌ فَوْقَ غُصْنِ أَرِيكَةِ

وتَسْلِيمُهْ الأزكى عَلَيْهِ يَحُفُّهُ ... وَرِضْوَانُهُ عَنْ آلِهِ والصَّحَابَةِ

وَعَنْ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدٍ ... وَنُعْمَان الثَّوْرِي وَبَاقِي الأَئمةِ

وَعَنْ مُنْشِيءِ الأَبْيَاتِ مِنْ فِكْرِهِ ومَنْ ... قَرَاها وأَقْرَاها بِفَهْمٍ وَفِطْنَةِ

وَمَنْ قَدْ رَأى عَيْباً وَأَصْلَحَهْ وَلَوْ ... بِخَطٍّ حُرُوفٍ أوْ بِتَغْيِيرِ شَكْلَهِ

(فى معنى البسملة)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

ابتدأ بها اقتداء بمنزل الكتاب العزيز لما فى الحديث " **تخلقوا بأخلاق الله** " أى بالأخلاق التى يليق للبشر التخلق بها كالحلم والكرم، والبدء بما بدأ به كتابه ونحو ذلك ومعلوم أن كتابه سبحانه مبتدأ بها أعنى بعد ترتيبه وجمعه أو باعتبار ما فى اللوح المحفوظ فلا يرد أنها ليست أول ما أنزل قال بعض العارفين: ولما كانت الأسماء الإلهية سببوجود العالم، كانت البسملة خير ابتداء فكأنه يقول(**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**) ظهر العالم فهى بيان لافتتاح الايجاد، والدخول إلى بيت الوجود بحسب الاستعداد أ هـ

ومعنى الباء الاشارى: بى كان ما كان وبى يكون ما يكون ولذا قال بعض العارفين ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الباء مكتوبة عليه بمعنى بى قام كل شئ وإنما بدئت البسملة بالباء إشارة إلى أنه لا يتقدم إلى حضرته تعالى إلا أهل الانكسار فإن الباء لما بنيت على الكسر وعملت الجر فيما بعدها صار لها الرفعة والتقدم على حد ما يؤخذ بالإشارة من قول الإمام ابن الفارض:

ولو كنت بى من نقطة الباء خفضة   رفعت إلى ما لم تنله بحيلة

وإنما طولوا الباء فى بسم الله تعظيماً للحرف الذى بدئ كتاب الله به وإشارة إلى أن من تواضع لله رفعه وحذفوا ألف اسم من بسم الله وأثبوتها فى نحو ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ** ﴾(العلق:١) لكثرة استعمال البسملة وكثرة الاستعمال تقتضى الخفة .

ولفظ الجلالة علم على الذات الواجب الوجود . الواسع الكرم والجود . وهو اسم الله الأعظم عند الجمهور . وتخلف الإجابة عند الدعاء لتخلف شروطها التى منها أكل الحلال كما هو مشهور . أو أن الله تعالى ربما أخر الإجابة عند الدعاء به للوقت الذى يريده هو لا للوقت الذى يريده الداعى، وفى الحديث {ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث أما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له فى الآخرة وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها} . إذا علمت ذلك فلا تقع عند تأخر الإجابة فى اليأس من القبول . وتدبر ما ترنمت به نسمات القبول .

لا تيأسن وإن طال الصدود فقد   تجفى أناس وهم فى السر أحباب

فإذا دعوت وتوهمت أو سمعت لا، فلا تكن ممن أعرض وسلا، بل علق رجاءك بمولاك فإنه يبلغك مناك، وتأمل قول من قال، من أهل الأحوال:

أستشعر اليأس فى لائم يطمعنى	إشارة فى أعتناق اللام بالألف

هذا وقد قال بعض العارفين بعد قوله ﷺ (ان لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة) أعلم أن المسمى واحد وأسماؤه كثيرة سمى بها نفسه ليتسع مجال الداعين بها فهى للداعين كالأبواب والطرق الموصلة للمقصود ولا شك أن بعض أسمائه تعالى أقرب للوصول من بعض لأن مسالكها تختلف باختلاف السالكين فرب دعاء ببعض الأسماء يصلح لشخص دون آخر ورب دعاء باسم يكون قريباً جداً لمن جد فى خاصيته دون من فتر عنه . أ هـ ..

واعلم أن الذكر والدعاء بالأسماء على وجهين:

الأول: أن يكون بحرف النداء بأن تقول يا الله .

والثانى: باسقاطه بأن تقول الله الله .

ثم أنه ينبغى للداعى أن يستحضر المدعو بقلبه أن يذكر اسمه على أحسن كيفية وهو كونه على طهارة كاملة مستقبل القبلة جالساً مثل جلوسه فى الصلاة مائلاً نحو القبلة برأسه فإذا قال الله فينبغى أن يفتح الهمزة ويمد اللام ويسكن الهاء وإلا لم يستفد جميع الخصائص ومن أكثر من ذكر هذا الاسم على هذه الكيفية فى خلوة كان له فى العالم الروحانى والجسمانى تصريف عجيب، وأمر غريب، ومن تقيد به سبعة أيام بصيام وأكثر من ذكره فى خلوة صار مجاب الدعوة مطاعاً للروحانيين، فهو كما قال بعض العارفين:

اسم إذا قرع القلوب تمايلت	طرباً وتمت بالتقى أسرارها
وإذا حدا الحادى بطيب حديثه	طابت وفاحت بالرضا أزهارها
ترتاح إن ذكر اسمه ويهزها	طرباً إذا خفت به أوكارها
وإذا ابتدأت بذكره فى حضرة	حضر السرور بها وطاب مزارها

وما ألطف قول ابن العربى:

غـن لى باسـم مـن أحـب وخـلى ... كـل مـن فـى الوجود يرمى بسهمه

لا أبـالى وان أصـاب فـؤادى ... إنـه لا يضـر شـئ مـع اسمـه

(فى أسماء الله الحسنى)

ثـم اعـلم: أن السر المصون فـى الدعاء بالأسماء أن تأخذ عدد حروف الاسم بالجمل وعدد صورته الرقمية التى يرسم بها ثم تدعوه بعد ذلك .

مـثال ذلك: اسمـه تعالى (الله): فإنه أربعة أحرف وعدده بالجمل ستة وستون فيكون مجموع ذلك سبعين فتستغيث بـه سبعين مرة ثم تسأل حاجتك ثم تذكره أيضاً بعدد اسم الحاجة ويكون ذلك بجمع همة وإخلاص فإنه يستجاب لك فى الحين .

(والـرحمن الرحـيم): صـفتان لله مشـتقتان مـن الـرحمة والمراد مـنها هـنا الإحسـان أو إرادتـه. وإنمـا حذفـوا ألـف (رحمـن) لكثرة الاستعمال ومعناه المنعم بجلائل النعم أى النعم الجليلة، وأمـا (رحـيم) فمعناه المنعم بدقائق النعم أى النعم الدقيقة، وذكر الرحيم بعد الرحمن إشـارة إلى أنـه كمـا يطلـب مـنه الجلـيل يطلب منه الحقير لما فى الحديث القدسى **(يا موسى سلنى فـى ملح قدرك وشراك نعلك)** فهو من باب التتميم وليس من باب الترقى حتى يرد أن القياس يقتضـى الترقـى مـن الأدنـى للأعـلى كعـالم نحـر يـردون العكـس كما هنا . واعلم أنه سبحانه أرحـم بعـبده مـن الوالـدة بولدها فلا يصدر عنه تعالى إلا ما هو خير بالنسبة لاستعداد كـل شـخص لما يليق بـه . والمحن الدنيوية، ربما كانت فى الحقيقة منحاً سنية، فلا يقال بعد هـذا إن مقتضـى أسمه رحيم أن لا يكون شئ من الأمراض والعلل . لأنك قد علمت خيرية ذلك باعتبار بلوغ الأمل، ولذا قال الإمام الجيلى:

تلـذ لى الآلام مـذ أنـت مسـقمى ... وإن تمنحـنى فهـى عـندى صنائع

فقـد تلـذذ بـالآلام، وعدها من الصنائع أى العطايا باعتبار ما يعقبها من بلوغ المرام، ومن ذلك قول الإمام ابن الفارض:

وكـل أذى فـى الحـب مـنك إذا بدا ... جعلـت لَـه شـكرى مكـان شكايتى

وما حل بى من محنة فهو منحة وقد سلمت من حل عقد عزيمتى

يعنى أن كل ما أتانى من جنابك فهو عين المنح والمنن، وإن ظهر فى صورة البلايا والمحن .. ثم إن حظ العبد من التخلق باسمه تعالى الرحمن أن يصرف عباده الغافلين عن طريق الغفلة بالوعظ والنصح رحمة بهم ويكون ذلك بطريق اللطف لا بطريق العنف وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الازدراء وأن تكون كل مصيبة تجرى فى العالم كمصيبة لَه فى نفسه فلا يألو جهداً فى إزالتها، وحظه من التخلق باسمه تعالى الرحيم أن لا يدع فاقة لمحتاج إلا سدها بقدر طاقته وأن يبذل جاهه وماله لمن استعان به فان لم يقدر فيعينه بالدعاء والتضرع رأفة به: (فإنما يرحم الرحمن من رحما) . ويرحم الله القائل:

ارحم بنى جميع الخلق كلهم وانظر اليهم بعين اللطف والشفقة

وقر كبيرهمو وارحم صغيرهمو وراع فى كل خلق حق من خلقه

وقد بدأ المصنف ﷺ منظومته بالبسملة لكونها من الشعر النافع، وأما الشعر الغير المحتوى على علم أو وعظ فلا يجوز بدؤه بها وفى البسملة فوائد لا تحصى، وأسرار لا تستقصى، فقد ورد مرفوعاً: إذا وقعت فى ورطة أى شدة فقل (**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم**) فإن الله تعالى يصرف بهما ما شاء من أنواع البلاء وروى عن النبى ﷺ أنه قال لمن قال (**تعس الشيطان**) لا تقل ذلك فإنه يتعاظم عنده ولكن قل (**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**) فأنه يصغر حتى يصير أقل من الذباب وروى أنها لما نزلت اهتزت لهيبتها الجبال. وقال سيدى أحمد الدمنهورى فى شفاء الظمان: (من قرأ البسملة فى وجه ظالم خمسين مرة أذله الله ومن قرأها عند النوم أحدى وعشرين مرة آمنه الله فى تلك الليلة من الشيطان الرجيم ومن السرقة ومن فجأة الموت ويدفع عنه البلاء) .

ونقل العارف الشعرانى فى طبقاته عن سيدى محمد أبى المواهب الشاذلى أنه قال: (**رأيت رسول الله ﷺ فى المنام فقال لى: قل عند النوم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم خمساً وبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ خمساً ثم قل اللهم بحق محمد أرنى وجه محمد ﷺ حالاً ومآلاً فانك إذا قلت ذلك ترانى فى المنام ولا أتخلف عنك**) والكلام على البسملة كثير، ويكفى التبرك بهذا النزر اليسير، ولعل المصنف اكتفى بها عن الحمد لما فيها من الثناء على الله تعالى أو أنه أتى بالحمد والصلاة على النبى ﷺ لفظاً وترك ذلك خطاً رعاية للإختصار .

(فى حد علم التصوف)
{ مقدمة }

نذكر فيها حد علم التصوف وموضوعه وفائدته ليكون الشارع فيه على بصيره (فحده) علم يعرف كيفية تصفية الباطن من عيوب النفس وصفاتها المذمومة كالحقد والحسد والغش والغل وطلب العلو وحب الثناء والكبر والرياء والغضب والأنفة والطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والإستهانة بالفقراء ونحو ذلك فالتصوف هو التخلى عن الرذائل والتحلى بأنواع الفضائل، ويقال هو حفظ حواسك، ومراعاة أنفاسك، ويقال هو الاكباب على العمل، والإعراض عن العلل، ويقال هو استعمال الوقت فيما هو أولى به ولذا قالوا الصوفى (ابن وقته) . وما ألطف قول ابن الفارض:

وكن صارماً كالوقت فالمقت فى عسى ... وإياك على فهى أخطر علة

وقال الجنيد: التصوف أن يميتك الحق عنك ويحييك به، يعنى أن يميتك عن نظرك لنفسك ويحييك بذكره ومناجاته وهذا أكمل درجات التصوف والصحيح أنه أنما يدرك بالذوق لقول العارف الشعرانى فى طبقاته: التصوف عبارة عن علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة فكل من عمل بهما انقدح لَه من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها . أ هـ . ولذا قال بعضهم:

علم التصوف علم ليس يدركه ... إلا أخو فطنة بالحق معروف

وكيف يعرفه من ليس يشهده ... وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

ومبناه على التمسك بآداب الشريعة والتباعد عن الشبهات . وحفظ الحواس وعد الانفاس للتحرز من الغفلات . وموضوعه أفعال القلب والحواس من حيث التزكية والتصفية . وفائدته إصلاح الإنسان ظاهراً وباطناً فإن التصوف من تصفى من الكدر وامتلأ من العبر . وانقطع لعبادة ربه عن البشر . واستوى عنده الذهب والمدر . وليس كمن قيل فيه، من بعض واصفيه:

ليست مرقعاً صوفاً وقلنا ... أنا الصوفى ليس كما زعمتا

والصوفية مقتدون فى الزهد فى الدنيا والانقطاع للعبادة بأهل الصفة ﷺ، وهى سقيفة اتخذها فقراء الصحابة فى مسجد رسول الله ﷺ فهم منسوبون للصفة (فأصل صوفى صفى)

فأبدل أحد حرفى التضعيف لينا، وقيل نسبة للصوف لكونهم اختاروا لبسه زهداً فى الدنيا وقيل إن الصوفى مشتق من الصفاء ففيه قلب وعليه قول بعضهم:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ... ولا بكاؤك ان غنى المغنونا

ولا صياح ولا رقص ولا طرب ... ولا اضطراب كأن قد صرت مجنوناً

بل التصوف أن تصفو بلا كدر ... وتتبع الحق والقرآن والدينا

وأن ترى خاشعاً لله مكتئباً ... على ذنوبك طول الدهر محزوناً

وقول بعضهم:

ولست امنح هذا الاسم غير فتى ... صافى فصوفى حتى سمى الصوفى

(فى أصول الطريق الصوفى)

واعلم أن طريق الصوفية هى طريق الأبرار ولم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية: وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها . فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء فى الفقه وأصوله والتوحيد والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطائفة فى طريقتهم . فمنهم من كتب فى أحكام الورع ومحاسبة النفس فى الأخذ والترك ومنهم من كتب فى آداب الطريق ومنهم من جمع بين ذلك وهذا العلم هو علم الوراثة المشار إليه بخبر (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) وقد بنى المصنف ﷺ قصيدته على أصول . تضمن للمريد قرب الوصول . فهى جديرة بتسميتها (**تائية السلوك إلى ملك الملوك**) . فقال:

أُصُولُ طَرِيقِ الْقَوْمِ أَهْلِ الحقيقَةِ ... هُدَاةِ الْوَرَى الْمَهْدِيـنَ مِنْ خَيْرِ مِلَّةِ

طَهَارَةُ أَنْفَاسٍ وَصِدْقُ مَوَدَّةٍ ... وَحِذْقٌ وَآدَابٌ وَتجْرِيدُ هِمَّة

أقول: أصول جمع أصل بمعنى الأساس الذى ينبنى عليه غير . وقد أراد المصنف بالأصول فى هذه المنظمة ما يشمل الأركان واللوازم والشروط والأحوال فإن الأصول عندهم ثلاثة

عشر . التوبة والخوف والرجاء والحزن والقناعة والزهد والورع والتوكل والصبر والشكر وجهاد النفس والرضا بالقضاء وترك العباد أى ترك الالتفات لأحوالهم ولو مع الخلطة بهم ليحصل التغاير بينه وبين العزلة التى هى ركن من الأركان الأربعة المجموعة فى قول بعضهم:

بيت الولاية قسمت أركانه ساداتنا فيه من الأبدال

ما بين صمت واعتزال دائم والجوع والسهر النزيه الغالى

واللوازم التى لابد منها لمريد السفر لا سيما مريد سفر الآخرة عشرة: المقصد: وهو الباعث على السفر، والدليل: وهو الشيخ، والزاد: وهو التقوى، والسلاح: وهو الوضوء والسراج: وهو الذكر، والمطية: وهى الهمة القوية، والعكاز: وهو العجز، والحزام: وهو الحزم، والمنهاج: وهو الشريعة، والرفقة: وهم اخوان الصدق، وما عدا ذلك فهو من الشروط والأحوال . وسأبين ذلك كله عند كل بيت ان شاء الله تعالى . والشروط عندهم كثيرة وتارة يعبرون عنها بالآداب، فمنها: دوام المراقبة والموت الاختيارى، ومحاسبة النفس وملازمة الشيخ ومداومة الذكر والأوراد، وحل ما به الانتفاع من الأكل ونحوه، والاقتصاد فيه وترك الافتخار بالعلم والجاه والنسب . والغربة أما بالجسم أو بالقلب، وحسن الأخلاق والوفاء بالوعد، وحفظ القلب من موجبات الجفاء، والرفق فى كل الأمور، والكرم والعفو عمن أساء أو ظلم، والتأنى فى الأمور، وكظم الغيظ، والحلم، والخشوع، والصدق والخضوع، وتصفية الباطن من الحقد والحسد والغرور والبغضاء، وذل النفس، لا عن منقصة والرحمة للمخلوقين والأدب معهم ومن آكد الشروط إجتناب الأحداث، وأصحاب النفوس، وترك الخلطة بالإناث، وعدم استبطاء الفتح وعدم الانتصار للنفس ولو بحق، وترك سماع مدح مادحه ولو بصدق، وأن لا يحزن على ما فات ولا يفرح بما يأتى من أمور الدنيا وعدم اتباع الهوى وترك الجدال والمراء والرضا بالقضاء والحمد لله على كل حال .

ثم إن الطريق يذكر ويؤنث ويجمع على طرق بضمتين وهو مرادف للسبيل قال تعالى: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾(يوسف: ١٠٨) والقوم هم الذين يقومون بالأمر حق القيام ووصفهم بقوله أهل الحقيقة وهى عند أهل الحق سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه عند مشاهدة أنه الفاعل لا أنت، ومعلوم أن الحقيقة لا تكون إلا بعد الاغتراف من عين الشريعة فإن الحقيقة نتائج العلوم . وبها يترجم المتحقق عن الأسرار التى لا تحيط بها الفهوم، على حد قول بعض العارفين:

يا رب جوهر علم لو أبوح به لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمى يرون أقبح ما يأتونه حسناً

فإن سر الحقيقة تقصر العبارة عن أدائه فكل عبارة تقربه للذهن من وجه تبعده عنه من وجوه على حد ما قيل:

كلما أقبل فكرى فيك شبراً فر ميلاً

فالحقيقة هى العلوم الباطنية، وقد روى أنه ﷺ أوحى إليه ثلاثة علوم علم أمره الله بافشائه وهو (**علم الأحكام**)، وعلم خيره الله فيه وهو (**علم الأسرار**)، وعلم أمره بكتمه إلا عن بعض خواصه وهو علم (**سر القدر**) . الذى قال فيه ابن العربى: إن سر القدر لم يطلع الله عليه نبياً مرسلاً ولا ملكاً مقرباً إلا نبينا محمداً ﷺ وقد أطلعنى الله عليه بطريق الوراثة المحمدية وفى الحديث علم الباطن سر من أسرار الله تعالى يقذفه فى قلب من يشاء من عباده، ولهذا استعمل الصوفية الرموز والإشارات ليصونوا الأسرار عن غير أهلها كما قال بعضهم:

ألا أن الرموز دليل صدق على المعنى المغيب فى الفؤاد
وكل العارفين لها رموز وألغاز تدق على الأعادى

ويقال الشريعة أمر للعبد بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية . عند التحقق بمقام الإحسان المشار إليه فى خبر (**أن تعبد الله كأنك تراه**) والطريقة هى سلوك طريق الشريعة مع العمل بالأحوط وعدم تتبع الرخص فالشريعة جاءت بتكليف الخلق، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، فقولك (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**) حفظ للشريعة، (**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) إقرار بالحقيقة، فبطون الحقيقة فى الشريعة والطريقة كبطون الزبد فى اللبن لا يظهر بدون مخضه والمراد من الثلاثة إقامة العبودية على الوجه المراد من العبد، وإنما وقعت التفرقة بين الحقيقة والشريعة بالنظر للغلبة فى حال العابد والعارف فإن العابد لما كان يغلب عليه الوقوف مع الأعمال وإتقانها وإخلاصها سمى صاحب شريعة ولما كان العارف يغلب عليه حال الحق ويرى أن جميع ما هو فيه من فضله سمى صاحب حقيقة، وقد كان سيدى إبراهيم الدسوقى يقول: (العلم كله مجموع فى حرفين أن تعرف العبودية وتعبده فمن فعل ذلك فقد أدرك الشريعة والحقيقة) . ثم قال: (فالشريعة هى الشجرة والحقيقة هى الثمرة) أ هـ .

وكان سيدى داود الشاذلى يقول (جلت الحقيقة أن تكون البشرية محلاً لتلقيها ولكن إذا أراد أن يوصلها اليك، انبسط شعاع سلطانها عليك، فمهد فى قلبك محلاً لتلقيها فيها وجدتها لا بك على حد ما) قيل:

أعارته طرفاً رآها به ... فكان البصير بها طرفها

إذا علمت أن الحقيقة ثمرة الشريعة بل هى عينها فى الحقيقة على ما قاله السادة الأخيار، فشم رائحة للشريعة قبل ادعاء الحقيقة تكن من أهل الاستبصار.

وإن كنت مزكوماً فليس بلائق ... حقاً لك هذا المسك ليس بفائح

ثم إن المصنف وصف القوم أيضاً بقوله هداة الورى جمع هاد من الهداية بمعنى الدلالة إذ هم الذين دلوا الورى أى الخلق على ما فيه صلاحهم الدنيوى والأخروى بتهذيب النفوس وغير ذلك وإنما وصفهم بعد ذلك بقوله المهدين أى الذين هداهم الله لأن الهادى إذا لم يكن مهتدياً فى نفسه لم يصلح لهداية غيره بل يكون جديراً بدخوله فى تهديد وعيد قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:٤٤) وحرياً بأن ينادى عليه بقوله القائل:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا ... كيما يصح به وأنت سقيم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يسمع ما تقول ويشتفى ... بالقول منك وينفع التعليم

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

وقد خرج بعض العارفين لمجلسه الذى يعظ الناس فيه فسكت طويلاً ثم قال زاجراً لنفسه:

وغير تقى يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوى الناس وهو مريض

وقوله من خير ملة أى الذين هداهم الله واجتباهم من خير ملة وهى ملة الإسلام التى قال الله فى أهلها: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾(آل عمران:١١٠) وقوله طهارة أنفاس وما عطف عليه خبر المبتدأ الذى هو أصول

وإنما بدأ بطهارة الأنفاس لأنها مفتاح الوصول إلى مراتب السعادة . كما أن طهارة الظاهر مفتاح للعبارة . وهي عبارة عن التخلص من الذنوب والغفلات . والتباعد عما لا يرضى بارئ الأرض والسموات . فلا تستميل من تلبس بهذه الطهارة شهوة عن خدمة مولاه . ولا يجره الحقد والحسد إلى إتباع شيطانه وهواه . فتكون أنفاسه طاهرة نقبة . لصفاء باطنه من الكدورات النفسية . ومتى تنزه الباطن عن ذلك تطهر منه الأنفاس . بل تطهر جميع جوارحه من أدناس ﴿ **الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ** ﴾(الناس:٤-٥) . ولا تتحقق الطهارة إلا بالتوبة النصوح التي هي أصل الأصول، وباب الأبواب الذى يكون منه الوصول ثم ثنى بقوله وصدق مودة يعني أن من شروط طريق المقربين أن يكون المريد صادقاً في المودة لكل الناس لا فرق عنده بين الغريب والبعيد لما في الحديث (**من نظر إلى أخيه نظرة ود غفر له**) . وينبغي أن يكون صادقاً في معاملة مولاه . بوجود سر الإخلاص فيما يحبه ويرضاه . ليدخل في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾(مريم:٩٦) وما ألطف قول بعض العارفين:

تحن قلوب العاشقين إلى الود	**كما حن ظمآن الهجير إلى الورد**
وتشتاق أرواح المحبين للقا	**كشوق كثيب هائم زائد الوجد**

وقال بعضهم:

قف بباب الحبيب ليلاً وناده	**وتشكى من هجره وبعاده**
وعلى الباب عفر الخد ذلاً	**ولتكن حافظاً قديم وداده**
ثم قال طالت القطيعة والهجر	**وجفني لم يكتحل برقاده**
فالحبيب الذى ترجيه أضحى	**جوده فائضاً على قصاده**

ومن شروط الطريق أيضاً حذق بكسر الحاء المهملة وسكون الذال المعجمة آخره قاف يقال حذق الرجل في صنعته من بابي ضرب وتعب حذقاً مهر فيها أو عرف غوامضها ودقائقها والمراد أن معرفة الحقائق على الوجه الأتم من شروط الطريق . وكذلك من شروطها أداب بالمد جمع أدب والمراد تأديب نفس المريد ظاهراً وباطناً بامتثال المأمورات . واجتناب المنهيات فإن الأدب الأخذ بمكارم الإخلاق . الموصلة إلى الكريم الخلاق . وهو منحصر في خمسة أشياء: (حفظ المريد الحرمة مع الله) . (وشكر النعمة التى أنعم بها عليه مولاه) .

(وعلو الهمة بحيث لا يكون له تعلق بشئ من النقائص)، (وحسن الخدمة بلزوم الأتباع وترك الابتداع) . (ونفوذ العزيمة بحيث لا يتراخى فى محل التشمير . ولا يركن لموطن التقصير وهو مبنى على خالص التوحيد) فالأدب اسم جامع لحقائق الخيرات . وأنواع المبرات، ويختلف باختلاف همم المتأدبين فهو بالنسبة للمريدين رياضة النفوس بنور المتابعات، وتأديب الجوارح بحفظ الحدود وترك الشبهات، وبالنسبة لأهل الحقائق العارفين، ممن ترقت همتهم عن العالمين . اشتغالهم بطهارة القلوب ومراعاة السرائر، حتى يكاشفوا عما أكمنته الضمائر .

{ وقيل } للحسن البصرى قد أكثر الناس فى علم الآداب فما أنفعها عاجلاً وأوصلها آجلاً فقال التفقه فى الدين والزهد فى الدنيا والمعرفة بما لله تعالى عليك (وكان) بعض العارفين يقول من لم يعرف ما لله ﷻ وما للخلق عليه فى نفسه من الحقوق التى لزمته ولم يتأدب مع الله ومع خلقه بأمره ونهيه كان من الأدب فى عزلة (وقال بعضهم) نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم ومراده أن الأدب القليل مع الحق تعالى وعموم الخلق أنفع من العلم الكثير المجرد عن الأدب المذكور (وكان) أبو نصر الطوسى يقول: [الناس فى الأدب على ثلاث طبقات . (أما أهل الدنيا فأكثر آدابهم فى الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسمار الملوك وأشعار العرب) وأما أهل الدين فأكثر آدابهم فى رياضة النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات)، (وأما أهل الخصوصية فأكثر آدابهم فى طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت وقلة الالتفات إلى الخواطر)] .

وقال بعض العارفين: قد أكثر الناس الكلام فى الأدب ونحن نقول هو معرفة النفس بعجزها وافتقارها إلى ربها فإن من عرف نفسه بالعجز والافتقار . فقد عرف ربه بالغنى والاقتدار، ومن عرف نفسه وربه بما ذكر تأدب فى طاعته (ويقال) ثلاث خصال ليس معهن غربة حسن الأدب وطيب الأخلاق واجتناب كل أمر فيه ريبة وجمعها بعضهم فى قوله :

يـزين الغريـب إذا مـا أغـترب ... ثـلاث فمـنهن حسـن الأدب

وثانـية طيـب أخلاقـه ... ويخـتمهن اجتـناب الريـب

لا سيما إذا أنضم إلى ذلك حسن مداراة الناس { لما فى الحديث } أمرت بالمداراة

ومن الحكم النوابغ:

ودارهــم مــا دمــت فــى دراهــم وأرضــهم مــا دمــت فــى أرضــهم

وما ألطف قول بعضهم:

مـا دمـت حـياً فـدار الـناس كـلهم فإنمـــا أنـــت فـــى دار المـــداراة

من يدر دارى ومن لم يدر سوف يرى عمـــا قلـــيل نديمـــاً للـــندامات

واعلم أن حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن لما فى الحديث لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه فإذا تعمر قلب العبد بالمراقبة لله تعالى وتأدب بالآداب الشرعية تبعته الجوارح .

وقال السهر وردى: فى عوارف المعارف، بالأدب يفهم العلم وبالعلم يصح العمل وبالعمل تنال الحكمة .

وقال أبو يزيد البسطامى: مددت ليلة رجلى فى محرابى فهتف بى هاتف من يجالس الملوك ينبغى له أن يجالسهم بحسن الأدب قال فما مددت رجلى بعد ذلك .

وقال السيد الشريف: يريدون بالأدب أدب الشريعة ووقتاً أدب الخدمة، ووقتاً أدب الحق . فأدب الشريعة الوقوف عند رسومها، وأدب الخدمة الفناء عن رؤيتها مع المبالغة فيها. وأدب الحق أن تعرف ما لك وما له أ هـ .

ومن جوامع الآداب: ما كتبه بعض العارفين إلى عمر بن عبد العزيز أما بعد: فخف مما خوفك الله واحذر مما حذرك الله وخذ مما فى يديك لما بين يديك فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام .

وكتب إليه أيضاً: أما بعد: فإن الهول أعظم والأمور المفظعات أمامك ولابد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر فى العواقب نجا ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غنم ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن ابصر فهم ومن فهم علم فإذا زللت فارجع وإذا ندمت فأقلع وإذا جهلت فاسأل وإذا غضبت فأمسك، فتمسك بهذه الآداب . إن أردت أن تكون من جملة الأحباب . ومن اللوازم تجريد همة بعنى أن تكون همة المريد وهى الاهتمام بالشئ مجردة لما يقربه لمولاه . فلا يهتم إلا بما يحبه سيده ويرضاه .

قال السيد الشريف: الهمة توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق لحصول الكمال أو لغيره .

وسئل سيدى عبد القادر الجيلى عن الهمة فقال: هى أن يتعرى العبد بنفسه عن حب الدنيا وبروحه عن التعلق بالعقبى وبقلبه عن إرادته مع إرادة المولى ويتجرد بسره عن أن يلمح الكون أو يخطر على سره، ثم قال المصنف ﷺ عاطفاً على ما تقدم بتقدير حرف العطف:

حَيَاءٌ وَإِخْلَاصٌ ذَكَاءٌ وَفِطْنَةٌ كَذَا الوَرَعُ المَحْمُودُ فِى كُلِّ شِرْعَةِ

أى ومن شروط الطريق حياء بالد وهو خلق يبعث على ترك القبيح، وفعل المليح . ويقال هو ما يمنعك عما يضرك، وفى الحديث: {الحياء خير كله لا يأتى إلا بخير} .

وروى عن ابن مسعود ﷺ أن النبى ﷺ قال ذات يوم لأصحابه {استحيوا من الله حق الحياء} . فقالوا إنا نستحيى يا رسول الله والحمد لله قال {ليس ذاك ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا} أ هـ .

واعلم: أن الحياء قسمان (إيمانى) وهو ما علمته (وطبيعى) وهو ما يعترى الإنسان حتى يمنعه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومن سؤاله عن مهمات المسائل فى الدين إذا أشكلت .

ولذا ورد عن عائشة ﷺ أنها قالت: نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهن .

قال الإمام الشعرانى: وليحذر الإنسان من الحياء الطبيعى فإنه معدود من جملة الكبر عند القوم وهو أن يستحى الشخص أن يذكر الله تعالى برفع الصوت بحضرة الناس وأكثر من يفعل ذلك أصحاب الأنفس كالقضاة والمباشرين ومشايخ العرب فمثل هؤلاء يجب عليهم الذكر برفع الصوت حتى يخرجوا عن الكبر أ هـ .

وقد قيل لأبى سفيان: ما أول الحياء؟ فقال: أن تستحى منه أن يراك حيث نهاك، قيل: فما غايته؟ قال: أن تستحى منه أن يعلم أنك تريد بقلبك سواه .

وقالت عائشة ﷺ: مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث، وصدق البأس، وأداء

الأمانة. وإكرام الجار. وصلة الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الذمام للصاحب. وقرى الضيف. ورأسهن الحياء .

وقال على كرم الله وجهه: من جعل الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه .

وقال بعض السلف لابنه: يا بنى إذا دعتك نفسك إلى معصية فارم ببصرك إلى السماء واستح ممن فيها فإن لم تفعل فارم ببصرك إلى الأرض، واستح ممن فيها فإن لم تفعل فعد نفسك من البهائم .

وقال السرى السقطى: إن الحياء والأنس يطرقان القلب فإن وجدا فيه الزهد والورع حطا وإلا رحلا، وبيان ذلك أن الحياء ثمرة دوام المراقبة والأنس ثمرة دوام العبادة بالإخلاص فلا يحلان إلا فى محل خال عن الشاغل عن الله تعالى. ولعزة أهل هذا المقام قال الإمام القشيرى فى رسالته تعامل القرن الأول بالدين حتى رق الدين ثم تعامل القرن الثانى بالوفاء حتى ذهب الوفاء ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى ذهب الحياء ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة أ هـ .

ولله در القائل:

إذا لم تخش عاقبة الليالى	ولم تستحى فاصنع ما تشاء
فلا والله ما فى العيش خير	ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

وكان الفضيل بن عياض يقول: خمس من علامات الشقاء قسوة القلب وجمود العين وقلة الحياء والرغبة فى الدنيا وطول الأمل . فتجنبها أيها المشفق على نفسك وحى على خير العمل .

وفى الحديث القدسى (يا عبدى إنك ما استحييت منى أنسيت الناس عيوبك وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك ومحوت من أم الكتاب زلاتك ولا أناقشك الحساب يوم القيامة) . ومن الشروط إخلاص فى العمل بأن لا يعمل العبد ليراه الناس . فإن مراعاة الناس تحبط الأعمال وتوجب الإفلاس . لأن الرياء هو الشرك الخفى وقد قال تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾(الزمر:٦٥). فالمراد أن يخلص المريد قلبه من شائبة النظر للأغيار ويوجهه إلى محض التقرب إلى العزيز الغفار . فإن الإخلاص سر من أسرار الله تعالى، وثمرته نسيان رؤية الخلق، بدوام النظر إلى الملك الحق، وناهيك قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾(البينة:٥) .

وفـي الحديـث القدسـي {أنـا أغـنـي الشركاء عن الشرك فمن عمل لى عملاً أشرك فيه غيرى فأنا منه برئ} .

وقـال ﷺ {مـن أحسـن الصـلاة حيـث يـراه الـناس وأسـاء الصـلاة حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه تعالى} .

فاحـرص يـا أخـى عـلى مدوامة الإخلاص، وتوق من ملاحظة الأشخاص، والله يتولى هـداك ومـن الشـروط ذكـاء بفـتح الذال المعجمة والمد وهو قوة الذهن بحيث تقدر النفس معها عـلى تصور ما يرد عليها من المعانى الدقيقة، ومن الشروط فطنة وهى التنبه للشئ الذى يراد مـنه فيكون ذا بصيرة بعواقب الأمور فيهدم دنياه ليبنى بها أخراه ولا يهدم أخراه ليبنى بها دنياه فإن هذا الأخير إنما ينشأ من الغفلة التى هى ضد الفطنة .

وما ألطف قول المتنبى:

لا يـدرك المجـد إلا سـيد فطـن ... لمـا يشـق عـلى السـادات فعـال

وكـذا من الأصول الورع بفتح الواو والراء المحمود في كل شرعة بكسر الشين المعجمة وسكون الراء وهى والشريعة والشرع ألفاظ مترادفة على معنى واحد أى دين .

واعـلم: أن الـورع هـو تـرك الشبهات . خوف الوقوع فى المحرمات، وهذا ورع العامة، وأمـا ورع الخاصـة فهـو صحـة الـيقين . وكمـال الـتعلق بـرب العالمين . ووجود السكون إليه . وعكـوف الهمـم علـيه . وقـال بعضهم: الورع الخروج عن كل شبهة ومحاسبة النفس كل طرفة عين . ومن كلام بعض العارفين: ملاك الدين الورع، وفساده الطمع .

وقـال أبـو بكـر الـوراق: (لو قيل للطمع من أبوك لقال الشك فى المقدور ولو قيل له ما حرفتك لقال اكتساب الذل ولو قيل له ما غايتك لقال الحرمان) .

وكـان بعض العارفين يقول: اتقوا الله وموتوا نفوسكم بالورع وقوة الثقة والاستغناء بالله عـن طلب الحوائج إلى ذى سلطان فإن من خضع لصاحب سلطان أو لمن يخالف دينه طلباً لما فـى يديـه مـن دنياه مقته الله ووكله إليه . فإن تحصل على شئ من دنياه نزعت البركة منه ولم يؤجر عليه . وما ألطف قول بعضهم:

تـورع عـن سـؤال الخلـق طـرا ... وسـل ربـاً كـريماً ذاهـبات

ودع زهـرات دنـياك اللواتـى ... تـراها لا محالـة ذاهـبات

وقال بعض العارفين: الورع فى المنطق أكمل منه فى الذهب والفضة كما أن الزهد فى الرياسة أكمل منه فى الذهب والفضة وبهذا يتضح قصور قول بعضهم:

إنــى وجــدت ولا أقــول بغــيره ... أن الــتورع ضــد هــذا الدرهــم

فــإذا قــدرت علــيه ثــم تركــته ... فاعــلم بــأن تقــاك تقــوى مســلم

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام : لم يتقرب إلى المتقربون بمثل الورع والزهد .

ومن المواعظ اللطيفة ما حكى: أن رجلاً كتب رقعة وهو فى بيت بالكراء فأراد أن يتربها من جدار البيت فخطر بباله أنه بالكراء ثم خطر بباله أنه لا خطر لهذا القدر وتربها فسمع هاتفاً يقول سيعلم المستخف بالتراب . ما سيلقاه غداً من طول الحساب . ثم قال المصنف رضي الله عنه:

وَذَوْقٌ وَشَــوْقٌ وَالحُضْــوُرُ بِقَلْــبِهِ ... وَفَطْمِ مُـرَادِ الـنَّفْسِ عَـنْ كُلِّ شَهْوَةِ

الذوق والشوق من الأحوال التى تنشأ عن نحو فطم مراد النفس عن كل شهوة والأذواق التى يشير إليها القوم عبارة عن نور عرفانى يقذفه الحق بتجليه فى قلوب أوليائه به تحل الرموز، وتفتح الكنوز، وتدرك المعارف التى أفاضها عليهم الكريم الوهاب، من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب، ولذا قيل لبعضهم ما حقيقة الذوق؟ فقال: هو فوق الفوق، وقد حده لسانى بما شهده جنانى:

الــذوق لطــف مــع الأرواح يــبرزه ... نطق اللسان بما فى القلب من حكم

وأما (الشوق) فهو انجذاب القلب إلى مشاهدة المحبوب، ويقال هو نار الله أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والإرادات، والعوارض والحاجات. وهو ناشئ عن المحبة فإذا بلغه العبد استبطأ الموت شوقاً إللا ربه، وأخذ فى التواجد والتطاير إلى حظيرة قربه:

فقــل للــذى يــنهى عــن الوجــد أهلــه ... إذا لم تــذق معــنا شــراب الهــوى دعــنا

إذا اهــتزت الأرواح شــوقاً إلى اللقــا ... ترقصــت الأشــباح يــا جــاهل المعــنى

فــيا حــادى العشــاق قــم واحــد قائمــاً ... وزمــزم لــنا باســم الحبيــب وروحــنا

وقد قالوا كشف النقاب . أشهى للمشتاق من لبس الثياب:

فبح باسم من أهوى ودعنى من الكنى — فلا خير فى اللذات من دونها ستر

ويقال إن شوق أهل القرب أتم من شوق غيرهم . لقول قائلهم:

وأبوح ما يكون الشوق يوماً — إذا دنت الخيام من الخيام

فتأمل أيها المتجافى عن درك المرام، وأقبل على مولاك الكريم الذى أوحى إلى داود ﵇. لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إلى وتقطعت أوصالهم من محبتى يا داود هذه إرادتى للمدبرين عنى فكيف إرادتى للمقبلين على .

ومن الشروط الخاصة بالذكر ومجالسة الحق الحضور أى حضور المريد مع الله بقلبه بأن لا يكون غافلاً ولا ذاهلاً عن الله تعالى عند ذكره فإن القلوب . أوعية أسرار الغيوب . فرب ذاكر الله لحظة بقلب حاضر خير ممن ذكره ألف سنة بلا حضور قلب، وثمرة حضور العبد مع الله شهوده له تعالى فى كل شئ بحيث يعلم أنه ناظر إليه . ومطلع عليه . وعند ذلك يتحقق بقوله تعالى فى كتابه المجيد . وهو ﴿ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾(ق:١٦) .

ومن الشروط فطم مراد النفس عن كل شهوة أى منعها عن كل شهوة مرادة لها، وقمعها عن الاسترسال فيما يمنعها عن الترقى لأوج كمالاتها . على حد قول الإمام البوصيرى:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على — حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فاصرف هواها وحاذر أن توليه — إن الهوى ما تولى يصم أو يصم

وراعها وهى فى الأعمال سائمة — وإن هى استحلت المرعى فلا تسم

كم حسنت لذة للمرء قاتله — من حيث لم يدر أن السم فى الدسم

ومن الحكم النوابغ قول بعضهم:

إذا ما دعتك النفس يوماً لشهوة — وكان عليها للخلاف طريق

فخالف هواها ما استطعت فانما — هواها عدو والخلاف صديق

وقال عكرمة فى قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾(الحديد:١٤) يعنى بالشهوات

﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ يعنى بالتوبة ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ يعنى في أمر الله ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ يعنى بالتسويف ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ يعنى الموت ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ يعنى الشيطان .

وقال بعضهم: من استولت عليه النفس صار أسيراً فى حكم الشهوات . محصوراً فى سجن الهوى والمخالفات . قد حرم الله على الفوائد أن تسكن فؤاده . ومنعه حلاوة فهم كلامه وإن أكثر ترداده، فيكون داخلاً فى شديد وعيد ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾(الأعراف:١٤٦)، وهذا عذاب أصحاب الأنفس فى الدنيا ولعذاب الآخرةس أشق، وما ألطف قول بعضهم:

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت	ولم ينهها تاقت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثن والعار بالذى	دعته إليه من حلاوة عاجل

وقال محمد بن جعفر البغدادى: رأيت فى منامى حوراء ما رأيت أحسن منها فقلت: زوجينى من نفسك، فقالت: أخطبنى من سيدى، فقلت: وما مهرك؟ قالت: حبس النفس عن مألوفاتها .

وقال موسى عليه السلام فى مناجاته: يا رب متى تكون لى؟ فقال: إذا لم تكن لنفسك، قال: ومتى لا أكون لنفسى قال إذا نسيتها .

واعلم أن العلم قائد للنفس إلى طرق الخيرات . والخوف سائق لها وهى بين ذلك جموح تميل إلى المخالفات، فراعها بسياسة العلم وسقها بسوط الخوف يتم لك ما تريد، ثم قال المصنف رضي الله عنه:

وَزُهْدٌ وَقُنْعٌ بالْكَفَافِ ورَهْبَةٌ	مِنَ اللهِ فى حَالَىْ رَخَاءٍ وَشِدَّةٍ

أى ومن الأصول زهد فى الدنيا، ولما فى الحديث {ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس} ولله در القائل:

كن زاهداً فيما حوته يد الورى	تضحى إلى كل الانام حبيباً
أو ما ترى الخطاف حرم زادهم	فغدا مقيماً فى البيوت ربيباً

قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه: **ترك الحرام:** وهو زهد العوام، **وترك الفضول من المال:** وهو زهد الخواص، **وترك ما يشغل العبد عن الله تعالى:** وهو زهد العارفين .

وقال بعض الفضلاء: من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد وذلك لأن الزهد يكون أولاً فى المال ثم فى الطعام ثم فى اللباس ثم فى الأستئناس بالناس ولا يزهد فى الحمد مع عدم المبالاة بالذم إلا من كمل زهده فى الرياسة وهو أعلى المراتب ولذا قيل آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرياسة .

وقال بعض العارفين: علامة الزهد فى شئ من الدنيا سرور القلب بفقده .

وقال بعضهم: الزهد هو أن لا تطلب المفقود حتى تفقد الموجود .

وقال الفضيل بن عياض: الزهد حرفان فى كتاب الله تعالى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم .

وقال إبراهيم بن أدهم: على القلب ثلاثة أغطية الفرح والحزن والسرور فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص والحريص محروم وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والمعجب محبط عمله أ هـ .

فالعاقل: من تدبر عاقبة أمره ومصيره، ونظر ليتخلص من دنياه بعين البصيرة، واغتر بظلها الزائل، واتعظ بقول القائل:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملأ الأعلى إليك رسائل

لقد خط فيها لو تأملت سطرها ... ألا كل شئ ما خلا الله باطل

وقد شبهوا حال الدنيا وأهلها والزاهدين فيها بحال طعام صنعه صانعه من السكر وعجنه بالسم بحضور بعض الناس دون بعض ثم وضعه بين يدى من أبصره فى حال صنعه ومن لم يبصره فإن من أبصره وعلم ما فيه من الآفات لا يقرب منه، ومن غاب عنه ذلك اغتر بما فيه من الحلاوة وحرص عليه ولا يصبر عنه:

فحلاوة الدنيا لجاهلها ... ومرارة الدنيا لمن عقلا

ووصفها بعضهم بقوله:

إذا أدبرت كانت على القلب حسرة ... وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

وقال أبو نواس:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق

وقال الصلاح الصفدى:

مــا هــذه الدنــيا وإن أقبلــت علــيك أو ولــت بــدار المقــام
فسـنـام لمــا ســام فــيها الــبقا دار بــه صــرف المــنايا وحــام

وما ألطف قول بعضهم:

مــن ملــك الدنــيا ودانــت لَــه فــالجهل كــل الجهــل أن يحســدا
تعطـــيه كالمشـــفق لكـــنها تــبطش فــى الأخــذ كــبطش العــدا
مبـــتدأ حلـــو لمـــن ذاقـــه ولكـــن انظـــر خـــبر المبـــتدأ

ولله در من قال:

وزهـــرة الدنـــيا وإن أينعـــت فانهـــا تســقى بمـــاء الـــزوال

وقال الإمام الشافعى ﷺ:

كــم ضــاحك والمــنايا فــوق هامــته لــو كــان يعــلم غيــباً مــات مــن كمــد
مــن كــان لم يــؤت عــلماً فــى بقــاء غــد مــاذا تفكــره فــى رزق بعــد غــد

وقال ابن الورى:

قصـــر الآمـــال فـــى الدنـــيا تفــز فدلـــيل العقـــل تقصـــير الأمـــل
إن مـــن يطلـــبه المـــوت عـــلى غـــرة مـــنه جديـــر بـــالوجل

وما ألطف قول أبى الفتح البستى:

زيـــادة المـــرء فـــى دنـــياه نقصـــان وربحــه غــير محــض الخــير خســران
وكـــل وجـــدان حـــظ لا ثـــبات لَـــه فــإن معــناه فــى التحقــيق فقــدان

القناعة فى أصول الطريق

ومن أصول الطريق قنع بضم القاف وسكون النون أى رضا بالكفاف أى بما يكفى الإنسان ويكفه عن ذل السؤال على حد ما قيل:

أيها المرء ان دنياك بحر ... موجه طافح فلا تأمننها
وسبيل النجاة فيها منير ... وهو أخذ الكفاف والقوت منها

وفى الحديث: {ما من يوم طلعت فيه شمسه إلا ولكان يناديان يسمعهما خلق الله إلا الثقلين أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى} .

(ومن النصائح):

إذا أظمأتك أكف اللئام ... كفتك القناعة شبعاً ورياً
فكن رجلاً رجله فى الثرى ... وهامة همته فى الثريا
أبياً بنفسك عن باخل ... تراه بما فى يديه أبياً
فإن إراقة ماء الحيا ... ة دون إراقة ماء المحيا

ولبعضهم مع حسن الجناس:

إذا ما نازعتك النفس حرصاً ... فأمسكها عن الشهوات أمسك
ولا تحرص ليوم أنت فيه ... وعد فرزق يومك رزق أمسك

ومما قيل فيمن ألهاه الغنى مع حسن التورية:

وصاحب لما أتاه الغنى ... تاه ونفس المرء طماحة
وقيل هل أبصرت منه يداً ... تشكرها قلت ولا راحة

وقال بعض العارفين: صاحب القناعة ومالك الدنيا غير متساويين بل صاحب القناعة أقل حزناً وأطيب نفساً وأقر عيناً كما قال الصفى الحلي فى هذا المعنى:

قناعة المرء بما عنده ... مملكة ما مثلها مملكة
فارضوا بما قد جاء عفواً ولا ... تلقوا بأيديكم إلى التهلكة

وقال بعضهم:

هـى القـناعة فالـزمها تعـش ملكـاً لـو لم يكـن مـنك إلا راحـة الـبدن

وانظـر لـن ملـك الدنـيا بأجمعهـا هـل راح مـنها بغـير القطـن والكفـن

وقال الإمام النووى:

وجـدت القـناعة أصـل الغـنى فصـرت بأذيالهـا ممتسـك

فـلا ذا يـرانى عـلى بابـه ولا ذا يـرانى بـه مـنهمك

وعشـت غنـياً بـلا درهـم أمـر عـلى الـناس شـبه الملـك

وقال بعضهم:

غـنى المـرء مـا يكفـيه مـن سـد خلـة فـإن زاد شـيئاً عـاد ذاك الغـنى فقـراً

ولله در من قال:

ومـن سـره أن لا يـرى مـا يسـوءه فـلا يـتخذ شـيئاً يخـاف لَـه فقـداً

فالراحة كلها فى الرضا بالقسوم . والتعب كله فى تتبع الهموم . ولذا قيل:

يقـول الـزمان ولم تسـتمع لـن طلـب الـرزق أو أملـه

أنـا حـرب مـن جـد فـى كسـبه ومـن يتقـنع تعصـبت لَـه

وسئل النبى ﷺ عن القناعة فقال: {هى الإياس مما فى أيدى الناس وإياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر} .

وقال ﷺ: {عز من قنع وذل من طمع} .

وقال ﷺ: {القناعة كنز لا يفنى} .

قال بعضهم: وإنما كانت القناعة كنزاً لا يفنى لأن حقيقتها الرضا باليسير وذلك يتضمن ترك استيفاء الحظوظ التى لا ضرورة فى تناولها وفى الترك توسع عظيم يكاد أن لا ينحصر فكلما طلبت النفس حظاً زائداً على ما هى محتاجة إليه وأرضيت بترك ذلك الزائد فقد أنفق عليها من كنز الترك الذى لا ينفد والله در من قال:

إذا رمت أن تستقرض المال منفقاً ... على شهوات النفس فى زمن العسر

فسل نفسك الإنفاق من كنز صبرها ... عليك وإرفاقاً إلى زمن اليسر

فإن رضيت كنت الغنى وإن أبت ... فكل منوع بعدها واسع القدر

وما ألطف قول ابن الفارض:

وأنفقت من يسر القناعة راضياً ... من العيش فى الدنيا بأيسر بلغة

وهذبت نفسى بالرياضة ذاهباً ... إلى كشف ما حجب العوائد غطت

وقال الإمام على كرم الله وجهه: طلبت الغنى فوجدته فى القناعة.

(ولأبى العتاهية):

تسربلت أخلاقى قنوعاً وعفة ... فعندى بأخلاقى كنوز من الذهب

فلم أر خصباً كالقنوع لأهله ... وأن يجمل الإنسان ما عاش فى الطلب

وما ألطف قول بعضهم:

ذرينى ونفسى فى العفاف فإننى ... جعلت عفافى فى حياتى ديدنى

وأعظم من قطع اليدين على الفتى ... صنيعة بر نالها من يدى دنى

ولله در من قال:

إذا المرء عوفى فى جسمه ... وأعطاه مولاه قلباً قنوعاً

وأعرض عن كل ما لا يليق ... فذاك المليك ولو مات جوعاً

وقال الإمام الشافعى ﷺ:

ورزقك لا يفوتك بالتوانى ... وليس يزيد فى الرزق العناء

إذا ما كنت ذا قلب قنوع ... فأنت ومالك الدنيا سواء

وقال ايضاً ﷺ:

أمت مطامعى فأرحت نفسى ... فإن النفس ما طمعت تهون

وأحييــــت القـــنوع وكـــان ميـــتاً ... ففـــى احـــيائه عرضـــى مصـــون

إذا طمـــع يحـــل بقلـــب عـــبد ... علـــته مهانـــة وعـــلاه هـــون

وقال السراج الوراق:

مـــالى أذل وللقـــناعة عـــزة ... أنجـــو بهـــا مـــن ذلـــة وهـــوان

وأصـــون وجهـــى أن يـــذل لأوجـــه ... مـــنحوتة مـــن عـــالم الصـــوان

والقـــوم كالأصـــنام والإســـلام نـــز ... هـــنى عـــن الأصـــنام والأوثـــان

وقال الإمام القسطلانى:

قنعـــت بـــالقوت مـــر زمـــانى ... وصـــنت نفســـى عـــن الهـــوان

لا ينـــــبغى أن أرى بعيـــــنى ... مكـــان مـــن لا يـــرى مكـــانى

لى قـــــبل أن أمـــــوت رزق ... لـــو جهدالخلـــق مـــا عدانـــى

فاســـتغن بـــالله عـــن فـــلان ... وعـــن فـــلان وعـــن فـــلان

وما ألطف ما قيل:

إذا شـئت أن تحـيا غنـياً فـلا تكـن ... عـلى حالـة إلّا رضـيت بدونهـا

ويرحم الله القائل:

لا تخضـــعن لمخلـــوق عـــلى طمـــع ... فـإن ذلـك وهـن مـنك فـى الديـن

واســـترزق الله ممـــا فـــى خزائـــنه ... فـإن ذلـك بـين الكـاف والـنون

واسـتغن بـالله عـن دنـيا الملـوك كمـا اسـتغنى الملـوك بدنـياهم عـن الديـن

وقيل لإبراهيم بن أدهم كيف أنت فقال:

نـــرقع دنـــيانا بـــتمزيق ديـــننا ... فـــلا ديـــننا يـــبقى ولا مـــا تـــرقع

فطوبـــى لعـــبد آثـــر الله ربـــه ... وجـــاد بدنـــياه لمـــا يـــتوقع

وما ألطف قول بعضهم:

هب الدنيا تساق إليك عفواً ... أليس مصير ذاك إلى الزوال

وما دنياك إلا مثل ظل ... أظلك ثم آذن بانتقال

ومن النصائح:

يا راقد الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد يطرقن أسحاراً

أفنى القرون التى كانت منعمة ... كر الجديدين إقبالاً وإدباراً

كم قاد أبادت صروف الدهر من ملك ... قد كان فى الدهر نفاعاً وضراراً

يا من يعانق دنيا لا بقاء لها ... يمسى ويصبح فى دنياه سفاراً

هلا تركت من الدنيا معانقة ... كيما تعانق فى الفردوس أبكاراً

وقال أبو العتاهية:

هى الدار دار الأذى والقذى ... ودار الفناء ودار العبر

فلو نلتها بحذافيرها ... لمت ولم تقض منها الوطر

أيا من يؤمل طول الخلود ... وطول الخلود عليه ضرر

إذا ما كبرت وبان الشباب ... فلا خير فى العيش بعد الكبر

وأجاد القائل:

النفس تأبى أن تكون فقيرة ... والفقر خير من غنى يطغيها

فغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت ... فجميع ما فى الأرض لا يكفيها

وقال آخر:

تمنع ما يكفيك واستعمل الرضا ... فانك لا تدرى أتصبح أم تمسى

فليس الغنى عن كثرة المال انما ... يكون الغنى والفقر من قبل النفس

وما ألطف قول بعضهم:

خـذ مـن العـيش مـا كفـى ... فهـو إن زاد أتلفـا

كسـراج مـنور ... إن طفـا دهـنه انطفـا

فالكفاف حالة متوسطة بين الفقر والغنى وخير الأمور أوسطها .

ولذا قال ﷺ {اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً} .

وقال ﷺ {ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل أراد أن يغسل ثوبه فلم يجد لَه خلقة يلبسها، ورجل لم ينصب على مستوقده قدرين، ورجل طلب شرابه فلم يقل لَه أيهما تريد} .

وروى عن أبى الدرداء ﷺ أنه قال: لأن أقع من فوق قصر فاتحطم أحب إلى من مجالسة الغنى لانى سمعت رسول الله ﷺ يقول (إياكم ومجالسة الموتى قيل يا رسول الله ومن الموتى، قال الأغنياء) . والنهى عن ذلك لأن مجالستهم لا يسمع فيها غالباً إلا مدح الدنيا والتمكن من الجاه والمال والنفس مائلة إلى كل لذيذ فينغرس فى القلب محبتها والمراد أنهم موتى القلوب بمحبة الدنيا حتى اشتغلت عن أعمال الآخرة و (ما ألطف) قول ابن عطاء الله فى حكمه أن أردت ورود المواهب عليك . صحح الفقر والفاقة لديك إنما الصدقات للفقراء .

وقد كان عمر بن الخطاب ﷺ فى غاية من الزهد والتقلل من الدنيا، حتى أن قميصه كان فيه أربع رقاع بين كتفيه، وأبطأ يوماً عن الخروج لصلاة الجمعة وهو خليفة ثم خرج فاعتذر للناس، وقال إنما حبسنى عنكم ثوبى هذا كان يغسل، وليس عندى غيره، وكان يبرد فى الشتاء حتى ترعد مفاصله، فيقال لَه ألا تأخذ لك من بيت مال المسلمين كساء فأنه واسع، فيقول لا أنقص المسلمين من بيت مالهم شيئاً لى، وكان لا يجمع فى سماطه بين إدامين حتى أن بنته حفصة قدمت لَه مرقاً بارداً وصبت عليه زيتاً فقال أدمان فى أناء واحد لا آكله حتى ألقى الله ﷻ . ومع ذلك كان يقول وددت أن أخرج من الدنيا كما دخلت، لا أجر لى ولا وزر على، ولما مات رآه العباس ﷺ فى المنام فقال لَه كيف وجدت الأمر يا أمير المؤمنين، فقال كاد عرشى يهوى بى لولا أنى وجدت رباً رحيماً .

(وكان) الإمام على كرم الله وجهه يرقع قميصه، ويقول إن لبس المرقع يخشع القلب . ومما ينسب لَه ﷺ:

حقـيق بالتواضـع مـن يمـوت ... ويكفـى المـرء مـن دنـياه قـوت

فمــا المــرء يصــبح ذا همــوم وحــرص لــيس تدركــه الــنعوت
فــيا هــذا ستــترحل عــن قريــب إلى قـــوم كلامهـــم السـكوت

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، وضع ماله ومال زوجته فاطمة بنت عبد الملك فى بيت مال المسلمين، وصارا كآحاد الناس حتى أنه صار لا يملك إلا قميصاً واحداً وهى كذلك، فإذا أراد غسله مكث فى البيت حتى يجف على حد ما قيل:

قــوم إذا غســلوا الثـياب رأيـتهم لبســوا البـيوت وزرروا الأبوابـا

ومع ما كان عليه من الورع والزهد والعدل الذى ضرب به المثل، كان له سرب ينزل فيه كل ليلة ويضع الغل فى عنقه، فلا يزال يبكى ويتضرع إلى الصباح، وقيل له فى مرض الموت، تركت أولادك وهم ثلاثة عشر، ليس لهم درهم ولا دينار فقال لم أمنعهم حقاً لهم ولم أعطهم حقاً لغيرهم، وإنما ولدى أحد رجلين إما مطيع لله فالله تعالى كافيه، وهو يتولى الصالحين، وإما عاص لله فما أبالى بما وقع له .

نصائـــح نبويـــة

ومن النصائح النبوية قوله ﷺ {أيها الناس أذكروا هازم اللذات، فأنكم إن ذكرتموه فى ضيق وسعه عليكم، وإن ذكرتموه فى غنى بغضه إليكم} إن المنايا قاطعات الآمال والليالى مدنيات الآجال، وأن العبد بين يومين، يوم قد مضى أحصى فيه عمله فختم عليه، ويوم قد بقى لا يدرى لعله لا يصل إليه، وإن العبد عند خروج نفسه وحلول رمسه يرى جزاء ما أسلف، وقلة غناء ما خلف، أيها الناس إن فى القناعة لغنى وإن فى الاقتصاد لبلغة وإن فى الزهد لراحة وإن لكل عمل جزاء وكل آت قريب .

وقال بعض الحكماء: الدنيا إنما تراد لثلاثة العز والغنى والراحة، فمن زهد فيها عز، ومن ترك الانهماك فيها استراح .

ولما اجتمع هارون الرشيد بالبهلول قال له عظنى فقال بم أعظك هذه قصورهم وهذه قبورهم . ثم قال كيف بك يا أمير المؤمنين إذا أقامك الحق تعالى بين يديه وسألك عن النقير والقتيل والقطمير، وأنت عطشان جيعان عريان وأهل الموقف ينظرون إليك ويضحكون فخنقته العبرة وأمر له بصلة، فقال ردها على من أخذتها منهم قبل أن لا تجد لهم شيئاً

ترضيهم به ثم أنشد:

دع الحـــرص عـــلى الدنـــيا وفـــى العـــيش فـــلا تطمـــع

ولا تجمـــع مـــن المـــال فمـــا تـــدرى لمـــن تجمـــع

فـــإن الـــرزق مقســـوم وســـوء الظـــن لا يـــنفع

فقـــير كـــل ذى حـــرص غـــنى كـــل مـــن يقـــنع

ولله در ابن زريق حيث قال من قصيدته المشهورة:

ومـــا مجـــاهدة الإنســـان واصـــلة رزقـــاً ولا دعـــة الإنســـان تقطعـــه

قـــد وزع الله بـــين الخلـــق رزقهمـــو لم يخلـــق الله مـــن خلـــق يضـــيعه

لكـــنهم كلفـــوا حرصـــاً فلســـت تـــرى مســـترزقاً وســـوى الغايـــات يقـــنعه

والحرص فى الرزق والأرزاق قد قسمت بغـــى ألا أن بغـــى المـــرء يصـــرعه

وما ألطف ما قيل:

عزيـــز الـــنفس مـــن لـــزم القـــناعة ولم يكشـــف لمخلـــوق قـــناعه

أفادتـــنا القـــناعة كـــل عـــز وهـــل عـــز أعـــز مـــن القـــناعة

فصـــيرها لنفســـك رأس مـــال وصـــير بعدهـــا الـــتقوى بضـــاعة

لتغـــنى فـــى حـــياتك عـــن لئـــيم وتســـعد فـــى الجـــنان بصـــبر ســـاعة

قـال ابـن عـباس رضي الله عنهما مـا اتعظـت بعـد رسوله ﷺ بمثل كتاب كتبه إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

أمـا بعـد: فإن الإنسان ليسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن يدركه، فلا تكـن بمـا نلـت من دنياك فرحاً، ولا لما فاتك منها ترحاً . ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة لطول الأمل . فكأن قد والسلام ومما ينسب له كرم الله وجهه:

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت أن الســلامة فـيها تـرك مـا فـيها

لا دار لـلمرء بعـد المـوت يسـكنها إلا الـتى كـان قـبل المـوت بانـيها

وحكى أن رجلاً خطر بباله وهو فى الطواف طلب الدنيا فلما نام سمع هاتفاً يقول:

أقسمت بالبيت العتيق وركنه والطائفين ومنزل الفرقان

ما العيش فى المال الكثير وجمعه بل فى الكفاف وصحة الأبدان

ومن الأصول رهبة وهى أعلى مراتب الخوف، الذى هو أصل من أصول طريق القوم يقال (رهب رهباً) من باب تعب خاف والاسم الرهبة .

قال بعض العارفين فى وصيته لمن قال له أوصنى كن كرجل احتوشته السباع فهو خائف مذعور يخاف أن يسهو فتفترسه أو يلهو فتنهشه قليله ليل مخافة إذا أمن فيه المفترون . ونهاره حزن إذا فرح فيه البطالون . ثم قال للطالب عند الإستزادة أن الظمآن يقنع بيسير الماء .

واعلم أن من خاف من الله تعالى أخاف الله منه كل شئ ومن خاف غير الله سلطه الله عليه لأن الجزاء من جنس العمل .

قال بعضهم: خرجنا ليلة فمررنا بأجمة مسبعة وإذا رجل نائم وفرسه عند رأسه ترعى فحركناه وقلنا له أتنام فى هذا الموضع المخوف المسبع فرفع رأسه وقال أنا أستحى منه تعالى أن أخاف غيره ووضع رأسه ونام .

وروى أن ابن عمر رضي الله عنهما كان فى بعض الأسفار فلقى جماعة واقفين على الطريق خوفاً من السبع، فتقدم هو إلى السبع وطرده من طريقهم، ثم قال: إنما يسلط على ابن آدم ما يخافه، ولو أنه لم يخف غير الله لما سلط عليه شئ .

وقد جرى مثل هذا لإبراهيم بن أدهم، فأنه لما كان فى قافلة وتعرض السبع لها تقدم إليه وقال له يا أبا الحارث إن كنت أمرت فينا بسيئ وإلا فتنح عن طريقنا فهمهم وتنحى عن الطريق فتعجبوا من ذلك . فقال لهم إبراهيم ما على أحدكم أن يقول إذا أصبح وإذا أمسى: (اللهم أحرسنا بعينك التى لا تنام . واحفظنا بركنك الذى لا يرام . وارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك وأنت الرجاء وقوله بعينك أى ذاتك التى لا تنام) . أى لا يجوز عليها النوم لقوله تعالى: ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾(البقرة:٢٥٥) لأن ذلك من صفات الحوادث وقوله (لا يرام) أى لا يقصد بالمعارضة، وإنما عمم المصنف الخوف من الله حيث قال: فى حالى رخاء وشدة لأن من لحظ الخوف فى الحالين فقد شرب بالكأسين . وحال الرخاء هو

حـال التقلب فى مقام الإحسان والمكاشفات . وحال الشدة هو حال المكابدة والمجاهدات، ثم قال المصنف ﷺ:

وَتَفْوِيـضُ أَمْـرٍ ثـمَّ حُسْـنُ تَوَكُّـلٍ   خُضُـوعُ خُشُـوعٍ وَالْـبُكاءُ بِذِلَّـةٍ

اعلم أن التفويض ثمرة التسليم الذى هو ثمرة التوكل وإنما صدر به لكونه أعلى مراتب الـتوكل الذى هو حال العارفين . ثم ثنى بالتوكل الذى هو حال المبتدئين . والتفويض رد كل أمـر إلى الفـاعل المخـتار . فإنـه الذى يفعل ما يشاء ويختار . وإن أردت أن تكون من الأكابر السادات . فكن متذكراً قول بعض أهل الإشارات:

تذكـر جميـلى عـند كونـك نطفـة   ولا تنس تصويرى لشخصك فى الحشا

وسـلم لى الـتدبير واعـلم بأنـنى   أنفـذ أحكـامى وأفعـل مـا أشـا

وقـد مـر بعض الصوفية برجل قد صلبه الحجاج فقال: يا رب إن حلمك على الظالمين . قـد أضـر بـالمظلومين . فـرأى فـى مـنامه أن القـيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة فرأى المصلوب فـى أعـلى علـيين وإذا مـناد يـنادى حلمى على الظالمين . وقد جعل المظلومين فى أعلى عليين .

ومـن اللطـائف أن بعضـهم رأى امـرأة جميلة مع رجل قبيح المنظر فقال لها: أترضين أن تكونـى معـه؟ فقالـت: قد أسأت يا هذا حيث لم تترك التدبير . إلى العليم الخبير . لعل زوجـى أحسـن فـيما بينه وبين الله تعالى فجعلنى ثوابه ولعلى أسأت فيما بينى وبينه فجعله عقوبتى أفلا أرضى به الحكيم العليم .

وحكـى أن رجـلاً مـن الصالحين كان يقول: فيما يصيبه الخيرة فيما اختاره الله وكان فى بداية ومعه أهله وليس له إلا حمار يحمل عليه متاعه، وكلب يحرسهم، وديك يوقظهم، فجـاء الثعلـب وأخـذ الديـك، فقال خيرة، ثم جاء ذئب فقتل الحمار، فقال خيرة ثم أصيب الكلـب فمـات. فقـال خـيرة، فتعجـب أهلـه مـن ذلـك حـتى أصبحوا وقد سبى من حولهم واسـترقت أولادهـم، وكـان قد عرف مكان بعضهم بصوت الديكة ومكان البعض الآخر بنهيق الحمير ونبح الكلاب فقال قد رأيتم أن الخيرة فيما اختاره الله فلو لم يهلكهم لهلكنا وأخذت أولادنا وما ألطف ما قيل:

كـن عـن هـمومـك معرضـاً   وكـل الأمـور إلى القضـا

وابشــــر بخـــــير عــــاجل تنســـى بـــه مـــا قـــد مضـــى

فلـــــرب أمـــــر مســـــخط لـــــك فـــى عواقـــبه رضـــا

ولربما اتسع المضيق وربما ضاق الفضا

الله يفعـــــل مـــــا يشـــــاء فـــــلا تكـــــن متعرضــــاً

الله عودك الجميل فقس على ما قد مضى

لطائــــف التدبيــــر

ومـن لطـائف الـتدبير الـذى يعجز عنه غير العليم الخبير . ما حكى أن بعض الأنبياء كـان يتعبد فـى جـبل، وبالقـرب منه عين ماء، فجاء فارس فشرب منها، ونسى صرة فيها دنـانير. ثـم جـاء آخـر فأخذهـا وانصـرف. ثـم بعـد ذلك جاء رجل فقير وعلى رأسه حزمة حطـب فشـرب مـن المـاء، واسـتلقى يسـتريح، فرجع الفارس فى طلب الصرة فلم يرها فأخذ الفقـير وقـتله. فقـال النبى إلهى إن هذا الفقير لم يأخذ الصرة فكيف سلطت هذا الظالم على هـذا الفقير حتى قتله وأنجيت من أخذها فأوحى الله إليه إن هذا الفقير كان قتل أبا الفارس فمكنـته مـن القصـاص وإن أبا الفارس كان قد أخذ ألف دينار من مال من أخذ الصرة فرددته إليه من تركته ولله در من قال:

تــبارك مـن أجـرى الأمـور بحكمـة كمـا شـاء لا ظـلماً أراد ولا هضـماً

فمـا كـان شـئ غـير مـا الله شـاءه فإن شئت طب نفساً وإن شئت مت كظماً

ثـم مـن الأصـول حسن توكل وهو الثقة بما عند الله، فمن توكل عليه كفاه ومن انقطع إليه آواه .

(وفـى الحديـث) (مـن أحـب أن يكـون أقوى الناس فليتوكل على الله) وناهيك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(الطلاق:٣) . وقوله سبحانه: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(المائدة:٢٣) . فالـتوكل مـن لـوازم كمال الإيمان لأنه الاعتماد على الخالق دون رؤية الخلائق . ولا يمنع الأخذ بالأسباب شهود الملك الوهاب .

(وقال بعض العارفين) فى شرح التوكل هو طرح البدن فى العبودية . وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية فإن أعطى شكر . وإن منع صبر . ويقال علامة المتوكل أن لا يسأل ولا يرد ولا يحبس وأكمل أحوال المتوكل أن يكون بين يدى الله تعالى كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير كما قال بعضهم:

حقيقة العبد عندى فى توكله ... سكون إحساسه عن كل مطلوب
وأن تراه لكل الخلق مطرحاً ... يصون أسراره عن كل محبوب

وقال أبو على الدقاق: للمتوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالمتوكل يسكن إلى وعده وصاحب التسليم يكفى بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه أ هـ .

ومعلوم أن كل درجة أرقى مما قبلها فإن المتوكل يسكن إلى وعده فى قوله سبحانه: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾(هود:٦) ومع ذلك يسأله ؟ وأما صاحب التسليم فيكتفى بعلمه تعالى بحاله ولا يسأله وصاحب التفويض يرضى بحكمه تعالى سواء وافق غرضه أو خالفه .

لطيفة: قال رجل لحاتم الأصم: من أين تأكل فقال﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴾(المنافقون:٧) .

فائدة: قال الدميرى من دخل على من يخاف شره فليقرأ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(النحل:٩٩) . ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۞ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾(آل عمران: ١٧٤) . فإن الله تعالى ينجيه من شره .

ومن الحكم الجامعة هذه الوصية التى وجدت فى جيب (جالينوس) بعد موته وهى (أحمق الحمقى من يملأ بطنه من كل ما يجد، وما أكلته فلجسمك، وما تصدقت به فلروحك، وما خلفته لغيرك، والمحسن حى وإن نقل إلى دار البلى، والمسئ ميت وإن بقى فى الدنيا، والقناعة تستر الخلة، وبالصبر تدرك الأمور، وبالتدبير يكثر القليل، ولم أر لابن آدم شيئاً أنفع من التوكل على الله تعالى) أ هـ .

ومن جوامع الحكم: ما نقل أن بعض الأبدال مر على طبيب يصف العلاج للمرضى فتقدم إليه وقال له عالج مرضى، ففكر ساعة ثم قال له خذ عروق الفقر، وورق الصبر مع

إهليلج التواضع، واجمع الكل فى إناء اليقين، وصب عليه ماء الخشية، وأوقد تحته نار الحزن، ثم صفه بمصفاة المراقبة فى جام الرضا، وامزجه بشراب التوكل وتناوله بكف الصدق، واشربه بكأس الاستغفار، وتمضمض بعده بماء الورع، واختم عن الحرص والطمع، فإن الله تعالى يشفيك .

وفى الحديث: عنه ﷺ قال {لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً} .

وفى هذا الحديث إثبات الأخذ بالأسباب مع التوكل فإنه نسب لها الغدو أى الذهاب فى أول النهار خماصاً بكسر الخاء المعجمة أى جياعاً، والروح آخره بطاناً بكسر الموحدة، أى ممتلئة البطون .

وفى الحديث {إن الله جعل رزقى تحت ظل رمحى} .

وقد كانت الصحابة ﷺ يتجرون فى البر والبحر ويعملون فى نخيلهم أخذاً بالأسباب . فلا يصح لأحد أن يخرج عن ذلك مع التوكل على العزيز الوهاب . ولذا قال بعضهم طلب الكسب الحلال لازم كطلب العلم .

وقال بعضهم: من اكتسب وأجمل فى الطلب كان من المؤمنين .

وفى الحديث عنه ﷺ قال: {لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتطب على ظهره فيأكل ويتصدق خير له من أن يأتى رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه فإن اليد العليا خير من اليد السفلى} .

ومن ألطف قول بعضهم:

توكل على الرحمن فى الأمر كله — ولا ترغبن فى العجز يوماً عن الطلب

ألم تر أن الله قال لمريم — وهزى إليك الجزع يساقط الرطب

ولو شاء أدلى الجزع من غير هزه — إليها ولكن كل شئ له سبب

ومن الشروط خضوع أى استكانة وتواضع .

وفى الحديث {من تواضع لله رفعه ومن تكبر وضعه} .

واعلم أنه ليس المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع ولكن المتواضع هو الذى إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع .

ومن وصايا الإمام النووى: إياك أن تحتقر أحداً من إخوانك، فإن العاقبة مجهولة، والعبد لا يدرى بما يختم له، فإذا رأيت عاصياً فلا تعجب بنفسك عليه، فربما كان فى علم الله أعلى منك مقاماً، ويصير يشفع فيك يوم القيامة، وإذا رأيت صغيراً فاحكم بأنه خير منك باعتبار أنه أقل منك ذنوباً وإذا رأيت كبيراً فاحكم بأنه خير منك، لتقدمه فى الإسلام أ هـ .

ومما ينبه المغتربين قول بعض العارفين:

أرى أبـنـاء آدم أبطـرتهم حظوظهـم مـن الدنـيا الدنـية
فـلم بطـروا وأولهـم مـنى أو افـتخروا وآخـرهم منـية

وقول الناصح الأمين لبعض المختالين:

تتـيه وجسـمك مـن نطفـة وأنـت وعـاء لمـا تعـلم

ومن الشروط خشوع وهو هيئة فى النفس يظهر منها فى الجوارح سكون ويقال هو قيام القلب بين يدى الحق ويقال هو الخوف الدائم فى القلب.

قيل: أوحى الله إلى بعض أنبيائه: هب لى من قلبك الخشوع . ومن عينك الدموع . وسلنى أستجب لك فإنى قريب مجيب .

واعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله ﷻ ومن رزق ذلك فإنه يكون خاشعاً فى الصلاة وغيرها فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومراقبة جلاله .

فكـن خاشـعاً لله فـى كـل حالـة تكـن مؤمـناً تـزهو بـنور يقـين

ومن الأحوال المترتبة على شدة الخوف البكاء بذلة بكسر الذال المعجمة أى يتذلل بين يدى الله تعالى فإن الخوف الناشئ من خشية الله تدمع منه العين قهراً ويمنع صاحبه من مفارقة السيئات . ويحثه على ملازمة الطاعات .

وقد ورد ما من عبد مؤمن يخرج من عينيه من الدموع مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى إلا حرم الله عليه النار وليس من ذلك بكاء الذين إذا سمعوا ما يقتضى الخوف، لم يزيدوا على أن يبكوا ويقولوا: (يا رب سلم) وهم مع ذلك مصرون على إتباع الشيطان والأهواء . فإن هذا البكاء لا ينفع مع مخالفة عالم السر والنجوى، بل حال هؤلاء كحال من قصده

سبع ضار وهو إلى جانب حصن مفتوح فلم يدخل فيه وإنما اقتصر على قوله (رب سلم) حتى جاء السبع فاكله فرحم الله عبداً بكت عينه من خشية الله وقام بما يحبه سيده ويرضاه .

ومن غرر الحكم التى توجب البكاء على النفس وشدة الندم، ما نظمه الشيخ اسماعيل بن المقرى فى قوله :

إلى كم تماد فى غرور وغفلة ... وكم هكذا نوم إلى غير يقظة
لقد ضاع عمر ساعة منه تشترى ... بملء السما والأرض أية ضيعة
أتنفق هذا فى هوى هذه التى ... أبى الله أن تسوى جناح بعوضة
أترضى من العيش الرغيد تعيشه ... مع الملأ الأعلى بعيش البهيمة
فيا درة بين المزايل ألقيت ... وجوهرة بيعت بأبخس قيمة
أفان بباق تشتريه سفاهة ... وسخطاً برضوان وناراً بجنة
أأنت صديق أم عدو لنفسه ... فانك ترميها بكل مصيبة
ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ما ... فعلت لمستهم لها بعض رحمة
لقد بعتها هوناً عليك رخيصة ... وكانت بهذا منك غير حقيقة
فويك استفق لا تفضحنها بمشهد ... من الخلق إن كنت ابن أم كريمة
فبين يديها موقف وصحيفة ... بعد عليها كل مثقال ذرة
كلفت بها دنيا كثيراً غرورها ... تقابلنا فى نصحها بالخديعة
إذا أقبلت ولت وإن هى أحسنت ... أساءت وإن صافت أنت بالكدور
ولو نلت منها مال قارون لم تنل ... سوى لقمة فى فيك منها وخرقة
فدعها وأهليها بقسم وخذ كذا ... بنفسك عنها فهى كل الغنيمة
ولا تغتبط منها بفرحة ساعة ... تعود بأحزان عليك طويلة
فعيشك فيها ألف عام وينقضى ... كعيشك فيها بعض يوم وليلة
عليك بما تجزى عليه من التقى ... فانك فى لهو عظيم وغفلة

تصلى بلا قلب صلاة بمثلها … يصير الفتى مستوجباً للعقوبة

تصلى وقد أتممتها غير عالم … تزيد احتياطاً ركعة بعد ركعة

فويلك تدرى من تناجيه معرضاً … وبين يدى من تنحنى غير محبة

تخاطبه إياك نعبد مقبلاً … على غيره فيها لغير ضرورة

ولو رد من ناجاك للغير طرفه … تميزت من غيظ عليه وغيرة

أما تستحى من مالك الملك أن يرى … صدودك عنه يا قليل المروءة

صلاة أقيمت يعلم الله أنها … بفعلك هذا طاعة كالخطيئة

ذنوبك فى الطاعات وهى كثيرة … إذا عددت تكفيك عن كل زلة

سبيلك أن تستغفر الله بعدها … وأن تتلافى الذنب منها بتوبة

فيا عاملاً للنار جسمك لين … فجربه تمرينا بحر الظهيرة

وجربه فى لسع الزنابير تجترى. … على نهش حيات هناك عظيمة

فإن كنت لا تقوى فويلك ما الذى … دعاك إلى إشخاط رب البرية

تبارزه بالمنكرات عشية … وتصبح فى أثواب نسك وعفة

فأنت عليك منك أجرى على الورى … بما فيك من جهل وخبث طوية

تقول مع العصيان ربى غافر … صدقت ولكن غافر بالمشيئة

وربك رزاق كما هو غافر … فلم لم تصدق فيهما بالسوية

فانك ترجو العفو من غير توبة … ولست ترجي الرزق إلا بحيلة

على أنه بالرزق كفل نفسه … ولم يتكفل للأنام بجنة

فلم ترضى إلا السعى فيما كفيته … واهمال ما كلفته من وظيفة

تسئ به ظناً وتحسن تارة … على حسب ما يقضى الهوى فى القضية

وكلها غرر . فيا فوز من اعتبر . ثم قال المصنف ﷺ:

وَتَقْـوَى إلـهِ الْعَـرْشِ سِـرّاً وَجَهْـرةً وَحُسْـنُ مَسِـيرٍ فـى عُلُـومِ الشَّـرِيعَةِ

أى ومـن اللـوازم لـمريد سـفر الآخـرة تقـوى إلـه العـرش فإنهـا الـزاد لقولـه تعـالى: ﴿ وَتَـزَوَّدُوا فَـإِنَّ خَـيْرَ الـزَّادِ الـتَّقْوَى ﴾(البقرة:١٩٧) . وهى كلمة جامعة لكل خير لأن معناها امتـثال المـأمورات . واجتـناب المنهـيات . وبذلـك يصـير العبد فى وقاية من النار . ودرجة عالية مع المتقين بدار القرار .

والتحقيق أن التقوى ثلاث مراتب:

الأولى: الـتوقى مـن العذاب المخلد صاحبه وذلك بالتبرئ من الكفر وعليه قولَه تعالى: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾(الفتح:٢٦) . فإن المراد بها لا إله إلا الله محمد رسول الله

والثانـية: التجنـب عـن كـل مـا فـيه لوم . حتى الصغائر عند قوم . وهذا المعنى هو المعـنى بقولـه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾(المائدة:٦٥) .

والثالـثة: أن يتـنزه العـبد عـن كـل مـا يشـغل سره عن الحق وهو المعنى المراد بقولَه تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾(آل عمران: ١٠٢) .

(وقـال بعـض الأكابـر): لا يـبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يكون بحيث لو جعل ما فى قلبه فى طبق نظيف فى السوق لم يستح ممن نظر إليه .

(وقـال بعـض العـارفين): إن خيرات الدنيا والآخرة جمعت تحت كلمة واحدة وهى (الـتقوى) وإن شـئت فانظر إلى ما فى القرآن الكريم من ذكرها فكم علق عليها من خير ووعد علـيها مـن ثـواب وأضـاف إليها من سعادة دنيوية وكرامة أخروية . ولنذكر لك من خصالها وآثارها الواردة فيها ثلاث عشرة خصلة .

الأولى: المدحة والثناء قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾(آل عمران:١٨٦)

الثانية: الحفظ والوقاية قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾(آل عمران: ١٢٠)

الثالثة: التأييد والنصر قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾(النحل:١٢٨)

الـرابعة والخامسـة: الـنجاة من الشدائد والرزق الحلال قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ

يَجْعَلْ لَه مَخْرَجاً ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق :٢-٣) كما قيل فى ذلك:

ومـــن يـــتق الله يجعـــل لَـــه ... كمـــا قـــال مـــن أمـــره مخـــرجا

ويـــرزقه مـــن غـــير حســـبانه ... وإن ضـــاق أمـــر بـــه فـــرجا

السادسة والسابعة: إصلاح العمل وغفران الذنوب قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾(الأحزاب :٧٠-٧١) .

الثامنة: محبة الله تعالى قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾(التوبة :٤) .

التاسعة: الإكرام والإعزاز قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات:١٣)

العاشرة: التيسير في الأمور قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَه مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾(الطلاق :٤)

الحادية عشرة: البشارة بكل خير فى الدنيا والآخرة . قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾(يونس:٦٣-٦٤) .

الثانية عشرة: النجاة من النار قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾(مريم: ٧٢) .

الثالثة عشرة: الخلود فى الجنة قال تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(آل عمران :١٣٣) .

فقد ظهر لك أن سعادة الدارين منطوية فيها فطوبى لمن وفقه الله وناهيك قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾(النساء: ١٣١) فإن الله أعلم بصلاح عبيده من كل أحد ولو كان فى الدنيا خصلة هى أصلح للعبد وأجمع للخير من هذه الخصلة لوصى بها .

ولله در ابن الوردى حيث قال:

واتـــق الله فـــتقوى الله مـــا ... جـــاورت قلـــب امـــرئ إلا وصـــل

لـــيس مـــن يقطـــع طـــرقاً بطـــلاً ... إنمـــا مـــن يـــتقى الله الـــبطل

(ومن اللطائف) أن رجلاً كتب إلى صالح بن عبد القدوس:

المـوت بـاب وكـل الـناس داخلـه ... فليـت شعرى بعد الباب ما الـدار

فأجابه بقوله:

الدار جنات عدن إن عملت بما يرضى الإله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما فانظر لنفسك ماذا أنت مختار

وصف المتقين

وقد سئل: جعفر الصادق عن حقيقة العبودية، فقال: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خولـه الله تعالى ملكاً ولا يرى لنفسه تدبيراً وأن يجعل اشتغاله بما أمره الله به فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاث هانت عليه الدنيا وكان من المتقين لقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(القصص: ٨٣)

ويلزم: أن لا تنظر فى عبادتك إلى غناء عنها فأنه تعالى لو نظر إلى ذلك لم يطلبها منك بل نظر إلى حاجتك إليها وكمالك بها فانظر إلى ما نظره لك وإلا أفسدت النظام. واستوجبت الملام.

وقال بعض العارفين: من أخرجه الله من ذل المعصية إلى عز التقوى أغناه بلا مال وأعزه بلا عشيرة وآنسه بلا أنيس ومن رضى من الله باليسير من الرزق رضى منه باليسير من العمل ومن زهد فى الدنيا أثبت لَه الحكمة فى قلبه وأنطق بها لسانه وبصره بعيوب الدنيا وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام، وما ألطف ما قيل:

ولا عيش إلا مع رجال قلوبهم تجن إلى التقوى وترتاح للذكر

وروى: أن عابداً يقال لَه همام جاء إلى الإمام على كرم الله وجهه، وقال لَه صف المتقين حتى كأنى أنظر إليهم، فقال: هم الذين منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم. نزلت أنفسهم فى البلاء، كالتى نزلت في الرخاء، لولا الأجل الذى كتب الله لهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى ربهم، عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قصيرة، أعقبتهم راحة طويلة، تجارة رابحة، سيرها لهم ربهم أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها، أما الليل فصافون أقدامهم يرتلون

لأجزاء القرآن ترتيلاً، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها تشوقاً. وإذا مروا بآية فيها تخويف صغوا إليها بمسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهقيها فى أصول آذانهم فهم جاثون على ركبهم يطلبون من الله فكاك رقابهم، وأما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء، قد برأهم الخوف برى القداح. ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض: لا يرضون من أعمالهم بالقليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون. ومن أعمالهم مشفقون. إذا زكى أحدهم خاف مما يقال له فيقول أنا أعلم بنفسى من غيرى، وربى أعلم بنفسى منى اللهم لا تؤخذانى بما يقولون واجعلنى أفضل مما يظنون. واغفر لى ما لا يعلمون، فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى الدين وحزناً فى لين. وإيماناً فى يقين، وحرصاً فى علم وعملاً فى حلم، وقصداً فى غنى، وخشوعاً فى عبادة. وتجملاً فى فاقة. وصبراً فى شدة، وطلباً فى حلال، ونشاطاً فى هدى، وتحرجاً عن طمع يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل يمسى وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر، يبيت حذراً ويصبح فرحاً حذراً من الغفلة. وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة، إذا استصعبت عليه نفسه فيما يكره لم يعطها سؤلها فيما تحب قرة عينه، فيما لا يزال وزهادته فيما لا يبقى يمزج الحلم بالعلم. والقول بالعمل. تراه قريباً أمله قليلاً ولله خاشعاً، قلبه قانعة نفسه. سهلاً أمره حريزاً دينه، ميتة شهوته. كظوماً غيظه. الخير منه مأمول، والشر منه مأمون. إن كان فى الغافلين كتب فى الذاكرين. يعفو عمن ظلمه، ويعطى من حرمه، ويصل من قطعه بعيداً فحشه ليناً. قوله غائباً منكره حاضراً معروفه فى الزلازل. وقور وفى المكاره صبور وفى الرخاء شكور، لا يحيف على من يبغض ولا يأثم فيمن يحب، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه، لا يضيع ما استحفظ، ولا ينابز بالألقاب، ولا يضر بالجار، ولا يشمت بالمصائب. إن بغى عليه صبر حتى يكون الله هو الذى ينتقم له نفسه منه فى عناء والناس منه فى راحة أتعب نفسه لآخرته وأراح الناس من نفسه بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة ليس تباعده بكبر، وعظمة ولا دنوه بمكر وخديعة . فصعق همام صعقة كانت فيها نفسه .

فقال على كرم الله وجهه: (أما والله كنت أخافها عليه . ثم قال هكذا والله تصنع المواعظ البليغة بأهلها) .

ثم إن المصنف أضاف العرش إلى الله تعالى لأنه أعظم المخلوقات ولا يضاف إلى العظيم إلا العظيم وهو جسم عظيم نورانى علوى محيط بجميع الأجسام .

وفى الحديث: {ما السموات السبع والأرضون السبع فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة فى فلاة من الأرض} وما الجميع فى العرش إلا مثل ذلك، وقد خلق الله العرش إظهاراً لقدرته لا مكاناً لذاته تعالى الله عن ذلك .

وأما قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾(طه:٥) . فمعناه استولى عليه بالحكم على حد قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

فإن المراد استولى عليه بالحكم، أو أن الاستواء على العرش كناية عن الانفراد بالتدبير، كما يقال فى ملوكنا جلس فلان على سرير الملك، بمعنى أنه انفرد بالتدبير والحكم. وقد لا يكون هناك سرير فضلاً عن الجلوس عليه .

وقال سيدى محيى الدين بن العربى: اعلم يا أخى أن الحق تعالى لما كان هو الملك الأعظم ولابد للملك من حضرة معينة يقصده عبده فيها لحوائجه، مع أن ذاته لا تقبل المكان أصلاً اقتضت المرتبة له تعالى أن يخلق عرشاً ثم ذكر لعباده أنه استوى عليه فمن سأله أجابه نظير قوله ﷺ {ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة فيقول هل من سائل فأعطيه} . إلى آخر الحديث مع أنه تعالى يسمع دعاء عبده فى كل وقت من ليل أو نهار، ولكن الشرع يجرى على العرف فى كثير من الأحكام تنزلاً لعقول العباد ولله ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾(النحل:٦٠) ولولا تنزله لعقولهم لبقى أحدهم حائراً لا يدرى أين يتوجه إلى سؤال ربه فإن الله تعالى خلق العبد ذا جهة من أصله فلا يقبل إلا ما كان فى جهة مادام عقله حاكماً عليه، فإذا من الله تعالى عليه بالكمال واندرج نور عقله فى نور إيمانه تكافأت عنده الجهات فى جناب الحق تعالى، وتحقق أنه لا يقبل الجهة ولا التحيز فإنه كان ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان أ هـ .

وفى قوله ﷺ {أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد} . إرشاد وتنبيه للعباد على أن لا يقيدوا الحق بجهة دون جهة، فإن نسبة الفوقية إليه كنسبة التحتية لعدم دخوله فى حصر الكون تعالى الله عن ذلك وإنما استحب رفع الأكف إلى السماء وقت الدعاء نظراً لكونها محل تنزلات الرحمات، ولأنها قبلة الدعاء، كما أن الكعبة قبلة الصلاة .

وفى الحديث: {إن الله تعالى احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار وأن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم} .

وإنما قال المصنف سراً وجهرة لأن المتقى لو أقتصر على أحد الحالين لم تصح تقواه .

فإنه حينئذ يكون سره مخالفاً لنجواه . ثم صرح بما لا تصح التقوى إلا به فقال: وحسن سير في علوم الشريعة وهذا من اللوازم العشرة المعبر عنه بالمنهاج يعنى أنه يلزم المريد النظر فى علوم الشريعة كالفقه والحديث والتفسير، فإن ذلك يوصل إلى رضا العليم الخبير .

وفى الحديث: {من تفقه فى دين الله ﷻ كفاه الله تعالى ما أهمه ورزقه من حيث لا يحتسب} .

وقال ﷺ: {فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى} .

وقال ﷺ: {ما عبد الله بشئ أفضل من فقه فى الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شئ عماد وعماد هذا الدين الفقه} .

وقال ﷺ: {من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم والله يعطى ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله} . وقد أشبعنا الكلام على هذا الحديث فى شرح مختصر ابن أبى جمرة فانظره أن شئت . وما ألطف ما قيل فى فضل العلم:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهمو آدم والأم حواء

فان يكن لهمو من أصلهم نسب ... يفاخرون به فالطين والماء

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهموا ... على الهدى لمن استهدى أدلاء

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

ففز بعلم تعش حياً به أبداً ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال بعضهم:

العلم مغرس كل فضل فاجتهد ... أن لا يفوتك فضل ذاك المغرس

واعلم بأن العلم ليس يناله ... من همه فى مطعم أو ملبس

واحرص لتبلغ فيه حظاً وافراً ... واهجر لَه طيب المنام وغلس

لتعز حتى إن حضرت بمجلس ... كرمت فيه وصرت صدر المجلس

ان الخلى من العلوم مقامة ... عند النعال لَه صموت الأخرس

وقال آخر:

وفـى الجهـل قـبل الموت مـوت لأهلـه فأجســامهم قــبل القــبور قــبور

وأن أمــرأ لم يحــى بالعــلم ميــت فلــيس لَــه حــتى النشــور نشــور

وينبغى لمن أراد تحصيل العلم أن يلاحظ قول الإمام الشافعى ﷺ:

أخــى لــن تــنال العــلم إلا بســتة ســأنبيك عــن تفصــيلها ببــيان

ذكــاء وحــرص واجــتهاد وبلغــة وصــحبة أســتاذ وطــول زمــان

مع ملاحظة ما فى هذين البيتين من الإرشاد . فإنه يبلغ بمجموع ذلك المراد:

شــكوت إلى وكــيع ســوء حفظــى فأرشــدنى إلى تــرك المعاصــى

وأخــبرنى بــأن العــلم نــور ونــور الله لا يهــدى لعاصــى

وما ألطف قول ابن الوردى:

اطلــب العــلم ولا تكســل فمــا أبعــد الخــير عــلى أهــل الكسـل

واحــتفل للفقــه فــى الديــن ولا تشــتغل عــنه بمــال وخــول

واهجــر الــنوم وحصــله فمــن يعــرف المطلــوب يحقــر مــا بــذل

لا تقــل قــد ذهبــت أربابــه كــل مــن ســار عــلى الــدرب وصــل

فــى ازديــاد العــلم إرغــام العــدا وجمــال العــلم إصــلاح العمــل

وقد كان بشر الحافى يقول: يا طالب العلم إنما أنت متلذذ متفكه بالعلم تسمع وتحكى لا غير ولو عملت بما علمت لتجرعت مرارة العلم ويحك إنما يراد بالعلم العمل فاسمع يا أخى وتعلم ثم اعمل واهرب ألا ترى إلى سفيان الثورى ﷺ كيف طلب العلم وتعلم وهرب فإن طلب العلم إنما يدل على الهرب من الدنيا لا على حبها، (وكان يقول)كان العلماء ﷺ موصوفين بثلاثة أشياء صدق اللسان. وطيب المطعم. وكثرة الزهد فى الدنيا. وأنا اليوم لا أعرف فى هؤلاء أحداً فيه واحدة من هذه الخصال، ثم يقول، ويحكم يا علماء السوء أنتم ورثة الأنبياء وإنما ورثوكم العلم فحملتموه وزغتم عن العلم به وجعلتم عملكم حرفة تكسبون بها معاشكم .

وكان إبراهيم البلخى يقول: إذا كان العالم طامعاً وللمال جامعاً فبمن يقتدى الجاهل .

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: قد غلب على العباد والنساك والعلماء فى هذا الزمان التهاون بالذنوب حتى غرقوا فى شهوة بطونهم وفروجهم، وحجبوا عن شهود عيونهم . فهلكوا وهم لا يشعرون، أقبلوا على أكل الحرام، وتركوا طلب الحلال، ورضوا عن العمل بالعلم يستحى أحدهم أن يقول فيما لا يعلم لا أعلم. هم عبيد الدنيا لا علماء الشريعة، إذ لو علموا بالشريعة لمنعتهم عن القبائح إن سألوا ألحوا. وإن سئلوا شحوا، لبسوا الثياب على قلوب الذئاب، اتخذوا مساجد الله التى يذكر فيها اسمه لرفع أصواتهم باللغو والجدال والقيل والقال، واتخذوا العلم شبكة يصطادون بها الدنيا، فإياكم ومجالستهم أ هـ .

فتخلص يا أخى من هذه الأوحال وتأمل قول من قال:

العلم نور فلا تهمل مجالسه   واعمل جميلاً يرى فالفضل فى العمل

وقول بعض أهل الإشارات:

تعلم ما استطعت لقصد وجهى   فإن العلم من سفن النجاة
وليس العلم فى الدنيا بفخر   إذا ما حل فى غير الثقاب
ومن طلب العلوم لغير وجهى   بعيد أن تراه من الهداة

والله تعالى يرزقنا التوفيق لأقوم طريق ثم قال المصنف ﷺ:

وَعَزْفٌ عَنِ الأكْدَارِ وَالغَيرِ والسِّوَى   وَبَذْلٌ وتَهْذِيبٌ وَإِخْلاَصُ نِيَّةِ

أى من الشروط عزف بفتح العين المهملة وسكون الزاى آخره فاء أى صرف للنفس عن الأكدار المنغصة التى تحول بين العبد وربه يقال عزف عن الشئ عزفاً من بابى ضرب وقتل، وعزيفاً انصرف عنه، ومنه قول بعض العارفين، عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها، والمراد بالغير والسوى، كل ما يشغل عن عبادة الله تعالى، فيجب عند القوم صرف النفس عن كل شاغل عن الله على حد قول بعضهم:

وحسب السوى فرض على القوم رفضه   وكل كمال فى إتباع الفريضة

ومن الشروط بذل بفتح الموحدة وسكون المعجمة، أى إعطاء عن طيب نفس لقوله ﷺ: {السخى قريب من الله. قريب من الناس. قريب من الجنة. بعيد من النار والبخيل بعيد

من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، والجاهل السخى أحب إلى الله تعالى من العالم البخيل} .

واعلم أن السخاء أول مراتب البذل وأعلى منه الجود، لأنه يشعر بزيادة البذل والسرعة إليه وأعلى منهما الإيثار، فمن أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود، ومن قاسى الشدائد وقدم غيره عليه فهو صاحب إيثار كذا أفاده القشيرى مدح الله أصحاب هذا المقام الأخير بقوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾(الحشر:٩). أى فقر واحتياج لما فى أيديهم ومن كلامهم أقبح من كل قبيح . صوفى شحيح فاضرع إلى الله فى الخروج عن هذا الملام وقدم ما يقربك لديه زلفى بدار السلام:

وكن بازلاً للمال إن رمت قربه ... وللروح تحظى عنده بوصال

وما ألطف قول بعضهم:

مالك من مالك إلا الذى ... قدمت فابذل طائعاً مالكاً

تقبول أعمالى ولو فتشوا ... رأيت أعمالك اعمى لك

ومن الشروط تهذيب أى تنقية عيوب النفس حتى تصير على أكمل الحالات . وهذا إنما يحصل بالتخلق بمحاسن الأخلاق والتجمل بأحاسن الرياضيات، فإن عيوب النفس جلبة وخفية والنظر فى الجلبة سهل على كل إنسان . وأما النظر فى الخفية فلا يصل إليه إلا أهل العرفان . فمنها الأعتماد على العمل وإرادة غير ما أقيم فيه العبد وحب التدبير مع الله تعالى والاستعجال فى الدعاء والاعتراض عند فوات المراد فقد الاخلاص وحب الشهرة وإيثار الخلطة وانطباع الأكوان فى مرآة القلب واسترسال القلب فى أودية الغفلة وقلة المبالاة بالهفوة وإحالة العمل على الفراغ والاحتجاب عن الحق برؤية الحلق والوقوف عندما يبدو من كشف وغير ذلك فمن غفل عن تهذيب نفسه كان من الهالكين المتبعين للأهوا . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾(النازعات:٤٠،٤١). فتأمل يا أخى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾(الكهف:٢٨) . وانته بقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾(ص:٢٦) .

وهـذب هـداك الله نفسـك كـى تـرى جميـل الرضى والأنس فى جنة المأوى

وقولـه وإخـلاص نـية تكـرار مـع قولـه فـيما تقـدم حـياء وإخلاص ولعله كرره لشدة الاعتـناء بـه فـإن الإخـلاص روح الأعمـال . وعليه مدار حسن الأحوال وناهيك قولَه سبحانه ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾(الكهف:١١٠)

وقـيل لرسول الله ﷺ: فيم النجاة يا رسول الله؟ فقال: {أن لا يعمل العبد بطاعة الله يـريد بهـا الـناس} . وفـى الحديـث القدسـى: (الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببته من عبادى) .

وقـال ذو الـنون المصرى: (ثلاث من علامات الإخلاص استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية الأعمال، ونسيان اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة) .

وقـال الفضـيل بـن عـياض: (تـرك العمـل من أجل الناس رياء. والعمل لأجل الناس شرك. والإخلاص أن يعافيك الله منهما) .

وفـى الحديـث: {العـالمون هلكـى إلا العـالمون والعـالمون هلكى إلا العاملون والعاملون هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم} .

وفى هذا المعنى .

حليـــلى قطـــاع الفـــيافى إلى العـــلا كـــثير وإن الواصـــلين قلـــيل

وجـــوه علـــيها للقـــبول علامـــة ولـــيس عـــلى كـــل الوجـــوه قـــبول

ثم قال المصنف ﷺ:

وَصَـــمْتٌ وَتَسْـــهِيدٌ وَمَـــوْتٌ بِحُـــبِّهِ وَتَحْسِـينُ أَوْصَـافٍ وَتَجْوِيـعُ مَعْـدَةٍ

أى ومـن أركـان الطـريق صـمت أى سـكوت إلا عن ذكر الله لما فى الحديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت .

وروى عـبد الله بـن سفيان عن أبيه قال: قلت يا رسول الله أخبرنى عن الإسلام بأمر لا أسـأل عـنه أحـداً بعدك، قال {قل آمنت بالله ثم استقم} قال: قلت فما أتقى فأومأ بيده إلى لسانه .

وقال عقبة بن عامر: قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال {أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك. وابك على خطيئتك} .

وقال ﷺ: {من يتكفل لى بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة} .

وقال ﷺ: {التؤدة والرفق والاقتصاد والصمت جزء من ستة وعشرين جزءاً من أجزاء النبوة} .

وقال بعض العارفين: (قد جمعت مكارم الخصال فى أربع وبها صارت الأبدال أبدالاً قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، والاعتزال عن الأنام) .

وفى الحديث: {كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثة أمر بمعروف، أو نهى عن منكر. أو ذكر الله تعالى} .

وناهيك قوله سبحانه: ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاس ﴾(النساء:١١٤) .

وقد سئل أبو يزيد البسطامى: بأى شئ يصل العبد إلى أعلى الدرجات فقال بالخرس والعمى والصمم .

ومن كلامه من عرف الله فليس له مع الخلق لذة، ومن عرف الدنيا فليس له فى معيشته لذة، ومن انفتحت عين بصيرته بهت ولم يتفرغ للكلام .

وسئل بعض الحكماء عن قلة كلامه فقال: لأن الحق سبحانه إنما خلق لنا أذنين ولساناً لنسمع ضعف ما نقول لا لنقول أكثر مما نسمع (وللصفى الحلى) .

اسمع مخاطبة الجليس ولا تكن ... عجلاً بنطقك قبل ما تتفهم

لم تعط مع أذنيك نطقاً واحداً ... إلا لتسمع ضعف ما تتكلم

وما ألطف قول بعضهم إن كان الكلام يهديك . فالسكوت يقيك . يعنى أن الكلام وإن كان نافعاً فى بعض الأوقات . فالسكوت يقى صاحبه من الوقوع فى الهلكات . ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح ومن هذا المعنى قول الإمام الشافعى ﷺ :

قالوا سكت وقد خوصمت قلت لهم ... إن الكلام لباب الشر مفتاح

فى الصمت عن أحمق أو جاهل شرف ... وفيه أيضاً لصون العرض إصلاح

وقال بعضهم:

منع اللسان من الكلام لأنه ... كهف البلاء وجالب الآفات

فإذا نطقت فكن لربك ذاكراً ... لا تنسه واحمده في الحالات

وكان سيدى ماجد الكردى يقول: الصمت عبادة من غير عناء، وزينة من غير حلى، وهيبة من غير سلطان، وحصن من غير سور، وراحة الكاتبين، وغنية عن الاعتذار .

وكان جعفر الصادق يقول عزت السلامة حتى لقد خفى مطلبها، فإن تكن فى شئ فيوشك أن تكون فى الخمول. فإن لم يكن فيوشك أن تكون فى التخلى، فإن لم يكن فيوشك أن تكون فى الصمت، فإن لم يكن فيوشك أن تكون فى كلام الشرف الصالح والسعيد من وجد فى نفسه خلوة، والله الموفق وما ألطف قول أبى العتاهية:

إن كان يعجبك السكوت فإنه ... قد كان يعجبك قبلك الأخيارا

ولئن ندمت على سكوتك مرة ... فلتندمن على الكلام مراراً

إن السكوت سلامة ولربما ... زرع الكلام عداوة وضراراً

السهد من أركان الطريق

ومن الأركان تسهيد وهو والسهد والسهاد نقيض الرقاد، يعنى أن يكون المريد من الذين ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾(السجدة:١٦) أى تتباعد جنوبهم عن مواضع الاضطجاع للنوم قياماً بحقه تعالى من العبادة ليحوز مواهب ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة:١٧) .

وقد ورد: أن المتهجد يشفع فى أهل بيته .

وورد: ركعتان فى جوف الليل يركعهما ابن آدم خير له من الدنيا وما فيها .

وقال ﷺ: أتانى جبريل فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزى به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس .

وقال ﷺ: {رحم الله امرأ قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى فإن أبى نضحت في وجهه الماء} .

وورد: أن من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار .

وروى: عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار؟ قال: {لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ قلت: بلى يا رسول الله . قال الصوم جنه والصدقه تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل ثم تلا ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ حتى بلغ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ . ثم قال ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله، قلت: بلى يا رسول الله فأخذ بلسانه وقال كف عليك هذا، قلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم أ هـ .

وقد أشبعنا الكلام على هذا الحديث في شرح الأربعين النووية فانظره إن شئت .

وورد: أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه .

وروى أنه ﷺ قام الليل حتى تورمت قدماه ولما قيل له هون على نفسك يا رسول الله ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبداً شكوراً .

وقيل أوحى الله إلى داود ﷺ يا داود كذب من أدعى محبتي وإذا جن عليه الليل نام عني أليس كل حبيب يحب الخلوة بحبيبه .

وقد كانت رابعة العدوية تصلي في اليوم والليلة ألف ركعة وتقول والله ما أريد بها ثواباً ولكن ليسر بذلك رسول الله ﷺ ويقول للأنبياء عليهم الصلاة والسلام انظرو إلى امرأة من أمتي هذا عملها في اليوم والليلة .

ولما مات الجنيد رآه بعض أصحابه في المنام فقال له: ما فعل الله بك فقال طارت

تلك الإشارات وطاحت تلك العبارات وغابت تلك العلوم واندرست تلك الرسوم وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها فى السحر .

وقال الإمام الشعرانى عن شيخه الخواص: قيام الليل عند العارفين كالفرض فى الاعتناء به فمن ادعى مقام العرفان ونام الليل فى الأسحار فهو غير صادق .

وكان سيدى إبراهيم الدسوقى يقول: من قام بالأسحار . ولزم فيها الاستغفار . كشف الله لـه عن النوار . وأطلع فى قلبه شموس المعانى والأقمار . فيا ولد قلبى اعمل بما قلته لك تكن من المفلحين .

وقال ذو النون المصرى رأيت ببعض سواحل الشام امرأة فقلت من أين أقبلت قالت من عند أقوام ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ فقلت وأين تريدين قالت أريد ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾(النور:٣٧) فقلت صفيهم لى فقالت:

قوم همومهمو بالله قد علقت ... فما لهم همم تسمو إلى أحد

فطلب القوم مولاهم وسيدهم ... يا حسن مطلبهم للواحد الصمد

ومما قيل فى الأبرار . الذين لازموا القيام بالأسحار:

إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهمو وهمو ركوع

أطار الخوف نومهمو فقاموا ... وأهل الأمن فى الدنيا هجوع

ولبعضهم:

طوبى لمن سهرت فى الليل عيناه ... وبات ذا قلق فى حب مولاه

وناح يوماً على تفريطه وبكى ... خوفاً لما قد جناه من خطاياه

وقام يرعى نجوم الليل منفرداً ... خوف الوعيد وعين الله ترعاه

فيا إخوان الصفاء، وأرباب الوفاء:

أطيعوا وجدوا ولا تكسلوا ... فأنتم إلى ربكم ترجعون

ولا تهجعوا فالأكابر كانوا ... قليلاً من الليل ما يهجعون

وفى الحديث الشريف {إن فى الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها

أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام}.

وقد ذكر بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ﴾(الزمر:٦١) أن العمل الصالح يقول لصاحبه يوم القيامة عند مشاهدة الأهوال اركب فطالما ركبتك فى الدنيا فيركبه ويتخطى به شدائد القيامة.

فائدة روى أن من قال عند نومه (اللهم لا تؤمنا مكرك ولا تنسنا ذكرك ولا تكشف عنا سترك ولا تجعلنا من الغافلين اللهم ابعثنا فى أحب الساعات إليك حتى نذكرك فتذكرنا ونسألك فتعطينا وندعوك فتستجيب لنا ونستغفرك فتغفر لنا). بعث الله إليه ملكاً فى أحب الساعات إليه فيوقظه فإن قام ودعا استجاب له.

ومن اللطائف أن أبا يزيد البسطامى كان صغيراً فى المكتب فلما وصل إلى سورة المزمل قال لأبيه من هذا الذى أمره الله بقيام الليل فقال هذا نبينا محمد ﷺ وقال فلم لم تفعل كما فعل محمد ﷺ قال ذاك أمر شرفه الله به فلما قرأ ﴿ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾(المزمل:٢٠). قال له من هؤلاء يا أبت قال أصحاب محمد قال فلم لم تفعل كما فعلوا قال هؤلاء قواهم الله على قيام الليل فقال يا أبت لا خير فيمن لا يقتدى بمحمد ﷺ وأصحابه، فصار أبوه يصلى بالليل. فقال يا أبت علمنى صلاة الليل فمنعه وقال له إنك صغير، فقال إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة وأمر بأهل الجنة إلى الجنة أقول يا رب أردت الصلاة بالليل فمنعنى أبى!! فقال: يا بنى قم فصل أ هـ.

فاجتهد يا أخى فى الوصول إلى مقام الرجال وتأمل بفكرك الثاقب نصيحة من قال:

يغوص البحر من طلب اللآلى	ومن رام العلا سهر الليالى
تروم الوصل ثم تنام ليلاً	لقد أطمعت نفسك فى المحال

ومن الشروط موت بحبه وهو الموت الاختيارى بحيث يفنى السالك عن شهوته النفسية. ويخرج عن حظوظه بالكلية. وهو المشار بقوله ﷺ موتوا قبل أن تموتوا وهو المرتبة الثالثة من قوله ﷺ كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك مع الموتى

واعلم أن للصوفية أوصافاً يعبرون عنها بالموت الأبيض. والموت الأصفر، والموت الأسود. والموت الأحمر.

فأما الموت الأبيض فيعنون به الجموع لتنور الباطن به فإذا كان السالك ممن لا يعرف

الشبع بل لا يزال جائعاً فقد مات الأبيض وحينئذ يحى فطنته فإن البطنة تميت الفطنة .

وأما الموت الأصفر فهو لبس المرقعات بأن يقتصر علي ما يستر العورة مما لا قيمة لَه فمن أقتصر في لباسه على هذا القدر فقد مات الموت الأصفر لإصفرار عيشه بالقناعة وبعضهم يعبر عن هذا بالموت الأخضر وحينئذ يحيى بجماله الذاتى المستغنى عن التجمل العرضى .

وأما الموت الأسود فهو احتمال أذى الخلق والكف عنه باليد واللسان فإذا تحقق السالك بالمقام الذى يصير فيه بحيث لا يجد فى نفسه حرجاً مما يناله من أذى الناس وسبهم وشتمهم فقد مات الموت الأسود وحينئذ يحيى بالامداد من حضرة الجواد لأنه يصير ممن شاهد أن الكل منه وإليه فتحقق بإشارة .

وحيث الكل منى لا قبيح وقبح القبح من حيثى جميل

وأما الموت الأحمر فهو مخالفة النفس والهوى وهذا هو الجهاد الأكبر المشار لَه بقولَه ﷺ لما رجع من قتال الكفار رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر فإنهم قالوا وما الجهاد الأكبر يا رسول الله قال جهاد النفس .

وورد المجاهد من جاهد نفسه وناهيك قول الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾(العنكبوت:٦٩) . فأنه يشمل هذا .

ثم أعلم أن القيامة الصغرى هى حالة الموت الحقيقى الذى هو إزهاق الروح وإليها الإشارة بقولَه ﷺ من مات فقد قامت قيامته فهى أنموذج القيامة الكبرى لأن الإنسان أرضى مخلوق من التراب فإن انهدمت بالموت أركان بدنه فقد ﴿ زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾(الزلزلة:١) وبيان ذلك أن عظامه جبال أرضه، ورأسه سماء أرضه، وقلبه شمس أرضه وسمعه وبصره وسائر حواسه نجوم سمائه، ومفيض العرق من بدنه بحر أرضه، وقس على ذلك فإذا أنفجر من هول الموت عرق جبينه فقد فجرت البحار تفجيراً، وإذا فارقت الروح قلبه عند الموت فقد كورت الشمس تكويراً، وإذا بطل سمعه وبصره وسائر حواسه فقد انكدرت النجوم، وإذا التفت الساق بالساق وهما مطيتاه فقد عطلت العشار تعطيلاً وإذا فارقت الروح الجسد فقد ألقت الأرض ما فيهما وتخلت، وإذا صلو العظم رميم ما فقد نسفت الجبال نسفاً، وإذا أنشق دماغه فقد انشقت السماء شقاً، ومعلوم أن أهوال القيامة الكبرى تكون اعظم من أهوال الصغرى بكثير . فيا فوز من استعد لها واجتهد فى مرضاة العليم الخبير .

ولما قال الرشيد لابن السماك: عظنى. قال: لَه احذر ان تقدم على جنة عرضها

السموات والأرض وليس لك فيها موضع قدم . ثم أشار المصنف إلى التخلق بالأخلاق المرضية بقوله وتحسين أوصاف يعني أن من آداب المريد أن يحسن أوصافه فيكون متحلياً بمكارم الأخلاق . التى توصله إلى رضا الكريم الخلاق .

وفى الحديث: ينال الرجل بحسن خلقه درجة الصائم القائم، قال ﷺ {إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً} .

وقال ﷺ {إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم} .

قال بعض العارفين: علامة حسن الخلق عشر خصال قلة الخلاف، وحسن الانصاف. وترك طلب العثرات. وتحسين ما يبدو من السيآت، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى. والرجوع بالملامة على النفس. والتفرد بمعرفة عيون النفس دون عيوب الغير، وطلاقة الوجه للصغير والكبير. ولطف الكلام مع كل أحد .

وقد عرفوا علم الأخلاق بأنه علم بأصول يعرف بها أنواع الفضائل وكيفية أكتسابها وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها . وفائدته تخلق الإنسان بالأخلاق المحمودة وتجنبه للأخلاق المذمومة وما ألطف ما قيل:

بمكارم الأخلاق كن متخلقاً ... ليفوح مسك ثنائك العطر الشذى

وانفع صديقك أن أردت صداقة ... وادفع عدوك بالتى فإذا الذى

وروى أن لقمان اختار من حكمه أربعاً أوصى بها ولده فقال له: تذكر أثنتين وأنس اثنتين فأما اللتان أوصاه بتذكرهما (فالذنب، والموت) وأما اللتان أوصاه بنسيانهما (فإحسانه للناس. واساءتهم عليه) وقد نظم ذلك العلامة الأجهورى فقال:

إذا شئت أن تحيى ودينك سالم ... وعقلك موفور يزيد ويكمل

فكن معرضاً عن كل بر صنعته ... مع الناس والسوء الذى بك يعمل

وكن ذاكراً للذنب والموت تعملن ... بما اختار لقمان الحكيم المفضل

وكان الإمام على كرم الله وجهه يترنم بهذه الأبيات:

إن المكارم أخلاق مطهرة ... فالعقل أولها والدين ثانيها

والعلم ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والعرف ساديها

والـبر سـابعها والصـبر ثامـنها ... والشكر تاسعها واللين عاشيها
والـنفس تعـلم أنـى لا أصـدقها ... ولست أرشد إلا حين أعصيها
والعـين تعـلم مـن عيـنى محدثها ... إن كان من حربها أو من أعاديها

وفـى الحديث الشريف عنه ﷺ قـال: أدبنى ربى فأحسن تأديبى ثم أمرنى بمكارم الأخلاق فقال " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " ولله در القائل:

خـذ العفـو وأمـر بعـرف ... كما أمرت وأعرض الجاهلين
ولـن فـى الكـلام لجمـع الأنـام ... فمستحسن مـن ذوى الجاهلين

ولنا فى هذا المعنى:

خذ العفـو عـن جـاهل قـد بغـى ... علـيك تفـز بالمقـام الأمـين
وبالعـرف فأمـر وكـن محسـناً ... وواصـل وأعـرض عـن الجـاهلين

وقال بعض البلغاء: من وصل رحمه، وصل الله رحمه ومن أجار جاره أعانه الله وأجاره .

وحسبى مـن ذل وسـوء صـنيعة ... معاداة ذى القربى وإن قيل قاطع
ولكـن أواسـيه وأنسـى ذنوبـه ... لترجعـه يومـاً إلى الـرواجع
ولا يستوى فـى الحكم عبدان واصل ... وعـبد لأرحـام القـرابة قـاطع

ومن لطائف الاستعطاف، قول بعض أهل الإنصاف .

فـلا تحـتقر نفسـى وأنـت خليـلها ... فكـل امـرئ يصـبوا إلى مـن يشـاكل

ومـن أركـان الطـريق تجويـع معـدة اختـياراً لما فى الحديث إذا جاع الرجل ملأ الله قلبه نـوراً فـالجوع هو الأصل فى سلوك طريق المقربين . فعليك بملازمته تكن من المفلحين، فإنه يميت الهوى ويصفى الفؤاد . ويورث فهم دقائق العلوم التى بها يبلغ العبد المراد .

وقـد ورد لا ينظر الله إلى جوف ملئ من طعام، ولذا كان النبى ﷺ وأصحابه لا يأكلون إلا عن فاقة .

ففـى الحديث: عن أنس بن مالك ﷺ قال {جاءت فاطمة ﷺ بكسرة خبز إلى رسول

الله ﷺ فقال ما هذه الكسرة يا فاطمة قالت قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة فقال أما إنه لأول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام} أ هـ .

فتدبر ما تضمنه هذا الخبر من حال تقليل السيد الكامل، وما تحمله لنيل زيادة الفضائل مع ما منحه الله من الكمالات ومعالى المقامات، فبان السر فى كمال الإنسان والواسطة العظمى فى سابق علم الرحمن لتتحقق ما أنت عليه من التقصير وذلك منك على خطر خطير . فعسى أن تتأثر نفسك الخبيثة . وتنزجر عن عاداتها الخسيسة . فتتأسى بسيد الكائنات لتندرج مع أهل السعادات وما ألطف ما قيل:

فلو كانت الدنيا جزاء لمحسن ... إذا لم يكن فيها معاش لظالم

لقد جاع فيها الأنبياء كرامة ... وقد شبعت فيها بطون البهائم

وقال بعض العارفين: إن هذه النفس فى غاية الخساسة والدناءة ونهاية الجهل والغباوة ينبهك إلى ذلك أنها إذا همت بمعصية أو انبعثت الشهوة فلو تشفعت اليها بالله سبحانه ثم برسله وجميع أوليائه وعرضت عليها الموت والقبر والقيامة لا تكاد تعطى القياد، ولا تترك الشهوة والعناد. ثم إن منعتها رغيفاً سكنت وزلت بعد الصعوبة والجماح، ولانت وانقادت إلى طريق الفلاح. فعليك بهذا العلاج، فإنه أعظم منهاج ولله در القائل:

ومن البلاء وللبلاء علامة ... أن لا يرى لك عن هواك نزوع

العبد عبد النفس فى شهواتها ... والحر يشبع تارة ويجوع

وفى الحديث الشريف: عنه ﷺ قال {لا تميتوا القلب بالطعام والشراب فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء} وأخذ بعضهم هذا المعنى فقال:

يميت الطعام القلب ان اد كثرة ... كزرع إذا بالماء قد زاد سقيه

وان لبيباً يرضى نقص عقله ... بأكل لقيمات لقد ضل سعيه

وقد انتهى الحال بالإمام البخارى إلى أن صار يأكل كل يوم ثمرة أو لوزتين ورعاً وحياء من الله تعالى فى تردده إلى الخلاء .

وقيل: لما خلق الله الخلق جعل العلم والحكمة فى الجوع وجعل الجهل والمعصية فى الشبع.

وفى الحديث: {إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع}

وذلك لأن الجوع ينقص دم القلب ويبيضه وفى بياضه نوره ويذيب شحم الفؤاد وفى ذوبانه رقته ورقته مفتاح المكاشفة كما أن قساوته سبب الحجاب ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدو فإن مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات وما ألطف قول الإمام النووى:

دواء قلبك خمس عند قسوته فدم عليها تفز بالخير والظفر
إخلاء بطن وقرآن تدبره كذا تضرع باك ساعة السحر
كذا قيامك جنح الليل أوسطه وأن تجالس أهل الخير والخبر

الإمداد بحسب الاستعداد

وقال سيدى إبراهيم الدسوقى: قوات لمريد الصادق الجوع . وشرابه الدموع، وأما من شبع ونام . ولغى فى الكلام، وترخص وقال ما على ذلك ملام . فإنه لا يجئ منه شئ فى الطريق والسلام . ثم قال المصنف ﷺ:

وَإِثْبَاتُ إِيثَارٍ وَبَسْطُ كَرَامَةٍ بِمَا حُزْتَ مِنْ مَالٍ وَرُوحٍ لِمِنْحَةٍ

أى ومن شروط الطريق إثبات أى تحقيق إيثار أى تقديم للغير على النفس ليكون المريد من الذين قال الله فيهم: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾(الحشر:٩) ومحل تقديم الغير على النفس إذا كان من الذين عندهم صبر وإلا قدم نفسه لما فى الحديث {ابدأ بنفسك ثم بمن تعول} وقوله (وبسط كرامة) أى بذل كرم للغير مع التوسعة عليه فإن الكريم قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد عن النار والبخيل بضد ذلك كما تقدم وقوله بما حزت من مال معناه أنك تؤثر الغير على نفسك وتكرمه بما حزت أى جمعت من مال حلال فإنه ورد نعم المال الصالح للرجل الصالح .

وورد: نعمت الدنيا مطية المؤمن بها يصل إلى الآخرة فليست الدنيا مذمومة إلا بالنسبة لمن يجمعها من غير حل أو يصرفها فى وجوه البر كما قال محمود الوراق:

من شرف الدنيا ومن فضلها أن بها تستدرك الآخرة

وقوله وروح بضم الراء ما به الحياة أى أنك تكرم الغير بروحك أيضاً بمعنى أنك تفديه بها وقداتهم جماعة من الصوفية بأنهم زنادقة فلما قدموهم ليضربوا أعناقهم سارع

أحدهم فى التقدم إلى السيف فقيل له فى ذلك فقال لأوثر أصحابى بالحياة بعدى مقدار ضرب عنقى فلما تحققوا كمالهم وبراءتهم خلوا سبيلهم فأنت تراه آثر أصحابه بروحه .

وما ألطف قول ابن الفارض:

إذا جاد أقوام بمال رأيتهم   يجودون بالأرواح منهم بلا بخل

وقوله لمنحة بكسر الميم وسكون النون وفتح الحاء المهملة أى عطية أى لتكون بفعلك هذا صاحب عطية وأصل المنحة الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها لمن يشرب لبنها ثم يردها إذا انقطع اللبن ثم أطلقت على كل عطاء يقال منحته منحاً من بابى ضرب ونفع أعطيته، ثم قال المصنف ﷺ:

وَرِفْقٌ وَتَصْديقٌ وَعِشْقٌ مَحَبَّةٌ   وَسَحْقٌ وَمَحْقٌ والفَنَا بَعْدَ سَكْرَةِ

أى ومن الشروط رفق أى سهولة ولين جانب وهو نتيجة حسن الخلق وضده العنف، وفى الحديث: {ما كان الرفق فى شئ إلا زانه} .

(ولنا فى هذا المعنى):

عليك بالرفق لتحظى بما   ترجو وتجنى من ثمار النجاح

وجانب العنف تزد بهجة   فالرفق بين الناس زين الملاح

ومن الشروط تصديق،أى أن يكون عند المريد تصديق بأحوال القوم ومشاربهم وإلا رجع عن طريقهم أو تصديق لمن يخبره بأمر من الأمور فيه صلاحه إن ظهرت عليه دلائل الصدق من قولهم صدقت فلاناً أى نسبته الصدق . وأما قوله وعشق بالتنوين وقوله محبة بحذف حرف العطف فهما من الأحوال كالذوق والشوق وقد فسروا العشق بأنه ألفة رحمانية أوجبها كرم الله تعالى على كل ذى روح لتحصل بها اللذة العظمى وهى موجودة فى كل إنسان بحسب استعداده ومرتبته وأعظم الناس درجة فيه من عشق شيئاً لم يره وإنما سمع به ولذا، قال أشرف المراتب فى الدنيا مراتب الذين زهدوا فيها مع كونها مرئية لهم وعشقوا الآخرة مع كونها غير مرئية لهم فهو من خصال الكمال وحلل الجمال:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى   ولا خير فيمن لا يحب ويعشق

واعلم أن النظر يولد فى القلب المحبة وهى الميل ثم يقوى ذلك فيصير صبابة ينصب إليه القلب بكليته ثم يقوى فيصير غراماً يلزم القلب كلزوم الغريم ثم يقوى فيصير عشقاً ثم

يقوى فيصير شغفاً أى يصل إلى شغاف القلب وداخله ثم يقوى فيصير تتيماً أى تعبداً من قولهم تيمه الحب إذا عبده وصيره عبداً للمحبوب، فيكون المحب متيماً مأموراً، ومغرماً مأسوراً. لا يقر له قرار. ولا يفرق بين النافع والضار. يكابد من فرط العشق كل أمر مهول . حتى يرثى له كل قريب وعذول .

وقال بعضهم: الجنون فنون والعشق فن من فنونه واحتج بقول القائل:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم   العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه   وإنما يصرع المجنون فى الحين

(وفى الحديث الشريف): (من عشق فعف فكتم فمات مات شهيداً) ولبعضهم:

حسب المحبين فى الدنيا عذابهموا   تالله ما عذبتهم بعدها سقر

بل جنة الخلد مأواهم مزخرفة   ينعمون بها حقاً بما صبروا

وكيف لا وهمو حبوا وقد كتموا   مع العفاف بهذا يشهد الخبر

وهذا إذا كان التعلق ببعض المخلوقين . فما بالك إذا كان التعلق برب العالمين، لعمرك إنهم يصيرون من المحبوبين لديه . المقربين إليه . كما قال تعالى يحبهم ويحبونه وفى الحديث: {لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما} .

ومن دعائه ﷺ: {اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك وحب ما يقربنى إلى حبك} .

وجاء أعرابى فقال: {يا رسول الله متى الساعة؟ فقال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أنى أحب الله ورسوله. فقال له ﷺ المرء مع من أحب قال أنس فما رأيت المسلمين فرحوا بشئ بعد الإسلام فرحهم بذلك} .

واعلم أن المحبين على ثلاثة أقسام: عوام، وخواص، وخواص الخواص .

فأما العوام: فمحبتهم له تعالى خالصة عن الشوائب .

وأما خواص الخواص: فمحبتهم عبارة عن التعشق الذى به ينمحى العاشق عند تجلى نور معشوقه ولا تحصل هذه المحبة إلا بعد اليقين وأكمل الخلق فى المحبة سيد الأولين والآخرين .

وفى الحديث القدسى: يا محمد إن كنت اتخذت إبراهيم خليلاً وموسى كليماً ونجياً

فلقد اتخذتك حبيباً وعزتى وجلالى ما خلقت الدنيا وأهلها والجنة إلا لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندى ولولاك ما خلقت الأفلاك .

ثم اعلم: أن المحبة دين أهل الله المقربين . كما قال ابن الفارض سلطان العاشقين:

وعن مذهبى فى الحب مالى مذهب وإن ملت يوماً عنه فارقت ملتى

وإذا أفرط المحب فى المحبة تأججت فى قلبه نار الأشواق وطلبت الروح المواصلة والتلاق . واوداد تحيراً وغراماً . وطلب الزيادة من ذلك طرباً وغراماً، كما قال:

زدنى بفرط الحب فيك تحيراً وارحم حشا بلظى هواك تسعراً

والمراد بمحبة الله لعباده حصول الخيرات البهية . والأحوال الباهرة العلية . فمتى حصل للعبد عواطف المحبة من الحنان . دخل حضرة الامتنان بالأمان . وأما محبة العبد لله فهى حالة يجدها فى قلبه تحمله على الانهماك فى طاعته، وإيثار رضاه والتحرز عن معصيته . كما قال بعض العارفين:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وكانت رابعة العدوية . تقول فى مقام المشاهدة القلبية:

أحبك حبين حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ثم إن المحب من لا يغيره عذل العاذل . بل يزيده ذلك حباً على حد قول القائل:

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم

أجد الملامة فى هواك لذيذة طرباً لذكرك فليلمنى اللوم

وقال سلطان العاشقين:

أدر ذكـر مـن أهـوى ولـو بمـلام ... فـإن أحاديـث الحبيـب مدامـى

ليشـهد سمعـى مـن أحـب وإن نـأى ... بطـيف مـلام لا بطـيف مـنام

وإذا أردت أن ترقى فى مقام المحبة أعلى الدرجات: فتحقق بقول بعض أهل الإشارات:

حـروف المحـبة مـرموزها ... يبشـرنا بـبلوغ المـنى

فمـيم المـات وحـاء الحـياة ... وبـاء الـبلاء وهـاء الهـنا

فـلا تطمعـن بطيـب اللقـاء ... وطـول الـبقاء بـدون الفـنا

حميـنا الوصـال بحـد النصـال ... فـان تلـق سمـر القـنا تلقـنا

فـلا تجـزعن لمـر الـنكال ... وحـر الوبـال ففـيه الهـنا

ومـت مـثل مـا مـات أهـل الهـوى ... وذابـوا اشـتياقاً فـنالوا المـنى

وما ألطف قول سلطان العاشقين:

ونفس ترى في الحب أن لا ترى عنا ... مـتى مـا تصـدت للصـبابة صـدت

ومـا ظفـرت بالحـب روح مـراحة ... ولا بـالو لا نفـس صـفا العـيش ودت

وأيـن الصـفا هـيهات مـن عيش عاشق ... وجـنة عـدن بالمكـاره حفـت

وما أحسن قولَه ﷺ من قصيدة:

فـإن شـئت أن تحـيى سـعيداً فمت به ... شـهيداً وإلا فالغـرام لَـه أهـل

وقال أبو بكر الكتانى: جرت مسئلة فى المحبة أيام الموسم فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهم سناً فقالوا له: هات ما عندك يا عراقى . فأطرق ساعة ودمعت عيناه ثم قال: المحب عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه أحرق قلبه أنوار هويته وصفى شربه من كأس وده وكشف لَه الجبار عن أستار غيبه فإذا تكلم فبالله وإن نطق فمن الله وإن تحرك فبأمر الله وإن سكت فمع الله فهو بالله ومن الله ولله ومع الله

. فبكى الشيوخ وقالوا ما على هذا مزيد، وقوله وسحق ومحق بفتح أولهما حالان من أحوال السالكين . ثانيهما أعلى من أولهما عند العارفين كما أن المحو والطمس حالان فمن شغله الله بذكره عن نفسه وبقيت فيه بقية يتنعم بها فهو فى حال السحق، ومن غاب عن نفسه بالكلية فهو فى حال المحق . فالمحق أتم من السحق لأنه فناء وجود العبد فى ذات الحق وأما المحو فهو فناء أفعاله فى أفعال الحق والطمس فناء صفاته فى صفات الحق كما أفاده السيد الشريف فمن كان في مقام السحق والمحق لا يرى وجوداً إلا للحق، ومن كان فى مقام المحو لا يرى أفعالاً إلا للحق ومن كان فى مقام الطمس لا يرى صفة إلا للحق، والفناء بفتح الفاء والمد وإنما قصره فى البيت لضرورة الوزن يطلق على معنين أحدهما سقوط الأوصاف المذمومة كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة، والثانى الاستغراق فى المشاهدة القلبية . حتى لا يشعر بغير الله ويغيب عن نفسه بالكلية، وهو انتهاء السير إليه تعالى فيكون فانياً فى الله باقياً على حد قول بعضهم:

وبعد الفنا فى الله كن كيف ما تشا فعلمك لا جهل وفعلك لا وزر

قالوا: الفناء على ثلاثة أوجه فناء فى الأفعال لا فاعل إلا الله وفناء فى الصفات لا حى ولا عالم ولا قادر ولا مريد ولا سميع ولا بصير ولا متكلم على الحقيقة إلا الله وفناء فى الذات لا موجود بالوجود الذاتى إلا لله، وأنشدوا فى ذلك:

فيفنى ثم يفنى ثم يفنى فكان فناؤه عين البقاء

فيفنى أولاً فى الأفعال بذوق ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾(الصافات:٩٦) . ثم يفنى ثانياً فى الصفات بذوق ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾(الأنفال:١٧) . ثم يفنى ثالثاً فى الذات بذوق كان الله ولا شئ معه ويبقى الله ولا شئ معه، وعند ذلك يبقى بربه ﷺ وهذه المراتب إنما تحصل بالمقامات التى يقطعها السالك كالتوبة والمحاسبة والمراقبة والمجاهدة والورع والإخلاص والصدق والزهد والحضور مع الله بالقلب والتسليم والتوكل وشدة التقرب إليه تعالى بالنوافل . كما فى الحديث (لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها) الخ .

وهذا لمن اختاره لمقام الاصطفاء، وسقاه حميا الاجتباء . كما قال بعض العارفين: إذا أرادك لخصوصية الاصطفائية . سقاك بكأس محبته شربة روية . فتزداد بتلك الشربة ظمأ

وبالذوق شوقاً . وبالقرب طلباً، وبالسكون قلقاً . على حد ما قيل:

يــزيد ظمــا مهمــا تــزايد شــرابه ... من الحب فاعجب من ظما زاد بالشرب

وأعجـــب مـــن ذا قـــربه لحبيـــبه ... ويــزداد بالقــرب إشــتياقاً إلى القــرب

فـلا الشـرب يـرويه ولا القـرب يشتفى ... بـه القلـب بـل يـزداد كـرباً على كرب

ولـــيس شـــفاء القلـــب إلا فـــناءه ... بأحــبابه فاســلك بــه مســلك الحــب

فـإذا تمكن منك هذا السكر أدهشك . فإذا أدهشك حيرك . فأنت ههنا مريد فإذا دام تحـيرك أخـذك مـنك. وسلبك عنك . فتبقى ثم مسلوباً مجذوباً فأنت حينئذ مراد فإذا فنيت ذاتك. وذهبت صفاتك. قام بصفاته عن صفاتك. وببقائه عن فنائك. وخلع عليك خلعة فبى يسمع وبى يبصر فيكون هو متوليك ومواليك فإن تكلمت فبأذكاره . وإن نظرت فبأنواره، وإن تحركـت فـبأقداره. وإن بطشـت فباقـتدراه . فإذا رسخ قدمك وتمكن سرك حال سكرك قلت هو وإن غلبك وجدك، وتجاوز بك سكرك . قلت أنا ومن هنا أشكل على الأفهام . حل رموز هـذا الكـلام . فقـائل يقـول زنديـق فيقتل . وقائل يقول صديق فيحمل . وقائل يقول مغلوب علـيه فـيهمل . فهـو مـن حيـث تحقيق حاله محق فى علمه، والذى حكم بقتله مصيب فى حكمـه . إذ الشـريعة لهـا حـدود . فمن تعداها أقيمت عليه الحدود. والحقيقة لها شهود . خارج عن طوق هذا الوجود .

واعـلم: أن المشـار إلـيه بأنا عند المحققين من أهل الله هو الوجود الكلى السارى فى كل شئ وهـو وجـود الحق ﷻ لا الوجود الجزئى فليس هناك حلول ولا اتحاد تعالى الله عن ذلك، وإذا وقع لفـظ الاتحـاد فـى كـلام الصـوفية فإنما يريدون به هذا المعنى. كما قال السيد الشريف: الاتحاد هو شـهود الوجـود الحـق الواحـد المطلـق الذى الكل موجود به فيتحد به الكل من حيث كون كل شئ موجوداً به معدوماً بنفسه لا من حيث إن له وجوداً خاصاً اتحد به فإنه محال أ هـ .

أو يـريدون بـه معـنى الفـناء الذى هو محو النفس وإثبات الأمر كله لله كما قال بعض أهل الإشارات:

وعـــلمك أن كـــل الأمـــر أمـــرى ... هـــو المعـــنى المســـمى باتحـــاد

قـيل: لـما حكم على (الحلاج بالقتل) حين وصل إلى هذا المقام وقال: ما فى الجبة إلا الله امتثل الأمر حفظاً لسور الشريعة فلما قطعت يده اليمنى ثم اليسرى أنشأ يقول:

لم أسلم النفس للأسقام تتلفها | إلا لعلمى بأن الوصل يحييها
نفس المحب على الآلام صابرة | لعل مسقمها يوماً يداويها

ولما قدموه للجذع ليصلب أنشأ يقول:

لبيك يا عالماً سرى ونجوايا | لبيك لبيك يا قصدي ومعنايا
أدعوك بل أنت تدعونى إليك فهل | ناجيت إياك أم ناجيت إيايا
حبى لمولاى أضنانى وأسقمنى | فكيف أشكو إلى مولاى مولايا
يا ويح روحى من روحى ويا أسفى | على منى فإنى أصل بلوايا

وما ألطف قول السيد الشريف ذو العقل هو الذى يرى الخلق ظاهراً. ويرى الحق باطناً، فيكون الحق عنده مرآة الخلق لاحتجاب المرآة بالصور الظاهرة وذو العين هو الذى يرى الحق ظاهراً. والخلق باطناً. فيكون الخلق عنده مرآة الحق لظهور الحق عنده واختفاء الخلق فيه اختفاء المرآة بالصور. وذو العقل والعين هو الذى يرى الحق فى الخلق. وهذا قرب النوافل ويرى الخلق فى الحق وهذا قرب الفرائض، ولا يحتجب بأحدهما عن الآخر بل يرى الوجود الواحد بعينه حقاً من وجه. وخلقاً من وجه، فلا يحتجب بالكثرة عن شهود الوجه الواحد الأحد كما لا يحتجب بكثرة المرائى عن شهود الوجه الواحد الرائى ثم قال والى المراتب الثلاثة أشار ابن العربى بقوله:

وفى الخلق عين الحق إن كنت ذا عين | وفى الحق عين الخلق إن كنت ذا عقل
وإن كنت ذا عين وعقل فما ترى | سوى عين شئ واحد فيه بالشكل

وإنما قال المصنف بعد سكره لأنك قد علمت أن الفناء إنما يكون بعد شرب كأس المحبة . لمن أراد الله اصطفاءه وقربه . كما قال بعض العارفين . الواصلين إلى رب العالمين:

أديرت علينا بالمعارف قهوة | يطوف بها من جوهر العقل خمار
فلما شربناها بأفواه فهمنا | أضاءت لنا منه شموس وأقمار
وكاشفنا حتى رأيناه جهرة | بأبصار صدق لا تواريه أستار
فغبنا به عنا فنلنا مرادنا | فلم يبق منا عند ذلك آثار

وقال آخر:

نحن فى عيشة الوصال الهنية   نجتلى الراح فى الكؤس السنية

قد لبسنا هياكل النور لما   فارفتنا الهيا كل البشرية

وقد قالوا: خمرة الذوق تكسب اللطافة . وتنمحق الكثافة . كؤسها المعانى . وحاناتها حضرة التدانى . ودنها العارف . وندمانها المعارف . وزاووقها الصافى . ومرافقها الموافى . بها تقلب الاعيان . فيمشى المقعد ويبصر الأعمى وينطق الأخرس ويرتوى الظمآن . على حد ما قيل:

ومقعد قوم قد مشى من شرابنا   وأعمى سقيناه سلافاً فأبصرا

وأخرس لم ينطق ثمانين حجة   أدرنا عليه الراح يوماً فأخبرا

فيا هذا عليك بشراب القوم . فإنه الخالى عن اللوم . إذ لا يستوى من اتبع هواه ومن هو من أهل الله فإن هذا بطاعته بان. وذاك بمعصيته بار والله تعالى لا يخيب من أمله . فيما أم له . فابذل روحك فى الوصول لما وصل له القوم وإلا فلا يسام بغير ذلك السوم . كما قال بعض أهل الإشارات:

اسمح بنفسك ان أردت لقانا   واحلف بنا أن لا نحب سوانا

فإذا قضيت حقوقنا يا مدعى   عاينتنا بين الانام عيانا

وما ألطف قول بعضهم:

وليس جناب القدس إلا لأهله   وما كل إنسان بواديه يسرح

ثم قال المصنف ﷺ:

وَحَمْدٌ وشُكْرٌ وَالوَفا بأوامِر   وَلاَ تَعْد عَنْ حُكْمَىْ كِتابٍ وَسُنَّةِ

أى ومن الشروط حمد الله تعالى أى ثناء عليه بما أنعم . وشكر له على ما تفضل وتكرم . وفى الحديث: {أول من يدعى إلى الجنة الحمادون لله على كل حال} . أى على حالة الضراء والسراء كما قال بعضهم:

أحمد ربى حالة الضراء   حمدى له فى حالة السراء

لا حمد من يعبد ربه على   حرف فان وان كما قد أنزلا

يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴾(الحج:١١) .

وورد: لو أن الدنيا بحذافيرها في يد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله كانت الحمد لله أفضل من ذلك قال الترمذي وذلك لأن الدنيا فانية وهذه الكلمة من الباقيات الصالحات .

وورد: أن من لبس ثوباً جديداً فقال الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه .

وروي: أن آدم لما أهبط إلى الأرض قال يا رب علمني كلمة تجمع لي فيها المحامد فأوحى الله إليه أن قل ثلاثاً عند كل صباح ومساء ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(الفاتحة:٢) . حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده فهي أفضل المحامد .

واعلم: أن شكر النعمة إذا شكرت قرت وإذا كفرت فرت فشكر العينين إن تستر عيب أخيك المسلم وأن لا تنظر إلى ما لا يحل وشكر الاذنين أن لا تسمع ما لا يحل وهكذا يقال في باقي الأركان كل جارحة بحسبها فإن الشكر كما يكون بالقلب واللسان يكون بجميع الأركان .

قال الجنيد: كنت بين يدي السري السقطي وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر فقال لي يا غلام ما الشكر فقلت أن لا يعصى الله بنعمه ومما قيل في الحض على الشكر:

ومن الرزية أن شكري صامت عما فعلت وأن برك ناطق
أأرى الصنيعة منك ثم أسرها إني إذا ليد الكريم لسارق

وقال الصفي الحلي:

سأشكر نعماك التي لو جحدتها أقربها حالي ونم بها سري
وفي حسن حال المرء أعدل شاهد يقر بما أسدت إليه يد القطر

وفي الحديث: {من لم يشكر على القليل، لم يشكر على الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله} .

وفي الحديث القدسي: عبدي لم تشكرني إذا لم تشكر من أجريت النعمة على يديه .

ولما دخل سفيان الثوري على جعفر الصادق وقال له: علمني يا ابن رسول الله مما

علمك الله قال له: إذا تظاهرت الذنوب فعليك بالاستغفار، وإذا تظاهرت النعم فعليك بالشكر. وإذا تظاهرت الغموم فقل (لا حول ولا قوة إلا بالله) فخرج سفيان وهو يقول: ثلاث وأى ثلاث .

وفي الحديث: من أعطى فشكر وابتلى فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾(الأنعام:٨٢) .

وروى: أن داود ﷺ قال: إلهى كيف أشكرك وشكرى لك نعمة من عندك، فأوحى الله إليه الآن شكرتنى .

وما ألطف قول بعضهم:

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة	على له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله	وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها	وإن مس بالضراء يعقبها الأجر
فما منهما إلا له فيه نعمة	تضيق بها الأوهام والسر والجهر

وقال بعض العارفين: من أعطى أربعاً لم يمنع من أربع من أعطى الشكر لم يمنع المزيد لقوله تعالى: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾(إبراهيم:٧) . ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾(الشورى:٢٥) . ومن أعطى الإستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب لقوله ﷺ {لا خاب من استخار ولاندم من استشار} .

وما ألطف قول بعضهم:

لئن شكرتم لأزيدنكم	مقالة الله التى قالها
فالكفر بالنعمة يدعو إلى	زوالها والشكر أبقى لها

وقوله والوفا بأوامر شرط من الشروط أى بما أمر الله به فإن ذلك من جملة أمور الدين الأربعة التى هى صحة العقد. وصدق القصد. والوفاء بالعهد. وحفظ الحد .

ومعنى (صحة العقد): أن يكون الاعتقاد فى ذات الله وصفاته وأنبيائه وجميع ما جاؤا به صحيحاً .

ومعنى (صدق القصد): الإخلاص لله في العبادة فلا يقصد بعبادته سواه .

ومعنى (الوفاء بالعهد): امتثال الأوامر لقوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ .

ومعنى (حفظ الحد): اجتناب النواهي لقوله تعالى: ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾(الحشر:٧) .

وفي الحديث: {إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها} .

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا رأيت الله تعالى يعطي العباد ما يشاؤن وهم مصرون على المعاصي فاعلم أن ذلك استدراج منه لهم ثم تلا ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾(الأنعام:٤٤) فتخلص يا أخي من شرك المعاصي ، قبل الأخذ بالنواصي . وقم بأوامر الكبير المتعال] . وتدبر قول من قال:

العمر ينقص والذنوب تزيد . وتقال عثرات الفتى فيعود

هل يستطيع جحود ذنب واحد رجل جوارحه عليه شهود

ودخل بعض وزراء المأمون عليه فوجد في يده رقعة فيها هذه الموعظة:

إنك في دار لها مدة يقبل فيها عمل العامل

أما ترى الموت محيطاً بها يقطع فيها أمل الآمل

تعجل بالذنب لما تشتهي وتأمل التوبة من قابل

والموت يأتي بعد ذا بغتة ما ذاك فعل الحازم العاقل

فتأمل يا أخي وشمر عن ساعد جدك . وإن كنت من أهل البطالة فقل مخاطباً لخدك:

يا خد إنك أن توسد لينا وسددت بعد الموت صم الجندل

فامهد لنفسك صالحاً تسعد به فلتندمن غداً إذا لم تفعل

ولله در القائل:

مضى أمسك الأدنى شهيداً معدلاً ويومك هذا بالفعال شهيد

فـإن تـك بـالأمس اقترفـت إسـاءة ... فـتن بإحسـان وأنـت حمـيد
ولا تـرج فعـل الخـير مـنك إلى غـد ... لعـل غـداً يـأتى وأنـت فقـيد

وأعلم: أن الإنسان لا يفى بالأوامر إلا بعد مخالفة النفس والشيطان ومجانبة الأهواء الموجبة للخذلان . ولذا قال بعضهم فى شرح أحوال الصوفية الذين قاموا لله على قدم العبودية . تنسموا روح ما دعاهم إليه فأسرعوا إلى محو العلائق الشاغلة، وتجرعوا مرارة المكابدة وصدقوا الله فى المعاملة. وأحسنوا الأدب فيما توجهوا إليه وعرفوا قدر مطلوبهم فجعلوا توكلهم عليه فحيوا حياة الأبد بالحى الذى لم يزل ولا يزال. وإن أردت أن تكون على مذهبهم فاعمل بقول من قال:

بـالذوق والشـوق نـالوا عـزة الشـرف ... لا بـالدلوق ولا بالعجـب والصـنف
ومذهـب القـوم أخـلاق مطهـرة ... بهـا تخلفـت الأجسـاد فـى الـنطف
صـبر وشـكر وإيـثار ومخمصـة ... وأنفـس تقطـع الأنفـاس بـاللـهف
والـزهد فـى كـل فـإن لا بقـاء لَـه ... كمـا مضـت سـنه الأخـيار والسـلف
قـوم لتصـفية الأرواح قـد عملـوا ... وسـلموا عـارض الأشـباح للـتلف
لا بالـتخلف فـى المعـروف تعـرفهم ... ولا الـتكلف فـى شـئ مـن الكلـف
مـا ضـرهم رث أطمـار ولا خلـق ... كـالدر مـا ضـره مخلولـوق الصـدق
وا شـقوتى أن تولـت أمـة سـلفت ... حـتى تخلفت فـى خلـف من الخلف
يـنمقون تزاويـر الغـرور لـنا ... بالـزور فـى القـول والبهتان والحلف
لـيس التصـوف عكـازاً ومسـبحة ... كـلا ولا الفقـر رؤيـا دلقـك الـترف
وأن تـروح وتغـد وفـى مـرقعة ... وتحـتها موبقـات الكـبر والسـرف
وتظهـر الـزهد فـى الدنـيا وأنت على ... عكوفهـا كعكـوف الكلـب فى الجيف
الفقـر سـر وعـنك الـنفس تحجـبه ... فـرافع حجـابك تجلـو ظلمة السدف
وفـارق الجـنس وافن النفس فى نفس ... وغب عن الحس واجلب دمعة الاسف

واخضع لـه وتذلـل إن دعيـت لـه ... واعـرف محلـك مـن اياك واعـترف
وقـف عـلى عـرفات الـذل منكسـراً ... وحـول كعـبة عـرفان الصـفا فطـف
وادخـل إلى خلـوة الأفكـار مبـتكراً ... وعـد إلى حانـة الـتذكار بالصـحف
واتـل المـثانى ووحـد إن عزمـت عـلى ... ذكـر الحبيب وصف ما شئت واتصف
وإن سـقاك مديـر الـراح مـن يـده ... كـأس التجـلى فخذ بالطاس واغترف
واشـرب وأسـق ولا تـبخل عـلى ظمـا ... فـإن رجعـت بـلا رى فـيا أسـفى

وقال الإمام المقسى مبتدئاً بمن تزيا بزيهم، ولم يسر بسيرهم:

ذهـب الـرجال وحـال دون مجـالهم ... زمـر مـن الأوبـاش والأنـذال
زعمـوا بـأنهمو عـلى آثـارهم ... سـاروا ولكـن سـيره الـبطال
لبسـوا الدلـوق مـرقعاً وتقشـفوا ... كتقشـف الأبطـال والأبـدال
قطعـوا طـريق السـالكين وأظـلموا ... سـبل الهـدى بجهالـة وضـلال
عمـروا ظواهـرهم بـأثواب الـتقى ... وحشـوا بواطـنهم مـن الأدغـال
إن قلـت قـال الله قـال رسـوله ... همـزوك همـز المـنكر المـتغالى
ويقـول قلـبى قـال لى عـن خاطـرى ... عـن سـر سـرى عـن صـفا أحـوالى
عن حضـرتى عـن فكـرتى عن خلوتى ... عـن جلوتـى عـن شـاهدى عـن حـالى
عـن صفو وقـتى عـن حقـيقة حكمتى ... عـن ذات ذاتـى عـن صـفات فعـالى
دعـواه إن حققـتها ألفيـتها ... ألقـاب زور لفقـت بمحـال
تـركوا الشـرائع والحقـائق واقـتدوا ... بطـرائق الجهـال والضـلال
جعلـوا المـرا فـتحا وألفـاظ الخطـا ... شـطحا وصـالوا صـولة الأدلال
وترصـدوا أكـل الحـرام تخادعـاً ... كـتخادع المتلصـص المحـتال
فـاحذر همـو واحفـظ مـودة سـادة ... قـاموا بذكـر الله فـى الآصـال

القانـــتين المخبـــتين لـــربهم الـــناطقين بأصـــدق الأقـــوال

الـــتاركين حظوظهـــم ونفوســـهم المؤثـــرين بخـــالص الأمـــوال

مـــا شـأنهم فـــى شـأنهم كـذب ولا عمـــل لقصـــد ريـــا ولا لجـــدال

عملـوا بمـا عـلموا وجـادوا بـالذى وجـدوا ومـا يخلـوا بفضـل نـوال

وإذا بدلـــيل سمعـــت أنيـــنهم وحنيـــنهم بتضـــرع وســـؤال

وعـيونهم تجـرى بفـيض دموعهـم مـــثل انهمـــال الوابـــل الهطـــال

مـــتفاوتين بقـــربهم وبحـــبهم كـــتفاوت العمـــال فـــى الأعمـــال

فـــى اللـيل رهـبان لخدمـة ربهـم وتخـــالهم فـــى الجـــود كالأبطـــال

تـــاهوا عـــلى كـــل الملـــوك وإنهـــم لهـــم الملـــوك بعـــزة الإقـــبال

ولـــرب أشـــعث حقـــرته دلوقـــه ولـدى المليك هـو العزيـز الغـالى

خمـص الـبطون لمـا بهـم مـن فاقـة شـعث الـرؤوس لـروعة الأهـوال

لم تخـل أرض مـنهمو قـد حكمـوا ذات الـــيمين بهـــا وذات شمـــال

ســـوى لهـــم بـــين الـــثريا والـــثرى والفـرش والعـرش الرفـيع العـالى

لا يـــنظرون إلى ســـوى محـــبوبهم شـــغلا بـــه عـــن ســـائر الأشـــغال

فهمـــو إلـــيك وسـيلتى يـــا ســـيدى إلا وصـــلت حـــبالهم بحـــبالى

ثـم إن المصنف حث المريد على عدم تجاوز الكتاب والسنة فى الأوامر والنواهى بقوله ولا تعـد عـن حكمـى كـتاب وسنة أى لا تتجاوز ما حكم به الكتاب العزيز الذى هو القرآن، ولا مـا حكمـت بـه سـنة سـيد ولـد عدنان وهى أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته ويلحق بالكتاب والسـنة مـا اسـتنبط مـنهما لمـا ورد عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدسن المهديين من بعدى عضـوا عليها بالنواجذ وما استنبطه الأئمة المجتهدون من الكتاب والسنة يعطى حكمهما لأن الفرع تابع لأصله .

قال الإمام الغزالى: من حصل العلم ثم تصوف أفلح ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه .

وقال الجنيد: من لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد من اتبعه وكان يقول علمنا هذا مقتد بالكتاب والسنة .

قال ابن العربي: يريد أنه نتيجة العمل بهما وهما الشاهدان العدلان .

وقال الإمام الشعراني: في طبقاته نقلاً عن سيدي أبي الحسن الشاذلي إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغي العمل بالكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرض ذلك على الكتاب والسنة .

وقال في محل آخر نقلاً عن بعض العارفين: أصولنا سبعة أشياء التمسك بكتاب الله. والاقتداء بسنة رسوله ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب المعاصي والتوبة، وأداء الحقوق .

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي إذا أخذ العهد على فقير يقول له: يا فلان اسلك طريق النسك على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إلى بيت الله الحرام واتباع جميع الأوامر المشروعة والأخبار المرضية والاشتغال بطاعة الله تعالى قولاً وفعلاً واعتقاداً ولا تنظر يا ولدي إلى زخارف الدنيا ومطاياها وقماشها ورياشها وحظوظها واتبع نبيك محمداً ﷺ في أخلاقه فإن لم تستطع فاتبع خلق شيخك فإن نزلت عن ذلك هلكت مع الهالكين .

وقال سيدي سعيد المغربي: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ وإقامة المعاذير للخلق والمداومة على الأوراد، وترك أرتكاب الرخص والتأويلات وما ضل أحد عن هذا الطريق إلا انحط عن مقام الرجال أ هـ .

وإنما أطنبنا لك في هذا المقام، وسردنا عليك أقوال هؤلاء الأئمة الأعلام . لتنظر ما عليه أبناء الطريق اليوم . وتختار لنفسك من رزقه الله التوفيق فسلك سبيل القوم . وإلا فالزم العمل بالكتاب والسنة فانهما الحرز المصون، وغليك بخاصة نفسك ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون .

نصيحة العمروسى

وهذه بعض أبيات، من نصيحة صديقنا الشيخ محمد محرم العمروسى ترشدك إلى أكمل الحالات:

تمسك بحبل الشرع واضرب بسيفه ... رؤوس المعاصى واتخذ منه جوشنا

وبادر إلى إنكار ما كان خارجاً ... عن الحق وأحذر أن تكون مداهمنا

ولا تجعل الذكر النفيس وسيلة ... إلى عرض الدنيا المعرض للفنا

ولا تجعل المقصود منه تكسباً ... فتنحط قدراً من علاك وتفتنا

ولا تتخذه للرياسة سلماً ... فتغضب مربوباً ورباً مهيمناً

وتأتى ما تأتى رياء وسمعة ... وتتخذ الشرك الخفى تدينا

وليست بارخاء الشعور ولاية ... إذا كان منك القلب أسود عاطنا

وليست باظهار التباله خدعة ... إذا كان فيك الغش والمكر كامنا

وغير مفيد لبس تاج وخرقة ... إذا كان إبليس بجسمك ساكنا

فوحد هوى ليلى لتحظى بوصلها ... وترقى بلقياها وتظفر بالمنى

وما دمت مأسوراً لنفسك والهوى ... فما زلت فى سجن القطيعة قاطناً

فطلق هداك الله نفساً خؤنة ... طلاقاً صريحاً بالثلاثة بائناً

فما هى إلا ذات سم مخبا ... وأعدى عدو فى الحشا متوطناً

وإلا فدع دعوى الصلاح ولا تكن ... بغير فلاح للولاية معلناً

وخل مقامات الرجال لأهلها ... وعش خالياً فالحب راحته عنا

فيا فقراء الوقت ما لى أراكمو ... أتيتم أموراً لا تحل بشرعنا

فكم بدع أحدثتموها بجهلكم ... وصرتم عليها عاكفين ليومنا

جعلتم طريق القوم رقصاً وصيحة ... ومنكر أصوات يهيجا الغنا

ومـلأ بطـون مـن غـذا لم يفـد سـوى ... تجشـئكم يـا قـوم حـول بيوتـنا
وتحصـيل أرزاقٍ وضـرب عوائـد ... عـلى الـناس تأباهـا قواعـد ديـنـنا
وجرفـتموا التهـليل عـن وضعه الذى ... أتانـا بـه التـنزيل مـن عـند ربـنا
وطرقـتموا فـيه طـرائق لم يكـن ... علـيها رسـول الله والقـوم قبلـنا
أكـان رسـول الله يصـحب منشـداً ... يـنادى باعـلى الصـوت لـيلاً مدندنـاً
فمـا زدتمـوا المـردان إلا تمـرداً ... ومـا زدتمـوا الشـيبان إلا تشـيطنا
ومـا زدتمـوا الجهـال إلا جهالـة ... وبعـداً عـن الأخـرى وقـرباً إلى الدنـا
فكـن عالمـاً بالشـرع واعمـل بـه فمـن ... أراد طـريقاً دون عـلم فقـد جـنى
ولا ينـبغى لِلجـاهلين تصـدر ... ولا نشـر أعـلام الشـريعة بينـنا
ألم يعـلموا أن الطـريق كـناية ... عـن العمـل الجـارى عـلى وفق شرعنا
وذبـح الـنفوس الضـاريات بمديـة ... مـن الخلـف حـتى لا تمـيل إلى الحنا
وزهـد عـن الدنـيا وعـن شـهواتها ... وعمـن يـراها أكـبر الهـم مقتـنى
وجـوع وصـمت واعـتزال وفكـرة ... بهـا حضـرة الـرحمن تدخـل آمـنا
وذكـر بـنار الشـوق يحـرق خاطـراً ... ويغـرق فـى بحـر المدامـع أعيـنا
يكـون بجـد واجـتهاد وهمـة ... مشـمرة لا بالتكاسـل والونـا
وعـلم وحـلم واقـتداء بعـارف ... دسـائس للشـيطان والـنفس والدنـا
فمـن لم يصـاحب شـيخ صـدق ملقـن ... يكـون لَـه الشـيطان شـيخاً ملقـناً
فـأخلص هـداك الله تخلـص فهـذه ... طريقتـنا الغـراء دانـية الجـنى

مقـــام المراقبـــة

ثم قال المصنف ﷺ:

وَرَاقِبْ جَـنَابِ الحقِّ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَرَى لِنَفْسِــكَ فِعْــلاً مِــنْ فِعَــالٍ جَمِــيْلَةِ

هـذا إشـارة إلى مقـام المراقـبة الـتى هـى شرط فى طريق المقربين وهى دوام استحضار القلـب إحاطـة عـلم الله تعـالى بحـركاته وسـكناته فالمعـنى عليك بمراقبة مولاك فى حركاتك وسكناتك. ولحظاتك وخطواتك. واعلم أنه ناظر إليك. ومطلع عليك. ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴾(يونس:٦١) . ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾(طه:٧) . ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾(الحديد:٤) . بالعلم والإحاطة والاقتدار. والحفظ والرعاية والهداية لمنازل الأبرار . فاستح من مولاك أن يراك حيث نهاك، واعبده كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال ذو النون المصرى: علامة المراقبة إيثار ما آثر الله. وتعظيم ما عظم الله .

وقال ابن عطاء الله: أفضل الطاعات . مراقبة الحق على دوام الأوقات .

واعـلم: أن المراقبة لا تكون إلا بعد المحاسبة فإذا حاسب العبد نفسه على عدد الأنفاس. وتحـرز مـن كـيد الوسـواس الخـناس . صـحت له المراقبة فى عموم الأحوال، وعلم أن الله مطلع عليه فى جميع الأقوال والأفعال. وإلا كان بعيداً عن هذا المقام. ولم يصل إلى هذا المرام .

وقال بعض العارفين: من راقب الله فى خواطره عصمه فى جوارحه .

وقال بعضهم: إذا جلست للناس فكن واعظاً لنفسك وقلبك ولا يغرنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله تعالى يراقب باطنك .

وروى: أن الواعـظ إذا جلـس ليعظ الناس قال له كاتباه يا عبد الله عظ نفسك بما تعظ به أخاك. واستح من سيدك فإنه يراك .

وسـئل أبـو الحسـن بـن هـندى: مـتى يحفـظ الـراعى غنمه بعصى الرعاية عن مواقع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيباً .

وكـان: ابـن عمـر فـى سـفر فـرأى غلامـاً يـرعى غـنماً فأعجبه حسن رعايته لها فى الظاهـر. فـأراد أن يختبر باطنه. فقال له: تبيع من هذه الغنم واحدة؟ فقال: إنها ليست لى

فقال: قل لصاحبها إن الذئب أخذ منها واحدة. فقال الغلام: فأين الله . فأعجبه حسن مراقبته وصار يترنم بذلك ويقول فأين الله .

وكتب بعض الحكماء: إلى صديق له أما بعد فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك واستح من الله بقدر قربه منك وخفه بقدر قدرته عليك والسلام .

وقال بشر بن مروان: لأبى حازم ما المخرج مما نحن فيه فقال أن تنظر إلى ما عندك فلا تضعه إلا فى حقه وإلى ما ليس عندك فلا تأخذه إلا بحقه قال ومن يطيق هذا يا أبا حازم فقال من أجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس أجمعين .

وقيل لأبى حازم: ما مالك فقال شيئان الرضا عن الله والغنى عن الناس وقيل له انك لمسكين فقال كيف أكون مسكيناً ومولاى ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾(طه:٦) .

وقد قالوا: غفلة القلب عن الرب من أعظم الذنوب . وأكبر العيوب . ولو كانت آنا من الأنات . أو لمحة من اللمحات . فإنه كما تعاقب العوام على سيئاتهم . تعاقب الخواص على غفلاتهم. فاجتنب الاختلاط بأصحاب الغفلة على كل حال . إن أردت أن تكون من زمرة أهل الكمال:

فنحن فى سفر نمضى إلى حفر ... وكل آت لنا قرب من العدم

والموت يشملنا والحشر يجمعنا ... وبالتقى الفخر لا بالمال والحشم

وإنما قال المصنف من غير أن ترى لنفسك فعلاً لأن الأفعال كلها فى الحقيقة لله قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾(الصافات:٩٦) . فلا ينبغى للمريد أن يرى لنفسه فعلاً جميلاً بل يتهمها بالتقصير فى الطاعة لأن الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة، كما أن عدم الرضا عنها أصل جميع الصفات الممدوحة .

وقد كان السرى السقطى يقول: كل من ظن من نفسه أنه محسن فهو ممن زين له سوء عمله . ومن لم يظن من نفسه أنه هالك فهو هالك .

وكان سيدى على الخواص يقول لتلميذه الإمام الشعرانى، إن لم تخف أن يهلكك الله تعالى بالنقص الذى فى أعمالك الصالحة عندك فضلاً عن معاصيك فأنت هالك . فتأمل ذلك يا أخى وتيقن أن الناجى من اتهم نفسه بالتقصير، وباعها فى مرضاة العليم الخبير .

وقد حكي: أن رجلاً قال لأبي يزيد أن نفسي تطالبني فقال أو لك نفس قال نعم قال أن المؤمن بلا نفس فإن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾(التوبة:١١١) . فمن باع نفسه فكيف يكون له نفس. وإنما خص المصنف الأفعال الجميلة بعدم نسبتها للنفس لأنها التي بها الزهو والعجب فإذا نسبها للنفس حصل لها العجب المؤدى إلى الهلاك. وأما الأفعال الذميمة فينبغي نسبتها للنفس تأدباً قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾(النساء:٧٩) . أى إيجاداً وخلقاً ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾(النساء:٧٩) . أى كسباً لا خلقاً. وإن كان الكل من الله خلقاً . بدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾(النساء:٧٨). وانظر إلى أدب الخضر ﷺ حيث قال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾(الكهف:٨٢) . وقال: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾(الكهف:٧٩) ولم يقل فأراد أن يعيبها وكذلك إبراهيم الخليل ﷺ حيث قال: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾(الشعراء:٧٨) . ثم قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾(الشعراء:٨٠) . ولم يقل أمرضني بل نسب المرض لنفسه تأدباً .

وقد كان بعض العارفين لا يعيب فعل أحد لمشاهدته أن كل الأفعال لله تعالى .

وما ألطف قول بعضهم:

إذا ما رأيت الله في الكل فاعلاً رأيت جميع الكائنات ملاحاً

وإن لم ترى إلا مظاهر صنعه حجبت فصيرت الملاح قباحاً

ثم قال المصنف ﷺ:

وَجَاهِدْ تُشَاهِدْ كُلَّ مَعْنًى مُحَجَّبٍ عَنِ العَقْلِ والأَبْصَارِ مِنْ غَيْرِ رِيبَةِ

أى ومن الأصول أن تجاهد نفسك الأمارة بالسوء فإن جهادها هو الجهاد الأكبر ومجاهدتها أشد من مجاهدة الشيطان فإنها العدو الملازم، واللص إذا كان من أهل البيت تضيع فيه الحيل بخلاف الشيطان فإنه خارج عن البدن ليمكن منعه بتضييق مجاريه بالجوع وأيضاً الشيطان عدو مبغوض بخلاف النفس فإنها عدو محبوب والمحب يعمى عن عيون محبوبه .

وقد ورد: حبك الشيء يعمي ويصم . فيلزمك أيها المريد أن تتبصر في عيوبها وتحملها على حسن القيام . بالتكاليف الشاقة التي أمر بها الشارع ﷺ . فإن بعض العارفين قال: ما أخذنا التصوف من القيل والقال . ولكن من الجوع وترك الدنيا وقطع المالوفات . وإمتثال الأوامر وإحتناب المنهيات .

واعلم: أن أصل المجاهدة وملاكها فطم النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات، ولا أقول لك اقلع شجرة الطبع . من أرض الوضع . إذا ليس في الإمكان . قلب طبع الإنسان . وإنما أقول دم على المجاهدة . تحظ بالمساعدة . وكلما نبت عرق من عروق الهوى . فاقلعه بعلاج التقوى، واستعمل الصبر على المجاهدات، وتدبر قول بعض السادات:

الصبر كالصبر مر في مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل

وقال آخر:

وقل من جد في أمر يحاوله واستعمل الصبر إلا فاز بالظفر

(وقد كانت): بعض العابدات الصابرات إذا مات لها ولد تضع رأسه على حجرها وتقول والله لتقدمك أمامي خير عندي من تأخرك بعدي ولصبري عليك أولى من جزعي عليك ولئن كان فراقك حسرة فإن في توقع أجرك الخيرة ثم تنشد قول عمرو بن معدى كرب:

وإنا لقوم لا تفيض دموعنا على هالك منا وإن قصم الظهر

فلا تتأخر أيها الرجل الكامل عن الوصول إلى هذه الدرجة التي أحق بها الرجال . واستعمل الصبر في مجاهدتك لنفسك حتى تبلغ الآمال . واحذر في حال المجاهدة أن تخدعك بتسويفاتها وإظهار شفقتها عليك . فإنه قد ورد أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك . ففي اعزازها بعدك عن مقام تبلغ فيه هنالك مناك. وفي اذلالها عزك وقربك من مواهب مولاك. ومن ثم قال ﷺ من أعز نفسه فقد أذل دينه ومن أذل نفسه فقد أعز دينه .

وقال إبراهيم بن أدهم لرجل في الطواف: اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات .

أولاها: أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة .
والثانية: أن تغلق باب العز وتفتح باب الذل .
والثالثة: أن تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد .
والرابعة: أن تغلق باب النوم وتفتح باب السهر .
والخامسة: أن تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر .
والسادسة: أن تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت .

ومن كلام ابن العربى فى الفتوحات:

سبح إلهك بكرة وأصيلاً فالنفل يرجع بالهدى اكليلاً
جاهد هواك ولا تكن ذا فترة فيه وكن للنائبات خليلاً
إن المجاهد لا يزال مكابداً يهوى الخطوب ويعشق النعليلاً
لا تركنن إلى البطالة إنها تردى وكن للحادثات وصولاً

ومن النصائح قول بعضهم:

حتام أنت بما يلهيك مشتغل عن نجح قصدك من خمر الهوى ثمل
ترضى من الدهر بالعيش الذميم إلى كم ذا التوانى وكم يغرى بك الأمل
وتدعى بطريق القوم معرفة وأنت منقطع والقوم قد وصلوا
فانهض إلى ذروة العلياء مبتدراً عزماً الترقى مكاناً دونه زحل
فإن ظفرت فقد أعطيت مكرمة بقاؤها ببقاء الله متصل
وإن قضيت بهم وجداً فأحسن ما يقال عنك قضى من وجده الرجل

وقال أبو الفتح البستى:

دع التكاسل فى الخيرات تطلبها فليس يسعد بالخيرات كسلان
لا ظل للمرء أحرى من تقى ونهى وإن أظلته أوراق وأغصان

وقال أبو بكر الخوارزمى:

لا تصحب الكسلان فى حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد إلى الجليد سريعة والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

قال بعضهم: رأيت أبا ميسرة العابد وقد بدت أضلاعه من الاجتهاد فى الطاعة فقلت يرحمك الله إن رحمة الله واسعة فغضب وقال هل رأيت ما يدل على القنوط ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(الأعراف:٥٦) . فأبكانى والله كلامه. ولينظر العاقل إلى حال الرسل والأبدال والأولياء واجتهادهم فى الطاعات وصرفهم العمر فى العبادات لا يفترون عنها ليلاً

ولا نهـاراً أما كان لهم حسن ظن بالله بلى والله إنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأحسن ظناً بجـوده مـن كـل ظـان ولكن علموا أن ذلك بدون الجد والاجتهاد أمنية محضة وغرور باطل، فأجهدوا أنفسهم في العبادة والطاعة . ليتحقق لهم الرجاء الذى هو من أحسن بضاعة .

وفـى الحديـث القدسـى: مـا أقـل حـياء مـن يطمـع فى جنتى بغير عمل كيف أجود برحمـتى عـلى من بخل بطاعتى . ولذا قال المصنف: وجاهد تشاهد كل معنى محجب يعنى أن مـن جـاهد نفسـه يـرى تجلـياً رحمانـياً محجـباً عن العقل والأبصار . يكون به المريد فى أعلى مقام القرب والافتخار. وقوله من غير ريبة أى من غير شك فى ذلك .

وقـد سئل: بعضهم عن المشاهدة فقال كشف الحجاب بين القلب والرب والمراد كشف الحجاب عن العبد فإن الرب لا يحجبه شئ .

وقال الجنيد: المشاهدة إدراك الغيوب . بأنوار الأسرار عند صفاء القلوب .

قـالوا: ولم يـزد فـى بـيان تحقيق المشاهدة أحد على قول عمرو بن عثمان المالكى هى تـوالى أنـوار التجلى على القلب من غير أن يتخللها ستر ولا انقطاع كما لو قدر اتصال البروق فى الليلة الظلماء. وأنشدوا:

لـيـــلى بوجهـــك مشــــرق وظلامـــه فــى الـــناس ســـارى
فالـــناس فـــى ســـدف الظـــلا م ونحـــن فـــى ضـــوء الـــنهار

وقـال الشبلى: استنار قلبى يوماً فشاهدت ملكوت السموات والأرض ثم وقعت منى هفوة فحجبـت عـن شهود ذلك فتعجبت كيف حجبنى هذا الأمر الصغير عن درك الأمر الكبير فقيل لى البصـيرة كالبصر فكما أنه إذا حل أدنى شئ في البصر حجبه عن النظر فكذلك البصيرة . ثم شرع المصـنف يـبين حقـيقة مـن يحسـن السـلوك عـلى يديه . من شيخ عارف بالطريقة يكون خبيراً بما للمريد وما عليه . ليحصل به الهداية والإرشاد . فقال ﷺ موفياً بالمراد:

وَلاَ بُـدَّ مِــنْ فِكْــرٍ وذِكْــرٍ وَوِجْهَــةٍ عَــلى يَــدِ شَــيْخٍ عَــارِفٍ بالطَّــرِيقَةِ

يعـنى أنه يشترط أن يتفكر المريد فى مصنوعات الله تعالى ليستدل بذلك على عجيب قدرته لما فى الحديث تفكروا فى آلاء الله ولا تتفكروا فى ذاته فأنه لا تحيط به الفكرة .

وما ألطف قول بعضهم:

كل ما ترتقى إليه بوهم من جلال وقدرة وسناء
فالذى أبدع البرية أعلى منه سبحان مبدع الأشياء

وكذلك يتفكر فى أحوال المعاد . ليجتهد فى تقديم ما يحصل له به الإسعاد والتفكر هو تصرف القلب فى معانى الأشياء لدرك المطلوب ويقال هو سراج القلب يرى به خيره وشره » ومنافعه ومضاره . وكل قلب لا تفكر فيه فهو فى ظلمات يتخبط ويقال هو مصباح الاعتبار . ومفتاح الاختبار . ويقال هو حديقة أشجار الحقائق . وحدقة أنوار الدقائق . ويقال هو مزرعة الحقيقة . ومشرعة الشريعة . ويقال هو شبكة طائر الحكمة:

فكن متفكراً فى كل أمر لتحظى بالمسرة فى المآل

ولا بد أيضاً من ذكر باللسان والقلب وهو من اللوازم المعبر عنه بالسراج وناهيك قوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾(البقرة:١٥٢) . وقوله سبحانه: ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾(الرعد:٢٨) .

وفى الحديث: {إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قيل وما رياض الجنة يا رسول الله قال حلق الذكر} . وقال ﷺ {لذكر الله ﷻ بالغداة والعشى أفضل من حطم السيوف فى سبيل الله ومن إعطاء المال سخاً} . وقال ﷺ {ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إعطاء الورق والذهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قلنا بلى يا رسول الله قال ذكر الله ﷻ} وقال ﷺ {أحب الأعمال إلى الله أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله} .

وفى الحديث القدسى: (من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين) .

وروى: أن الله ﷻ قال (يا عبدى اذكرني بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما) .

فالذكر أفضل باب أنت داخله لله فاجعل له الأنفاس حراساً

وكان سيدى أبو العشائر يقول: الأصول التى يبنى عليها المريد أمره أربعة اشتغال اللسان مع حضور القلب بذكر الله. وجبر القلب على مراقبته. ومخالفة النفس والهوى من

أجله. وتصفية اللقمة لعبوديته، وهى القطب وبها تزكو الجوارح ويصفو القلب.

واعلم: أن حقيقة الذكر دوام الحضور. من غير غفلة وقصور.

ولله در الشبلى حيث قال:

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة ... وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى

وكدت بلا وجد أموت من الهوى ... وهان على القلب بالخفقان

فلما أرانى الوجد أنك حاضرى ... شهدتك موجوداً بكل مكان

فخاطبت موجوداً بغير تكلم ... ولاحظت معلوماً بكل عيان

ويكفيك فى خصائص أهل الذكر أنهم القوم الذين لا يشقى لهم جليس لما فى الحديث: (أن لله ملائكة سياحين فى الأرض يلتمسون مجالس الذكر فإذا رأو مجلس الذكر نادى بعضهم بعضاً هلموا هذه حاجتكم فتحفهم الملائكة بأجنحتهم إلى عنان السماء ثم يقول الله تعالى لملائكته اشهدكم يا ملائكتى أنى غفرت لهم فتقول الملائكة إلهنا إن فيهم فلاناً جلس لغير حاجة الذكر فيقول الله تعالى هم القوم لا يشقى لهم جليس).

وفى رواية: لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده.

قال العلامة الأمير: ينبغى للذاكر بلا إله إلا الله أن يلاحظ كونها آية من كتاب الله ليكثر له الثواب وإن لم يلاحظ المعنى أ هـ.

ومعناها: لا معبود بحق إلا الله.

ثم اعلم: أن الذكر عند العارفين لغير أرباب الشهود لما فى الحديث القدسى من ذكر لم يشهد ومن شهد لم يذكر أى من كان يرى له وجوداً يذكرنى به فإنه محجوب والمحجوب لا يشهد ومن شهد أن الوجود لى ولا وجود لغيرى علم أنى الذاكر والمذكور فلم يذكر وبهذا يتضح قول ابن العربى:

بذكر الله تزداد الذنوب ... وتنعكس البصائر والقلوب

وترك الذكر أفضل من كل شئ ... فشمس الذات ليس لها غروب

وهذا من باب حسنات الأبرار سيآت المقربين وقليل أهل هذا المقام الذين قال قائلهم:

الله يعـــلم أنـــى لســـت أذكـــره وكـــيف أذكـــره إذ لســـت أنســـاه

وقولـه: ووجهـة أى ولابد أيضاً للمريد من وجهة أى حسن توجه على يد شيخ وهو من اللـوازم المعبر عنه بالدليل ومن لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه. لأن النفس التى مريدة الشيطان كثيرة التلبيس. عظيمة التدليس، توهم العبد أنـه صادق وهو كاذب وأنه موف بعهـده وهـو ناكث. وأنه زاهد وهو راغب. وإنما يعرف ذلك من نفسه بتنبيه شيخ يلقى إليه قياده. أو فقيه يستفتيه فى سائر أموره، أو صاحب ناصح. فالشيخ أول دليل، وعليه عند القوم التعويل . فمن استضاء به اهتدى . ومن ضل عنه ارتدى . على حد ما قيل:

مـن لم يكـن خلـف الدلـيل مسـيره كـــثرت علـــيه طـــرائق الأوهـــام

وقال آخر:

لا تسـلكن طـــريقاً لســت تعــرفها بـــلا دلـــيل فـتهوى فـــى مهاويهـــا

فـلا بـد لـلمريد مـن شـيخ كـامل يقتدى بآثاره، ويهتدى بهديه وأنواره . فإنه واسطة الخير . والوسيلة إلى المنع من الضير، وناهيك فى اكتساب هذه الفضيلة . قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾(المائدة:٣٥).ولله در من قال:

وغـــنم مـــريد فـــى انقـــياد لكـــامل لـــه خـــبرة بالعـــلم والوقـــت والحـــال

هـــو الكـــنز والإكســـير والكيمـــيا لمـــن أراد وصـــولاً أو بغـــى نـــيل آمـــال

واعـلم: أنـه لا يصـلح للإرشـاد . إلا مـن كـان على علم يهدى به العباد . فإذا مرض مـريده بسـبب شبهة فى علم التوحيد داواه . أو تحير فى مسئلة من مسائل الفقه أفتاه . مع قـناعة نورثـه الغـنى عـن الـناس، وخـوف يحجـزه عـن المعاصـى والأدناس، وملازمة للعمل بالكتاب والسنة . فمن اجتمعت فيه هذه المزايا كملت به على المريد المنة، وقد شرع المصنف فـى أوصـافه وبـدأ مـنها بقولـه عارف بالطريقة أى أن يكون كاملاً فى العلم والعمل وقد ذكر بعضهم الأوصاف التى ينبغى أن تكون فى الشيخ فقال:

إذا لم يكــن فــى الشــيخ خمــس فوائــد وإلا فدجـــال يقـــود إلى الجهـــل

بصـــير بأحكـــام الشـــريعة عـــارف ويبحـث فـى عـلم الحقـيقة عـن أصـل

يبادر للوراد بالبشر والقرى ويخضع للمسكين فى القول والفعل

فهذا هو الشيخ المعظم قدره جدير بتمييز الحرام من الحل

وقال سيدى على الخواص: لا يكون الرجل معدوداً عندنا من أهل الطريق حتى يكون عالماً بالشريعة المطهرة مجملها ومفصلها ناسخها ومنسوخها خاصها وعامها ومن جهل حكماً واحداً منها سقط عن درجة الرجال .

قال الإمام الشعرانى: فقلت له يا سيدى إن غالب مسلكى هذا الزمان على هذا ساقطون عن درجة الرجال فقال نعم إن هؤلاء يرشدون الناس إلى بعض أمور دينهم، وأما المسلك فهو من لو انفرد فى جميع الوجود لكفى الناس كلهم من العلم فى سائر ما يطلبونه أ هـ .

قلت: وهذا جوهر نفيس لا يزال عزيز الوجود . يكاد لعزته أن يكون فى حكم المفقود . كما قال أبو مدين الغوث:

واعلم بأن طريق القوم دارسة وحال من يدعيها اليوم كيف ترى

ثم تمنى رؤية القوم، الذين ليسوا على ما عليه أهل اليوم . فقال:

متى أراهم وأنى لى برؤيتهم أو تسمع الأذن منى عنهمو خبراً

وكان سيد هذه الطائفة الإمام الجنيد يقول: لا يستحق الرجل أن يكون شيخاً حتى يأخذ حظاً من كل علم شرعي وأن يتورع عن جميع المحارم وأن يزهد فى الدنيا وأن لا يشرع فى مداواة غيره إلا بعد فراغه من مداواة نفسه. ثم قال فإياك ومتابعة من لم يكن على هذه الأوصاف فإنه من جنود الشيطان واعتبر أقواله وأفعاله وأحواله وزنها بميزان الشريعة والطريقة فإن رأيت شيئاً مخالفاً لهما فرده فإن كان صاحب حال صحيح ورددته فما عليك من رده بحكم الشرع ولا تتخذه شيخاً ومرشداً .

وقال أبو يزيد: و نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة وذلك لأن الكرامة ما كانت عوناً لصاحبها على ما يقربه لمولاه، ويقوى يقينه ويمكنه من محبته ورضاه . فإذا جرى الخارق للعادة على يد العبد ولم تشهد له الشريعة بالاستقامة فهو ممكور به مخدوع. وما ألطف ما قاله بعض العارفين من قصيدة جامعة:

وللشيخ آيات إذا لم تكن له
فما هو إلا فى ليالى الهوى يسرى

إذا لم يكن علم لديه بظاهر
ولا باطن فاضرب به لحج البحر

وإن كان إلا أنه غير جامع
لوصفيهما جمعاً على أكمل الأمر

فأقرب أحوال العليل إلى الردى
إذا لم يكن منها الطبيب على خبر

وآيته أن لا يميل إلى هوى
فدنياه فى طى وأخراه فى نشر

وأن كان ذا جمع لأكل طعامه
مريداً فلا تصحبه يوماً من الدهر

ولا تسألن عنه سوى ذى بصيرة
خلى من الأهواء ليس بمغتر

ولا تقدمن قبل قبل اعتقادك أنه
مرب ولا أولى بها منه فى العصر

فإن رقيب الالتفات لغيره
بقول لمحبوب السراية لا تسرى

ولا تعترض يوماً عليه فإنه
كفيل بتشتيت المريد على هجر

ومن يعترض والعلم عنه بمعزل
يرى النقص فى عين الكمال ولا يدرى

ومن لم يوافق شيخه فى اعتقاده
يظل من لإنكار فى لهب الجمر

فذو العقل لا يرضى سواه وإن نأى
عن الحق نأاى الليل عن واضح الفجر

ولا تعرفن فى حضرة الشيخ غيره
ولا تملأن عيناً من النظر الشرر

ولا تنطقن يوماً لديه فإن دعا
إليه فلا تعدل عن الكلم النزر

ولا ترفعن بالضحك صوتك عنده
فلا قبح إلا دون ذلك فاستقر

ولا تقعدن قدامه متربعاً
ولا بادياً رجلاً فبادر إلى الستر

ولا باسطاً سجادة بحضوره
فلا قصد إلا السعى للخادم البر

وسجادة الصوفى بيت سكونه
ولا وكر إلا أن يطير عن الوكر

وما دمت لم تفطم فلا فرجية
عليك ولا تلف عليها بمستجر

ولا ترين فى الأرض دونك مؤمناً
ولا كافراً حتى تغيب فى القبر

فــإن خــتام الأمــر عــنك مغيــب ومـن لـيس ذا خسـر يخـاف من المكر

ما يجب على المريد

تنبـيه: يجـب على المريد قبل الاشتغال بالذكر والرياضة أن يحصل من علم التوحيد مـا يصح به اعتقاده على مذهب أهل السنة والجماعة، وما يحترز به عن شبه المبتدعة، فإن القلب ما دام مكدراً بظلمة البدعة الاعتقادية لا يستنير بأنوار الطاعة .

وهـذه عقـيدة أكابـر أهـل السـنة، فيجـب عـلى كـل مسـلم الأخذ بها وهى أن يعتقد اعـتقاداً جازمـاً أن الله تعـالى إلـه واحـد مـنزه عن الشريك والمعين والصاحبة والولد، موجود بذاته من غير افتتاح لوجوده، ولا نهاية لبقائه، مستغن عن كل ما سواه، ومفتقر إليه كل ما عـداه. قـائم بنفسـه لـيس بجوهـر متحـيز، فيحـتاج إلى مكان. ولا بعرض، فيستحيل عليه الـبقاء. ولا يجسـم فيكون له الجـهة والتلقاء . مقدس عن الجهات والأقطار . مرئى للمؤمنين بـالقلوب فـى الدنـيا وفـى الآخـرة بالأبصار . استوى على العرش كما قال وعلى المعنى الذى أراد كمـا أن العـرش ومـا حـواه بـه اسـتوى له الآخرة والأولى لا يؤده حفظ المخلوقات . وهو موجـود بعلمه فى جميع الجهات . مقدس عن القبل والبعد فإن ذلك من صفات الزمان الذى أبدعـه فهـو سـبحانه لا يحده زمان ولا يقله مكان . بل كان ولا زمان وهو الآن على ما عليه كـان . السـموات والأرض ومـن فـيهن جميعاً منه . خلق اللوح والقلم وأجراه كاتباً بعلمه فى خلقـه فـلا تـتحرك ذرة إلا إلـيه وعنه . أوجد الكل من غير حاجة إليه، ولا موجب أوجب ذلـك عليه، إلا أن علمه قد سبق . فذلك خلق من خلق . لم تتعلق قدرته إلا بما أراد كما أنه لم يرد إلا ما علم ﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾(الطلاق:١٢). ﴿ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾(الجن:٢٨) . ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾(طه:٧) . ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾(الملك:١٤) علم الأشـياء قـبل وجودهـا ثـم أوجدهـا عـلى حد ما علمها مريد لجميع الكائنات . فى الأرضين والسـموات . فمـا فـى الوجود طاعة ولا عصيان . ولا ربح ولا خسران . ولا حياة ولا موت . ولا حصـول ولا فـوت. ولا متحرك ولا ساكن. ولا ظاهر ولا باطن . إلا وهو مراد للحق جل وعـلا لا معقب لحكمه ولا راد لأمره يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويـذل مـن يشـاء أخـرج العـالم فـريقين. وأوجـد لهم منزلتين . فقال هؤلاء للجنة ولا أبالى . وهـؤلاء للـنار ولا أبالى . لم يتصرف فى ملك غيره فلا ينسب إليه الظلم والحيف، ولا يتوجه

إليه من الغير سؤال بلم أو كيف . فهو سبحانه كما قال فى كتابه المكنون ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾(الأنبياء:٢٣) . فإن رأيت من لم يخضع لهذا الاعتقاد من الضالين المضلين . فاصرف النظر عنهم و ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(الأنعام:١٤٩) . يسمع دبيب النملة على الصخرة الصماء، ويبصر السواد فى الظلماء . متكلم لا عن صمت تقدم، ولا عن سكوت متوهم، بكلام قديم أزلى منزه عن الحروف والأصوات . وعن جميع آلات النطق واللهات . كما أن سمعه من غير أصمخة ولا آذان، وبصره من غير حدقة ولا أجفان . وعلمه من غير نظر ولا برهان . وحياته من غير بخار حدث عن امتزاج الأركان . وبالجملة فهو ﷻ متصف بكل كمال . ومنزه عن كل نقص إذ هو الكبير المتعال . فلا يشبه شيئاً من الحوادث بل كل ما خطر ببالك . فالله بخلاف ذلك، وكذلك يجب اعتقاد أن لله تعالى أنبياء ورسلاً مبشرين ومنذرين، وأن سيدنا محمداً رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين بعث إلى كافة الخلق أجمعين، وقد خاطبه الله بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۝ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾(الأحزاب:٤٥-٤٦) . فبلغ جميع ما أنزله الله إليه، وأدى الأمانة ونصح الخليقة صلوات الله وسلامه عليه، ويجب اعتقاد أن كل ما جاء به النبى ﷺ حق، ومن جملة ما جاء به أن الموت حق، وأن سؤال القبر حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور، وأن العرض على الله حق، وأن الميزان حق، وأن الحوض حق، وأن الصراط حق، وأن تطاير الصحف حق، وأن الجنة والنار حق، وأن فريقاً فى الجنة، وفريقاً فى السعير، وأن شفاعة الأنبياء والملائكة والعلماء والشهداء وصالحى المؤمنين حق، وأن كل ما جاءت به الأنبياء عن الله حق . فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، وهى بحمد الله عقيدتنا إلى قيام الساعة . أسأل الله أن يثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم فى الدار الفاخرة، وكذا يجب على المريد أن يحصل من علم الفقه ما تصح به أعماله على وفق الشريعة المطهرة وإلا كانت جميع أعماله باطلة فيصير تعبه هباء منثوراً.

تتمــة: من شروط الذكر النافع المفيد أن يأخذه المريد بالتلقين من أهل الذكر كما أخذته الصحابة ﷺ من رسول الله ﷺ.

فقد روى: عن شداد بن أوس أنه قال كنا عند رسول الله ﷺ فقال (هل فيكم غريب يعنى من أهل الكتاب قلنا لا يا رسول الله فأمر بغلق الباب وقال ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله فرفعنا أيدينا وقلنا لا إله إلا الله ثم قال رسول الله ﷺ أبشروا فإن الله قد غفر لكم) .

وأما تلقين الذكر فرادى فروى أن علياً كرم الله وجهه (قال يا رسول الله دلنى على أقرب الطرق إلى الله وأسهلهما عبادة فقال ﷺ أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله ثم قال على كيف أذكر يا رسول الله فقال غمض عينيك وأسمع منى ثلاث مرات ثم قل أنت ثلاث مرات وأنا أسمع فقال ﷺ لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضاً عينيه رافعاً صوته وعلى يسمع ثم قال على لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضاً عينيه رافعاً صوته والنبى ﷺ يسمع) .

قلت: وهذا أصل سند القوم فى التلقين ثم بعد ذلك يأمر الشيخ المريد بما يليق به من الأوراد ومن آداب الذاكر أن يكون على طهارة كاملة وأن يكون حاضر القلب مستقبل القبلة غاضاً بصره مستحضراً لشيخه فإنه إذا أستحضر شيخه فى حال الذكر ولاحظ استمداده منه تتحرك سلسلة الطريق إلى الحضرة النبوية . فيكتسب عند ذلك أعظم مزية بتوارد الإمدادات المصطفوية . وبقية الآداب مذكورة فى المطولات . فعليك بمطالعة كتب الأكابر السادات، وينبغى للمريد أن يلازم ما يعينه له أستاذه من الأذكار خصوصاً لا إله إلا الله (ما فى الحديث القدسى): (لا إله إلا الله حصنى فمن دخل حصنى أمن عذابى) .

وفى الحديث: {إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل وما جلاؤها يا رسول الله قال ذكر الله ﷻ} .

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ {لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه} .

واعلم: أن الذكر ثقيل على الذات الخبيثة لأنها سقيت بالظلام وفى الذكر نور وهى لا تقبل ما لا يوافق طبعها إلا بالمجاهدة فتدبر ذلك والله يتولى هداك وهو يتولى الصالحين .

(وصف الشيخ العارف)

ثم وصف المصنف ﷺ الشيخ العارف بقوله:

مَحَا لِحُظُوظِ النَّفْسِ بالعِلْمِ والتُّقَى نَصُوحٌ كَرِيمٌ بالْعُلُومِ السَّنِيَّةِ

أى ومن أوصاف الشيخ المرشد أن يكون قد محا لحظوظ النفس الأمارة بالسوء من شهواتها القتالة بالعلم الذى أفاضه الله عليه. والتقى الذى قربه به إليه . فإن النفس طبعت على مخالفة العقل و موافقة الهوى. وحب الشر ومجانبة التقوى . فإذا عاملها الإنسان بمخالفة هواها . رجعت إلى طاعة من ألهمها فجورها وتقواها . ومن أوصاف الشيخ أيضاً أنه نصوح أى كثير النصح لما فى الحديث الدين النصيحة قلنا لمن قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وقد أشبعنا الكلام على هذا الحديث فى شرح الأربعين النووية فأنظره إن شئت .

ومن كلام سيدى على الخواص: ألزموا النصح والاستشارة لإخوانكم فانهما بمنزلة تنبيه النائم أو الغافل وقوله كريم بالعلوم السنية أى أنه يبث العلوم الشريفة التى افاضها الله عليه فيبقيها على من رآه أهلاً لها وإن لم يسألها عنها فإن الكريم هو الذى يبادر بالنوال قبل السؤال وأما من لم يكن أهلاً لها . فليس له حظ فى نوالها . كما قال الإمام الشافعى ﷺ:

سأكتم علمى عن ذوى الجهل طاقتى ولا أنثر الدر النفيس على الرمم

فإن يسر الله الكريم بفضله وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم

بثثت مفيداً واستفدت ودادهم وإلا فمخبوء لدى ومكتتم

فمن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

ثم قال المصنف ﷺ:

تَجلَّى لَهُ الرَّغْبُوتُ والْهُوتُ فى السُّرَى وَنَاسُوتُهُ بالسِّرِّ حَجَّت وَلَبَّتِ

قال السيد الشريف فى تعريفاته التجلى هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب وإنما جميع الغيوب باعتبار تعدد موارد التجلى فإن لكل اسم إلهى بحسب حيطته ووجوهه تجليات متنوعة. وقال فى موضع آخر التجلى الذاتى ما يكون مبدؤه الذات من غير اعتبار صفة من الصفات معها وإن كان لا يحصل ذلك إلا بواسطة الأسماء والصفات إذ لا يتجلى الحق من حيث ذاته على الموجودات إلا من وراء حجاب من الحجب الاسمائية والتجلى

الصفاتي ما يكون مبدؤه صفة من الصفات من حيث تعينها وامتيازها عن الذات أ هـ .

فالمعنى هنا: أنه كشف الحجاب عن قلب هذا العارف فشاهد تجلى الرغبوت بفتح الغين المعجمة لكنه فى البيت مسكن لأجل الوزن وهو مبالغة فى الرغبة أى المرغوب فيه كثيراً وهو المراد بقول ابن العربى فى قصيدته:

تجلى لى النور الأعم بكنهه فشاهدت ذاك النور فى كل صورة

ومن حل بالبيت المعظم قدره فقبلته صارت إلى كل وجهة

والهوت المراد به اللاهوت وهو سر الألوهية .

قال الواحدى: يقولون الله لاهوت وللإنسان ناسوت . ويقال: اللاهوت الروحانية والناسوت البشرية كما قال ابن الفارض:

ولم أله باللاهوت عن حكم مظهرى ولم أنس بالناسوت مظهر حكمتى

ومراده أن المقام الذى تغلب عليه فيه الروحانية . لا يلهيه عن وظائف العبودية . كما أنه لم ينس بناسوته أى بشريته مظهر الحكمة فى إيجاده المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾(الذاريات:٥٦) .

والتعبير باللاهوت والناسوت لغة عبرانية وقد كفرت النصارى بقولهم إن اللاهوت وهو الله تعالى تلبس بالناسوت أى جسد عيسى ودخل فيه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقوله: فى السرى بضم السين المهملة وفتح الراء أى فى مقام السير والسفر الذى قطع فيه مفاوز البعد عن الله. وتقرب إليه بما يحبه ويرضاه . فتحقق فى حضرة الإسعاد بأنواع الكمال. واكتسى بعد التحلل من حرمات الإحرام بحلل الجمال، ولذا قال: وناسوته بالسر حجت ولبت أى وقد حجت ذاته بمعنى قصدت جناب الحق، ولبت: أى أجابت داعى القرب إليه بسبب ما أودع فيها من السر .

قال بعض أهل الإشارات: الحج حجان حج جسمانى، وحج روحانى:

فالحج الجسمانى: إلى كعبة المبانى .

والحج الروحانى: إلى حضرة التدانى . فمن حج إلى كعبة المبانى خصصته بغفرانى، ومن حج إلى حضرة التدانى كشفت عنه الحجب حتى يرانى، وجعلته من ندمائى، وخلعت

عليه خلعة رضوانى . جعلنا الله من جملة الأحباب . إنه حليم كريم عظيم وهاب .

وفى تعريفات السيد الشريف ما نصه: السفر عند أهل الحقيقة عبارة عن سير القلب عند أخذه فى التوجه إلى الحق بالذكر، والأسفار أربعة:

السفر الأول هو: رفع حجب الكثرة عن وجه الوحدة وهو السير إلى الله من منازل النفس بإزالة التعشق من المظاهر والأغيار إلى أن يصل العبد إلى الأفق المبين وهو نهاية مقام القلب .

السفر الثانى هو: رفع حجاب الوحدة عن وجود الكثرة العلمية الباطنة وهو السير فى الله بالاتصاف بصفاته والتحقق بأسمائه وهو السير فى الحق بالحق إلى الأفق الأعلى وهو نهاية حضرة الواحدية .

السفر الثالث هو: زوال التقيد بالضدين الظاهر والباطن بالحصول فى أحدية عين الجمع وهو الترقى إلى عين الجمع والحضرة الأحدية وهو مقام قاب قوسين ما بقيت الاثنينية فإذا ارتفعت فهو مقام أو أدنى وهو نهاية الولاية .

السفر الرابع: عند الرجوع من الحق إلى الخلق وهو أحدية الجمع والفرق بشهود اندراج الحق فى الخلق واضمحلال الخلق فى الحق حتى يرى عين الوحدة فى صورة الكثرة وصورة الكثرة فى عين الوحدة وهو السير بالله عن الله للتكميل وهو مقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع أ هـ .

ثم قال المصنف ﷺ:

وَقَدْ جَالَ فى مَلْكُوتِ كلُّ خَاصِلٍ كَذَا رَهَبُوتُ الغَيْبِ مِنْ غَيرِ شُبْهَةِ

يقال جال فى البلاد طاف وكل بالرفع على الفاعلية والملكوت بفتح الميم واللام لكن اللام فى البيت مسكنة لأجل الوزن وهو عالم الغيب أعنى عالم الأرواح والنفوس كما أن عالم الملك هو عالم الشهادة، أعنى عالم الأجساد والجسمانيات، وأما عالم الجبروت فهو أعلى من عالم الملكوت لأنه مأخوذ من الجبر وهو القهر، لأن العباد مقهورون عن إدراك كنهه، ما عدا أهل الصفوة والاجتباء. وهو عند أبى طالب المكى عالم العظمة، يريد به عالم الأسماء والصفات الإلهية، وعند الأكثرين عالم البرزخ المحيط بالأمريات الجمة .

ويقال: (الجبروت علم الذات) (والملكوت علم الأسماء) والصفات الدالة على الذات والملك علم فعله الظاهر الدال على ما سبق. ويقال: الإنسان روح ثم نفس ثم جسم فالروح عالم

الجبروت والنفس عالم الملكوت، والجسم عالم الملك، فالروح الجبروني مظهر الذات، والنفس الملكوني مظهر الأسماء والصفات، والجسم الملكي مظهر الأفعال، فالمعنى هنا وقد جال في نفس هذا العارف كل شئ حاصل حتى أطلع عليه. وقوله (كذار هبوت الغهب) بفتح الراء والهاء مبالغة في الرهبة. كما أن الرغبوت مبالغة في الرغبة والرحموت مبالغة في الرحمة، يعني أن هذا العارف جال في نفسه شدة الرهبة من الله تعالى. حيث صار من أرباب هذه المقامات العلية الذين شربوا من كؤسها السنية، ففنيت ذاتهم في مقام الرهبوت، ثم بقيت في مقام الرغبوت، وتحلت بحلل في مقام الرحموت فهو دائماً في مقام التسليم للحي الذي لا يموت .

واعلم أن التجليات الغيبية لا تزال متوالية على قلب الكامل لأجل الإمداد فتارة ترد من تنزلات حضرة اسمه تعالى القابض فتحصل الخشية والرهبة، ويكون صاحب هذا المقام في قبض ما دام عليه هذا التجلي، وتارة ترد من تنزلات حضرة اسمه تعالى الباسط فيحصل الانبساط لصاحب هذا المقام وتغلب عليه الرغبة، ثم قال المصنف ﷺ:

وسَارَ بعَزْمٍ فِى كَرَاسِى عُرُوشِهِ وَطَارَ بِسِرِّ السِّرِّ فِى حَالِ نَشْأَةِ

أي وسار هذا العارف بعزم وقوة في كراسي جمع كرسي وعروشه جمع عرش وهي كناية عن المقامات العالية التي أعدها الله تعالى لأوليائه فلا يقف في حال سيره بل يكون ملاحظاً نداء هواتف كل مقام المقصود أمامك وطار هذا العارف أيضاً بسر السر الذي أطلعه الله عليه وحجبه عن غيره .

قال السيد الشريف: السر لطيفة مودعة في القلب كالروح في البدن وهو محل المشاهدة كما أن الروح محل المحبة والقلب محل المعرفة وسر السر ما تفرد به الحق عن العبد كالعلم بتفصيل الحقائق في إجمال الأحدية وجمعها واشتمالها على ما هي عليه ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾(الأنعام:٥٩) . أ هـ .

قلت: ولا مانع من كونه تعالى يطلع على غيبة بعض أصفيائه كما قال تعالى ﴿ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ۞ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾(الجن:٢٦-٢٧) . يعني أو ولي كما قاله بعض العارفين والصحيح أنه ﷺ لم ينتقل من هذه الدار حتى أطلعه الله على مفاتح الغيب فلتكن بعض خواص أمته كذلك بطريق الوراثة المحمدية والله اعلم .

ولذا قال سيدى مصطفى البكرى في شرح قوله: وبسر سر سرك أي غيبك المخزونة أسراره المكنونة أنواره المضنون به على غير أهله الذي لا يطلع عليه إلا من اخترته لشرب نهله . أ هـ .

ومن كلام بعض العارفين: صدور الأحرار قبور الأسرار فإن الله تعالى يغار أن تبدو أسراره المصونة . لقلوب بشهود الغير مفتونة . وأنشد بعضهم فى ذلك .

ومستخبر عن سر ليلى رددته بعمياء من ليلى بغير يقين

يقولون خبرنا فأنت أمينها وما أنا إن خبرتهم بأمين

وقوله فى حال نشأة أى فى حال النشأة التى أنشأه الله عليها وأعطاه بها هذا المقام

ومما حكى: عن عبد الله الكندرى أنه قال: خرجت إلى البرية لعلى أرى أحداً من الرجال الأخيار فرأيت جارية فقلت فى نفسى كان اجتماعى برجل أولى من امرأة. فقالت: يا أبا عبد الله تريد الاجتماع بالرجال وأنت لم تصل إلى مقام النساء!! فقلت: ما أكثر دعواك؟ فقالت: الدعوى بغير بينة باطلة، فقلت: فما بينتك؟ فقالت: هو لى كما أريد لأنى له كما يريد. ثم قالت: ما تريد فى هذه البرية؟ فقلت: سمكاً مشوياً . فقالت: هذا من ضعف عقلك ونزول مقامك هلا طلبت منه جناحاً من الشوق تطير به كطيرانى ثم طارت فى الهواء .

واعلم: أنه متى ظهرت الروح وزال الحجاب الذى بينها وبين الذات أمدتها بصفائها الحسى فيحصل فى الذات صفاء حسى تنقطع به حظوظ الشيطان لتغذى العروق بماء الصفاء وحينئذ عدها بالصفاء المعنوى حتى يصير للذات ما للروح ومعلوم أن الله تعالى أعطى الروح قوة سريان فتخرق الأجرام والجبال والصخور والجدران ونحو ذلك وتذهب حيث شاءت فإذا اسكنت الروح إلى الذات وأحبتها أمدتها بتلك القوة فتخرق الذات الأشجار وتدخل البيوت المغلقة وتطير فى الهواء وتقطع المفاوز الوعرة الواسعة فى الزمن القريب جداً فلولا هذه القوة التى سرت من الروح للجسم لما أمكنه ذلك ثم قال المصنف ﷺ:

يُضىئُ كَضَوْءِ الشَّمْسِ تَبْدُو لِنَاظِرٍ لَـهُ هِمَّـةٌ تُبْرِى عَلِيلَ الجِبِلَّةِ

أى يضىئ هذا العارف بأنوار المعارف التى فيه كضوء الشمس عند انكشافها حال كونها تبدو أى تظهر لناظر لها ليس دونها سحاب وقوله له همة أى لهذا العارف همة أى توجهات قلب تبرى بضم المثناة أى تشفى عليل الجبلة بكسر الجسم والموحدة وتشديد اللام أى الطبيعة والمعنى أن همة هذا العارف تشفى مرض القلب كما وضح ذلك المصنف ﷺ بقوله:

حكِيمٌ يُدَاوِى الطَّالِبينَ بطِبِّهِ خَبيرٌ بِدَاءِ القَلْبِ فِى كلِّ لَحْظَةِ

يعنى أنه ذو حكمة ومعرفة بالطب الروحانى لأنه يداوى الطالبين لأوج الكمالات .

بطبه الذى يوصل صحة قلوبهم إلى أعلى الدرجات .

قال ابن دريد: كل كلمة وعظتك وزجرتك أودعتك إلى مكرمه أو نهتك عن قبيح فهى حكمة وقوله خبير أى عنده خبرة بداء القلب من الغش والحقد والحسد وحب الرياسة ونحو ذلك فيصف لصاحبه ما يزيله عنه فى كل لحظة أى زمن يسير بقدر ما يلحظ بالعين . ثم قال المصنف ﷺ:

يَرَى بعيُون القَلْبِ مَا كَانَ خَافِياً وَيُدْرِكُ بالأبْصارِ حُجْبَ الأكِنَّةِ

أى ومن شأن هذا العارف أن يكون من أهل البصيرة وهى عين فى القلب يبصر بها الأشياء كما يبصر بالعين الباصرة فإذا قويت بصيرته صارت كأنها عيون فى قلبه يبصر بها ما كان خافياً .

وفى الحديث: {من أراد الله به خيراً فتح له قفل قلبه وجعل فيه اليقين} يعنى أزال عن قلبه حجب الأشكال وفتح بصيرته للنظر لمراتب الكمال فيصير قابلاً للفيض السبحانى . مستمداً من المدد الرحمانى . حتى إذا وهبت رياح الألطاف . وتدانت مواهب الإسعاف أشرقت على قلبه الأنوار فيرى ما كان خافياً على الأغيار وقوله: ويدرك بالأبصار جمع بصر أى العيون حجب جمع حجاب وإنما سكنت الجيم لضرورة النظم أى يدرك الحجب التى هى الأكنة فالإضافة بيانية أى التى تكن الشئ وتستره فيزيلها عن المريد بطبه الروحانى حتى لا يكون هناك حجاب يمنعه عن الوصول إلى رفيع الدرجات والحصول على ما يلحقه بالأكابر السادات . ثم قال المصنف ﷺ:

وأُدْرِجَ فى التَّوْجِيهِ فى طَىِّ غَيْبِهِ غُيُوثُ عُيُون الغَيْثِ كَنزُ الذَّخيرَةِ

الظاهر أن قوله وأدرج مبنى للمفعول وقوله فى طى غيبه متعلق به ونائب الفاعل قوله: غيوث. وقوله: كنز الذخيرة بدل منه. وقوله: فى التوجيه أى فى حال توجهه إلى الله تعالى. والمراد بطى غيبه سره الذى هو اللطيفة المودعة فى القلب كالروح فى البدن . فالمعنى: أن هذا العارف صار سره فى حال التوجه إلى الله تعالى محلاً لقبول غيوث عيون الغيب التى هى الأسرار والعلوم المفاضة عليه من حضرة عالم الغيب والشهادة وهى كنز الذخيرة للعارف والله تعالى أعلم . ثم قال المصنف ﷺ:

وَأُدْرِجَتِ الأكْوَانُ فى غَيْبِ ذَاتِهِ كَإدْرَاجِ مَيْتٍ فى قَمِيصٍ وَعِمَّةِ

أى ومن شأن هذا العارف أن (الأكوان) عنده قد أدرجت فى (غيب) أى مغيب ذاته

عنها فلا يشهد شيأ فى الكون سوى مولاه ثم شبه ذلك بقوله: (كإدراج ميت) بتخفيف الياء أى أدخاله بعد فقد الحياة فى قميص وعمة ولذا قال بعض العارفين من علت همته عن الأكوان وصل إلى مكونها ومن وقف بهمته على شئ دون الحق فإنه الحق لأنه أعز من أن يرضى معه بشريك ولله در أبى الحسن التسترى حيث قال فى هذا المعنى:

فلا تلتفت فى السير غيرا فكل ما سوى الله غير فاتخذ ذكره حصناً

وكل مقام لا تفهم فيه أنه حجاب فجد السير واستنجد العونا

ومهما ترى كل المراتب تجتلى عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا

وقل ليس لى فى غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى ولا تحفة تحبنى

ويحتمل كون المعنى أن ذاته جامعة لما فى الأكوان على حد ما قيل:

دواؤك فيك وما تشعر ودواؤك منك وما تبصر

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وأنت الكتاب المبين الذى بأحرفه يظهر المضمر

ومعنى البيت الأول أن الداء الذى يعترى الإنسان ناشئ من نفسه الأمارة بالسوء فإذا جاهدوها وصارت مطمئنة راضية كان ذلك عين الدواء ومعنى قوله (وفيك انطوى العالم الأكبر) كما أفاده شيخنا العروسى فى الرسالة القشيرية أن الإنسان الكامل كتاب جامع لما فى أم الكتاب وما فى اللوح المحفوظ وما فى الصحف المطهرة اذ هو نتيجة العالم الأكبر فهو من حيث روحه وعقله كتاب مسمى (بأم الكتاب) ومن حيث قلبه كتاب اللوح المحفوظ ومن حيث نفسه كتاب المحو والإثبات وهذه هى الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة التى لا يمسها ولا يدرك أسرارها ومعانيها إلا المطهرون من الحجب الظلمانية ويتفرع عن هذه الكتب كل شئ فى الوجود من القوى الروحانية والجسمانية وغيرها مما ينتقش فيها أحكام الموجودات وقال فى موضع آخر فأنت أيها الإنسان . إذا كنت جامعاً لمعانى الأكوان . فلا تحتجب بك عنك بل افهم حقائق العرفان . ترق لحضرة العيان. وقد قيل فى ذلك:

إذا كنت كرسياً وعرشاً وجنة ونـاراً وأفلاكاً تدور وأملاكاً

وكنت من الكلى نسخة كله وأدركت هذا بالحقيقة إدراكاً

ففــيم الــتأنى بالحضــيض منــبطاً　　مقــيم مــع الاسـرى أمـا آن إسـراكاً

أ هـ . وقـال.فـى الفيوضات الإحسانية: قد انطوى فى ابن آدم العالم الكبير فما فى الأرض مـن جـبال فهو بمنزلة العظام وما فيها من بحار عذبة وغير عذبة فهو بمنزلة ما أودع فـى فمـه وعينـيه ومـا فـيها مـن نبات فهو بمنزلة الشعر وما فيها من سبخ فهو بمنزلة ما لا ينبـت الشـعر مـن بدنه وما فيها من سهل ووعر فهو بمنزلة ما فيه من الخلق الحسن والسئ وما فى الكون من شمس فهو بمنزلة الروح لأن الجسد يستضئ فإذا غابت أظلم وما الكون من قمـر فهـو بمـنزلة العقـل فالهلال بمنزلة عقل الطفل ثم يزيد إلى أن يكمل والكواكب الخمسة السـيارة بمـنزلة الحـواس الخمـس وهـى الـذوق والشم واللمس والسمع والبصر والجنة والنار بمـنزلة مـا فـيه من الغضب والرضا والليل والنهار بمنزلة ما فيه من الحزن والسرور والفصول الأربعـة الـتى فى السنة وهى الصيف والشتاء والخريف والربيع بمنزلة الطبائع الأربع والنوم بمـنزلة الموت واليقظة بمنزلة البعث وما يراه النائم من الرؤيا الحسنة أو السيئة بمنزلة النعيم أو العذاب إلى غير ذلك أ هـ . ملخصاً .

(وما ألطف قول بعضهم):

إذا كنــت تقــرأ عــلم الحــروف　　فشخصــك لــوح بــه أســطر

وتمــثال ذلــك أنمــوذج　　لكــل الوجــود لمــن يبصــر

ففــيك أشــعة لا هوتــه　　مــن الــبدر يــا ذا الــنهى أنــور

وشمــس المعــارف أنوارهــا　　مــن الشــمس فــى ضـوئها أظهــر

لقــد ظهــرت بســماء القلــوب　　خفايــا الغــيوب لمــن يــنظر

سمــاء عــلى قطــب توحــيده　　تــدور اشــتياقاً فــلا تقصــر

لهــا مــن أشــعة عــرفانه　　نجــوم بإخلاصــها تزهــر

فمشــرقها أفــق ســودائها　　ومغــربها ســره المضــمر

وعــرش الصــفاء لهــا مركــز　　إلــيه انــتهى كــل مــا يسـطر

وهــناك الملــيك تجــلى لهــا　　وأوحــى لهــا كــل مــا يؤمــر

وبتدبر هذا تفهم قوله سبحانه فى الحديث القدسى ما وسعنى أرضى ولا سمائى وإنما وسعنى قلب عبدى المؤمن فإن المراد تجليه عليه . ثم قال المصنف ﷺ:

وَيُخْبِرُ بالأشْيَاءِ قَبْلَ وقُوعِهَا مِنَ اللوْحِ يَقْرَاهَا بعَيْنِ البَصيرَةِ

أى ومن شأن هذا العارف الكامل فى المعرفة أنه يخبر بالأشياء المعلومة فى باطن الغيب قبل وقوعها فى عالم المشاهدة بعد أن يقرأها من اللوح المحفوظ بعين بصيرته ويقرأها فى البيت بدون همزة لاجل الوزن، وقد أطلع الله بعض خواصه على ما فى اللوح المحفوظ الجامع لكل شئ لقوله تعالى: ﴿ وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾(الأنعام:٥٩) .

وقد كان: سيدى جاكير الكردى يقول ما أخذت العهد قط على مريد حتى رأيت أسمه مكتوباً فى اللوح المحفوظ وأنه من أولادى .

وقال سيدى إبراهيم الدسوقى: إذا كمل العارف فى مقام العرفان أورثه الله علماً بلا واسطة وأخذ العلوم المكتوبه فى ألواح المعانى ففهم رموزها وعرف كنوزها وفك طلسمانها وعلم اسمها ورسمها وأطلعه الله تعالى على العلوم المودعة فى النقط ولولا خوف الإنكار لنطق بما يبهر العقول. ثم قال: وكذلك للعارفين إطلاع على ما هو مكتوب على أوراق الشجر والماء والهواء وما فى البر والبحر وما هو مكتوب على صفحة قبة خيمة السماء، وما فى جباه الأنس والجن مما يقع لهم فى الدنيا والآخرة، وكذلك لهم الإطلاع على ما هو مكتوب بلا كتابة من جميع ما فوق الفوق، وما تحت التحت، ولا عجب من حكيم يتلقى علماً من حكيم عليم، فإن مواهب السر اللدانى ظهر بعضها فى قصة موسى والخضر عليهما السلام أ هـ .

وقوله: بعين البصيرة هى قوة القلب المنور بنور القدس يبصر بها حقائق الأشياء كما يبصر الإنسان بالعين الباصرة بل عين البصيرة أقوى فى الإدراك .

قال ابن العربى: لا تنكر على الصوفية النطق عن الغيب مع إيمانك بالمثال المحسوس وهو أن المرآة إذا صقلت وجلى عنها الصداء تجلت صورة الناظر فيها فإن جاء أحد خلفه تحت صورته فى المرآة أبصره على أى صورة هو ولم يره بعينه المعهودة فمن عهد إلى مرآة قلبه فجلاها من صداء الأغيار وأماط عنها كل حجاب يحجبها عن تجلى صور المعقولات والمغيبات بأنواع الرياضات نطق عما يشاهده وتحقق بمقام ما كذب الفؤاد ما رأى أ هـ . ثم قال المصنف ﷺ:

مَتِينُ الحِجَا يَدْعُو إلى الرُّشْدِ بالهدَى وَقَدْ جَاءَنَا تَشْبِيهُهُ بالنُّبُوَّةِ

يعنى أن من شرط الشيخ أن يكون (متين الحجا) بكسر الحاء المهملة وتخفيف الجسم أى قوى العقل لأنه مرشد فلابد أن يكون كامل العقل بخلاف المجذوب المأخوذ عقله فلا يصلح للإرشاد ومداواة علل العباد . وكما أن العقل يسمى حجا كذلك يسمى نهية لنهية صاحبه عن المعاصى والجميع نهى قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾(طه:٥٤) . أى لأصحاب العقول ويسمى أيضاً لباً ويجمع على ألباب قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾(الزمر:٢١) . ومن أسمائه القلب قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾(ق:٣٧) . أى عقل كما فسره بذلك ابن عباس ومن أسمائه الحجر بكسر الحاء المهملة وسكون الجيم قال تعالى: ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾(الفجر:٥) . أى عقل سمى بذلك لأنه يحجر صاحبه عما لا ينبغى كما أنه سمى عقلاً لكونه يعقل صاحبه عن إرتكاب ما لا يليق وله أسماء غير هذه وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى غالباً .

وقد ورد: أن أفضل ما خلق الله العقل فإن به الأخذ وبه العطاء ولذا قال بعضهم:

وأفضل قسم الله للمرء عقله ... فليس من الأشياء شئ يقاربه

إذا أكمل الرحمن للمرء عقله ... فقد كملت أخلاقه ومآربه

وقال آخر:

ما وهب الله لامرئ هبة ... أحسن من عقله ومن أدبه

هما جمال الفتى فإن فقدا ... ففقده للحياة أجمل به

وقوله يدعو أى يطلب هذا العارف الناس إلى الرشد بضم الراء وهو خلاف الغى فيرشدهم إلى ما فيه الصلاح بالهدى أى الدلالة على سلوك سبيل الفلاح وقد جاءنا معشر أهل السنة تشبيهه فى حال إرشاده للعباد بالنبوة من حيث إن الجامع بينهما الدلالة على سبيل الرشاد . قال تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾(يوسف:١٠٨) . وقال ابن عباد فى شرح الحكم نقلاً عن أبى القاسم القشيرى ورد فى الخبر أن الشيخ فى أهله كالنبى فى أمته وقال ابن العربى فى الفتوحات:

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله ... فقم بها أدباً لله بالله

هم الأدلاء والقربى تؤيدهم ... على الدلالة تأييداً على الله

الوارثون همو للرسل أجمعهم فمـا حديثهموا إلا عـن الله
كالأنبياء تراهم فـي محاربهم لا يسألون مـن الله سوى الله

ثم قال فالشيوخ نواب الحق فى العالم كالرسل عليهم الصلاة والسلام فى زمانهم بل هم الورثة الذين ورثوا علم الشرائع عن الأنبياء، غير أنهم يشرعون فلهم ﷺ حفظ الشريعة فى العموم وما لهم التشريع ولهم حفظ القلوب ومراعاة الآداب فى الخصوص أ هـ .

فالمقصود أن من قام فى مقام الإرشاد يكون على قدم النبى فى دلالته الناس على ما ينفعهم يوم التناد . وإن ظهرت من الولى كرامة فهى فى الحقيقة معجزة لنبيه الذى هو تابع له إذ لم لو يكن ذلك الرسول صادقاً لن تظهر على يد من تبعه الكرامة ونهايات الأولياء فى الكرامات بدايات الأنبياء عليهم السلام فى المعجزات . كتسليم الحجر والشجر على نبينا ﷺ فى أول أمره وذلك لأنهم أتباع ولا قوة للتابع على غير مبادى المتبوع ثم إن الفرق بين المعجزة والكرامة وإن كان كل منهما خارقاً للعادة أن المعجزة إنما تكون ممن يدعى النبوة فتكون دليلاً على صحة دعواه، بخلاف الولى فإنه لا يدعى ذلك. فإن النبى مأمور بإظهار المعجزة الدالة على صدقه، والولى مأمور بإخفاء الكرامة التى أجراها الله على يده، نعم يجوز إظهارها إذا رأى أمراً لا يصح السكوت عليه .

كما أتفق أن بعض الفلاسفة حضر مجلس سيدى محيى الدين ابن العربى ومعه بعض أكابر الصوفية فى زمن الشتاء وبين أيديهم نار يوقدونها. فقال: إن العامة تقول إن إبراهيم عليه السلام ألقى فى النار فلم تحرقه مع أن النار محرقة بطبعها والحقائق لا تتبدل وأنكر ما جاءت به الأنبياء من خرق العوائد وتأول قوله سبحانه: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾(الأنبياء:٦٩) . بأن النار فى الآية عبارة عن غضب نمرود فهى نار الغضب لا النار الحقيقية المحرقة. فقال له بعض الحاضرين: أنا أقوم لك فى هذا المقام مقام إبراهيم لترجع عن إنكارك أليست هذه النار المحرقة بطبعها؟ قال: نعم فوضعها فى حجر المنكر وأمره أن يقلبها بيده فقلبها بيده مدة وهى لا تؤثر فيه ببركة من كانت هذه الكرامة على يده ثم ردها فى مكانها وقال له: قرب يدك منها فقرب يده فأحرقته. فقال له: هكذا كان الأمر فإنها مأمورة تحرق بالأمر وتترك الإحراق كذلك، فاعترف الفيلسوف ورجع عن إنكاره . لكن بعد أن أحرقه الله بناره وقد قسموا الأمر الخارق للعادة إلى ستة أقسام جمعها بعضهم فى قوله :

إذا ما رأيت الأمر يخرق عادة فمعجزة أن من نبى لنا صدر

وإن بـان مـنه قـبل وصـف نـبوة فالأرهاص سمع تتبع القوم فى الأثر

وإن جـاء يومـاً مـن ولى فإنـه الـ ـكرامة فى التحقيق عند ذوى النظر

وإن كـان مـن بعـض العـوام صدوره فكـنوه حقـاً بالمعونـة واشـتهر

ومـن فاسـق إن كـان وفـق مـراده يسمى بالاستدراج فـيما قـد استقر

وإلا فـيدعى بالإهانـة عـندهم وقـد تمت الأقسام عـند الذى اختبر

ثم قال المصنف ﷺ:

لَـهُ قَـدَمٌ فِـيمَا يَقُـولُ وَيَدَّعِـي وتَصْـرِيفُهُ فِـيهِ بحُكْـمِ الْمَشِـيَئةِ

أى لهذا العارف (قدم) بفتح القاف والدال أى رسوخ وتمكن فيما يقوله (ويدعيه) لما أفاضه الله عليه من مواهب الفضل والامتنان . فكل دعوى منه يقوم عليها من حالة ألف شاهد وبرهان . (وتصريفه فيه) أى تصريف هذا العارف فيما يقوله ويدعيه . بأن يمضيه أولاً . يمضيه كائن (بحكم المشيئة) أى مشيئة الله تعالى الذى جعل له هذا التصريف ومن كلام العارف الشعرانى تحدثاً بالنعمة التى أسبغها الله عليه مما من الله به على أنه مكننى من كن فلو قلت لجبل كن ذهباً لكان ولكن أدباً مع الربوبية لا أنطق بذلك ثم قال المصنف ﷺ:

يَصُـرِّفُ أَقْوَامـاً وَمَـيْدَانُ سِـرِّهِ جَـلاَ غَيْهَـبَ الأَسْـرَارِ مِنْ كـلِّ بُقْعَـةِ

يعنى أن هذا العارف بما جعله الله له من التصريف يصرف بحكم المشيئة أقواماً بحسب مراتبهم ودرجاتهم فيعطى كل إنسان ما يستحقه والحال أن ميدان سره جلا بفتح الجيم واللام ألا كشف غيهب الأسرار والميدان فى الأصل محل تسابق الفرسان والغيهب شدة سواد الليل والمراد هنا أن هذا العارف يكشف بنور سره الواسع غيهب الأسرار أى الخفاء الذى هو فيها بمنزلة السواد وقوله من كل بقعة أى من كل قلب من القلوب التى حل فيها سره فتعود الأسرار من سره ظاهرة نيرة ببركة حلوله عند أربابها . ثم قال المصنف ﷺ:

لَـهُ الفَضْـلُ وَالإِجْـلاَلُ وَالْفَخْـرُ وَالْعُلاَ مِـنَ اللهِ وَالتَّوْفِـيقُ فـى كُـلِّ لَحْظَـةِ

أى لهذا العارف (الفضل) من الله أى مزيد العطاء جزاء له قال تعالى فى محكم القرآن: ﴿ هَلْ جَـزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلاَّ الْإِحْسَانُ ﴾(الرحمن:٦٠) . أوله الفضل على المريد . حيث أرشده لطاعة الغنى المجيد . وله أيضاً (الإجلال) . أى التعظيم من المريد لتعظيم ذى العزة والجلال وله أيضاً

(الفخر) أى الافتخار بما أعطاه الله من باب قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾(الضحى:١١) أو أن الله تعالى يفاخر به ملائكته وله أيضاً (العلا) أى الرفعة من الله الذى قربه إليه تفضلاً منه تعالى لا وجوباً عليه وله أيضاً (التوفيق) منه تعالى (فى كل لحظة) من اللحظات . ولمحة من اللمحات . أسأل الله التوفيق . لأقوم طريق ثم قال المصنف ﷺ:

هُنَاكَ لَهُ الإِمْدَادُ فِى كُلِّ طَالِبٍ يَدَعْهُ كمَا الإبريزُ فَوْقَ البَسِيطَةِ

أى عندما تفاض المواهب على هذا العارف يكون (له الإمداد) أى أعطاء المدد الذى يسرى منه (فى كل طالب) للوصول إلى ما وصل إليه القوم بعد سلوكهم طريقهم حتى يدع المريد السالك (كما الإبرين) بزيادة ما أى مثل الإبريز وهو الذهب الخالص من الغش وقوله (فوق البسيطة) أى الأرض فالعارف الموصوف بهذه الأوصاف المتقدمه يكون له من جانب الحق المدد الذى يسرى منه فى كل طالب للوصول على يديه بحسب استعداده حتى يخلصه من شوائب الأغيار . كما يخلص الصائغ الذهب الإبريز من الغش الذى فيه بالنار . وإنما سكن العين من يدعه لضرورة الوزن .

آداب طالب الطريق

ثم لما فرغ المصنق من أوصاف الشيخ الذى ينبغى أن يكون مرشداً شرع فى أوصاف المريد وبيان الآداب التى تلزمه فقال:

وَفَرْضٌ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُؤَدَّبَاً لَدَى شَيْخِهِ فِى كُلِّ وَقْتٍ وَسَاعَةِ

أى ويجب على الطالب لطريق المقربين وهو المريد (أن يكون مؤدباً) بآداب أهل الطريق (لدى) أى عند شيخه ليحصل له نتيجة ما يلقيه إليه فى كل وقت مأخوذ من التوقيت وهو التحديد والمراد به الزمان وبالساعة القطعة منه .

واعلم: أن المريد هو الذى عن مراد ربه لا يحيد . ملازم للأعتاب . مترجى فتح الباب . مجتهد فى العبادات . متعرض للرحمات . ذاكر للزلات باذل عليها العبرات . رافع أكف الضراعة . لمن لا يضيع من أطاعه . فأول ما يخرق له من العادة . تسميته بأسم المريد مع كونه مسلوب الإرادة وما ألطف قول بعضهم:

تكون مريداً ثم فيك إراده إذا لم ترد شيأ فأنت مريد

(ثم قال المصنف ﷺ):

لِيُبْدِى لَـهُ الإِشْكَانُ فى كُلِّ صُورَةٍ ... وَيُلْقِى لَـهُ مِنْ سِرِّ سِرِّ الحَقِيقَةِ

أى ليظهر المريد لَه أى لشيخه الإشكال أى إشكال ما ورد عليه من خفى الأمور (فى كل صورة) وردت عليه (ويلقى) أى الشيخ لَه أى للمريد من (سر) أى خلاصة سر الحقيقة حتى يزول الإشكال .

وقال ابن العربى: السر يطلق على معان فيقال سر العلم بازاء حقيقة العلم به وسر الحال بازاء معرفة مراد الله وسر الحقيقة بازاء معرفة ما تقع به الإشارة .

ثم قال المصنف ﷺ:

وَيَصْحَبُهُ كالمَيْتِ فى حَالِ غُسْلِهِ ... يُقَلِّبُهُ لِلْغُسْلِ مِنْ كُلِّ وِجْهَةِ

أى ويلزم المريد أن يسلم قياده لشيخه ولا يجعل لنفسه معه اختياراً أبداً بل يكون بين يديه (كالميت) بين يدى الغاسل (يقلبه للغسل) كيف شاء ولأى جهة أراد والميت بتخفيف الياء هو الذى مات بالفعل وأما قابل الموت فبالتشديد قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾(الزمر:٣) . وقال بعضهم:

أيا سائلى تفسير ميت وميت ... فدونك قد فسرت إن كنت تعقل

فمن كان ذا روح فذلك ميت ... وما الميت إلا من إلى القبر يحمل

فمن صحب شيخه بدون اختيار . كشفت لَه الحجب والأستار . ثم قال المصنف ﷺ:

مَعَ الذُّلِّ وَالتَّهْذِيبِ والخَوْفِ وَالرَّجَا ... وَعَجْزٍ وتَسْليمٍ وَتَعْظِيمِ حُرْمَةِ

أى مع كون المريد ملازماً (للذل) وهو إظهار المسكنة لينال من الله بذلك العز الأبدى

قال أبو يزيد: قيل لى خزائننا مملوءة فإن أردتنا فعليك بالذل والافتقار .

وقال الكيلانى: أتيت جميع أبواب الحق فوجدت عليها الازدحام حتى أتيت باب الذلة والافتقار فوجدته خالياً فدخلت منه فالتفت فإذا أنا قد سبقت القوم وتركت الناس على الأبواب .

وما ألطف قول بعض أهل الإشارات:

لا يبعدنك عتبنا عن بابنا ... فالعهد باق والوداد مصان

فبحبنا وبلطفنا وبفضلنا شاع الحديث وسارت الركبان
فإذا ذللت لعزنا يا ذا النهى ذلت لعزتك الملوك وهانوا

ويلزم أن يكون المريد ملازماً للتهذيب أى تنقية عيوب النفس حتى تستعد بذلك لخطاب ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ◦ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ◦ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ◦ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾(الفجر:٢٧-٣٠) . ويلزم أن يكون ملازماً للخوف والرجاء كما قال سيدى على الخواص: إذا كنت مؤمناً وسمعت أنه تعالى يمدح المؤمنين فلا تبادر إلى كونك مؤمناً وتأمل قبل ذلك هل أنت على ما وصف الله به المؤمنين من الصفات التى مدحهم عليها أم لا ثم إن كنت على ما وصف فهل تموت على ذلك أم لا فإن علمت أنك تموت على ذلك فقد أمنت مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون وإن علمت أنك تموت على غير ذلك فقد أيست من رحمة الله و ﴿ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (يوسف:٨٧) . فكن بين الرجاء والخوف فإنه الصراط المستقيم أ هـ .

غير أنه ينبغى تقديم جانب الخوف فى حال الصحة وجانب الرجاء فى حال المرض كما قال الإمام الدردير:

وغلب الخوف على الرجاء وسر لمولاك بلا تناء

وذلك لأن (غلبة الخوف) فى حال الصحة تحرق نار الشهوة وتوجب الإقبال على العمل . الذى يقرب العبد إلى الله ﷻ . وغلبة (الرجاء) عند الموت توجب المحبة التى ينشأ عنها الشوق إلى واسع الجود والكرم .

وفى الحديث: {لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه} . وأما ما ورد من أنه ﷺ دخل على شاب وهو يجود بنفسه فقال كيف تجدك قال أرجو الله وأخاف ذنوبى فقال ﷺ الرجاء والخوف لا يجتمعان فى قلب عبد مؤمن فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف، فإنه لا ينافى أن المطلوب فى هذه الحالة تغليب جانب الرجاء لأن الاجتماع المذكور فى الحديث لا يستلزم المساواة فى المجتمعين ولذا قال بعض من غلب عليه الرجاء فى هذا الموطن:

وحمل الزاد أقبح كل شئ إذا كان القدوم على كريم

وقال آخر:

أمسى فراشى من تراب وبت مجاور الرب الرحيم

فهنونى أصيحابى وقولوا لك البشرى قدمت على كريم

ورؤى بعضهم فى المنام فى حالة حسنة فقيل له بم نلت هذا الإكرام فقال بحسن ظنى بربى ومما يدل على جزيل الفضل والكرم الذى لا يخص من قام فى الطاعة على قدم .

ما حكى: (أن أيوب السختيانى رأى جنازة عاص فاختفى خشية أن يصلى عليها، فرأى بعضهم الميت فى المنام فقال له: ما فعل الله بك قال غفر لى، وقال: قل لأيوب السختيانى لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق) .

ومن آداب المريد أن يكون ملازماً للعجز أى عدم القدرة على ما يريده إلا بمعونة ربه ومساعدة أنفاس شيخه فمتى شاهد من نفسه العجز ولم ير لها فعلاً أقدره الله على ما يريد وكذلك يكون ملازماً للتسليم وهو الانقياد لأمر الله تعالى وترك الاعتراض فيما لا يلائم طبعه والانقياد لشيخه أيضاً فيما يأمره به بدون معارضة وكذلك يلازم تعظيم حرمة الله تعالى وحرمة شيخه وحرمة الخلق فالأول بامتثال الأوامر واجتناب النواهى والثانى بتعظيم شأنه حياً وميتاً والقيام بحقه فإن تعظيم الشيخ تعظيم لله تعالى الذى أقامه لهداية العباد وإرشادهم إلى سلوك سبيل الرشاد . ولذا قال بعضهم:

وأنزل الشيخ فى أعلى منازله واجعله قبلة توجيه وتنزيه

وأعدم وجودك لا تشهد له أثراً ودعه يهدمه طوراً ويبنيه

ولست تفعل هذا إن ظننت به نقصاً تشاهده فيما يعانيه

فالمرء أن يعتقد شيأ وليس كما يظنه لم يخب والله يعطيه

وتعظيم حرمة الخلق بالشفقة عليهم والنصح لهم وغير ذلك ثم قال المصنف ﷺ:

وَيَخْرُجُ عَنْ نَفْسٍ تَوَالَتْ هُمُومُهَا وَيَخْشَعُ للهِ الكَرِيمِ بخَشْيَةِ

أى ويلزم المريد أنه يخرج عن نفسه التى توالت أى توارد همومها وخواطرها فإن النفس أمارة بالسوء فمتى خرج عنها وطرحها فقد أفلح وفاز . وكانت أموره التى يصل بها إلى مطلوبه فى إنجاز . حيث لا عائق يعوقه عن بغيته . ولا آمر بالسوء يرجع به عن رغبته .

قال السهر وردى: أهل التصوف على ثلاث طبقات مريد طالب. ومتوسط طائر ومنته واصل. فالمريد صاحب وقت، والمتوسط صاحب حال. والمنتهى صاحب يقين. وأفضل أشياء عندهم عد الانفاس. فمقام المريد المجاهدات والمكابدات وتجرع المرارات ومجانبة الحظوظ وكل ما للنفس فيه منفعة. ومقام المتوسط ركوب الأهوال فى طلب المراد ومراعاة الصدق فى الأحوال. واستعمال الأدب فى المقامات. وهو مطالب بآداب المنازل. وهو صاحب تلوين. لأنه يرتقى من حال إلى حال وهو فى الزيادة. ومقام المنتهى الصحو والثبات وإجابة الحق من حيث دعاه. قد جاوز المقامات وهو فى محل التمكين لا تغيره الأحوال. ولا تؤثر فيه الأهوال قد استوى عنده الشده والرخاء والمنع والعطاء والجفاء والوفاء أكله كجوعه ونومه كسهره. قد فنيت حظوظه وبقيت حقوقه ظاهره مع الخلق وباطنه مع الحق.

وقال سيدى أحمد الرفاعى: إذا أراد الله ﷻ أن يرقى العبد إلى مقامات الرجال خلفه بأمر نفسه أولا فإذا أدب نفسه واستقامت معه كلفه بأهله. فإن قام بشأنهم وأحسن عشرتهم كلفه بجيرانه. فإن احسن إليهم وداراهم كلفه بأهل بلدة. فإن هو أحسن إليهم وداراهم كلفه بجهة من البلاد. فإن هو داراهم وأحسن عشرتهم كلفه بما بين السماء والأرض. فإن بينهن خلقا لا يعلمهم إلا الله تعالى. ثم لا يزال يرتفع من سماء إلى سماء حتى يصل إلى محل الغوث. ثم يرتفع صفته إلى أن تصير صفة من صفات الحق تعالى. فيطلعه على غيبه حتى لا تنبت شجرة ولا تخضر ورقة إلا بنظره. وهناك يتكلم عن الله تعالى بكلام لا تسعه عقول الخلائق لأنه بحر عميق غرق فى ساحلم خلق كثير أ هـ.

من طبقات العارف الشعرانى ثم قال فى ترجمة أبى العباس المرسى وكان ﷺ يقول ما سمى إبراهيم الخليل فتى إلا لكونه كسر الأصنام الحسية التى وجدها وأنت يا ولدى لك أصنام خمسة معنوية فإن كسرتها فأنت فتى وهى النفس والهوى والشيطان والشهوة والدنيا وافهم ههنا

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على

وكذلك يلزم المريد أن يخشع أى يخضع ويذل لله الكريم الذى تكرم عليه بخشية أى خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما تكون الخشية عن علم بما يخشى منه ولذا خص العلماء بها قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(فاطر:٢٨). وقد قيل فى ذلك:

على قدر علم المرء يعظم خوفه فلا عالم إلا من الله خائف

فآمن مكر الله بالله جاهل وخائف مكر الله بالله عارف

(ثم قال المصنف ﷺ):

وَيَعْـــتَقِدُ الأسْـــتَاذ فِـــيمَا يَقُولَـــهُ وَيَفْعَلُـــهُ مِـــنْ غَـــيْرِ شَـــكٍّ وَرِيـــبَةِ

أى ويلـزم المـريد أنه (يعتقد) أستاذه فيما يقوله وما يفعله بأن تجزم بصحته (والأستاذ) يضـم الهمزة كلمة أعجمية معناها الماهر فى الشئ وقد قالوا أن مخالفة المريد لشيخه فى قوله أو (فعلـه) سم قـاتل فمن صحب شيخاً من الشيوخ ثم أعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة ووجبـت علـيه الـتوبة وقولـه (من غير شك) أى تردد فى صحة قوله ومن (غير ريبة) أى تردد فـى صحة فعلـه فـإن الريـبة والشك مترادفان على معنى واحد وقد قال الجنيد لبعض تلامذته حين سأله عن مسئله وأجابه عنها فعارضه (فإن لم تؤمنوا فاعتزلون) .

(وما ألطف قول الإمام الجيلى)

وإن ســاعد المقـدور أو سـاقك القضـا إلى شـيخ حـق فـى الحقـيقة بـارع
فقـــم فـــى رضـــاه واتـــبع لـــمراده ودع كـلما مـن قـبل كنـت تصـانع
وكـــن عـــنده كالميـــت عـــند مغســـل يقلـــبه مـــا شـــاء وهـــو مطـــاوع
ولا تعـترض فـيما جهلـت مـن أمـره علـــيه فـــإن الإعـــتراض تـــنازع
وســـلم لَـــه فـــيما تـــراه وإن يكـــن عـــلى غـــير مشـــروع فـــثم مخـــادع
ففـــى قصـــة الخضـــر الكـــريم كفايـــة بقـــتل غـــلام والكلـــيم يدافـــع
فـلما أضـاء الصـبح عـن لـيل سـره وســـل حســـاماً لـــلمحاجج قـــاطع
أقـــام لَـــه العـــذر الكلـــيم وأنـــه كذلـــك عـــلم القـــوم فـــيه بدائـــع

ثم قال المصنف ﷺ:

وَيُـــدْرِجُ مَـــا يَخْـــتَارُهُ فِـــى مُـــرَادِهِ وَأَوْصَـــافُهُ بِـــاللُّطْفِ مِـــنْهُ اسْـــتَمَدَّتِ

أى ويلـزم المـريد أنـه (يـدرج) أى يدخـل مـا يخـتاره مـن الأمور فى مراد شيخه فلا يختار لنفسـه شيأ خـلاف مـا يخـتار لَه أستاذه، وقولَه (وأوصافه) أى أوصاف المريد وأحواله منه أى من شيخه (استمدت) أى أخذت المدد وهو الزيادة بسبب اللطف أى الرأفة والرفق من الشيخ بالمريد:

ثم قال المصنف ﷺ:

فَـإِنْ قَـالَ لِـمْ يَوْمـاً فَذَلِـكَ عِـنْدَهُمْ حَقـيقٌ بِلَـمْ يُفْـلح إلى يَـوْمَ بَعْـثَةِ

أى فـإن قـال المريد لشيخه (يوماً) من الأيام . على سبيل الاستفهام . لم يكسر اللام الداخلـة على ما الاستفهامية وسكنت الميم لأجل الوزن أى لم كان هذا الأمر كذا فذلك القول عـندهم أى الصـوفيه حقـيق أى جدير بأن المريد الذى قاله (لم يفلح) أى لم يفز بمقصوده إلى (يـوم بعـثه) أى يـوم القـيامة وذلـك لأن طـريق القوم مبنية على التسليم بخلاف أهل الظاهر وأصحاب الفروع فيجب البحث والسؤال عما أشكل على التلامذة .

(ثم قال المصنف ﷺ):

وَلَـمْ يَنْـتَفعْ مَـا لمْ يَسْـر فِـى شُـهُودِهِ مُـرَاعٍ لَـهُ مِـنْ غَـيْرِ مَـيْنٍ وَعِلَّـةِ

أى (ولم ينـتفع) المـريد بما تلقاه عن شيخه (ما لم يسر) فى طريق (شهوده) أى مقام مشـاهدته وهـو (مـراع لَـه) بعـين الأدب (مـن غـير) أن يتلـبس فـى صـحبته (بمين) بفتح الميم أى كذب وتلوين (وعلة) ستصحبه من العلل:

(ثم قال المصنف ﷺ):

وَلاَ يَقْـتَرِفْ مَعْـنَى شَـهِيًّاً لِنَفْسِـهِ فَـإِنَّ حُظُـوظَ الـنَّفْس رَأْسُ البَلِـيَّةِ

أى يـنهى المـريد عـن أن (يقـترف) أى يطلـب (معنى شهياً لنفسه) واقتراف الذنب فعلـه فكـأن هـذا الأمـر الـذى نهـى عـن فعله ذنب لأن النفس جبلت على حب الشهوات . والعبد مأمور بملازمة الأدب مع رب البريات . فالنفس تجرى فى ميدان المخالفة على طبعها . والعبد يردها بلجام الكف عن غوايتها عند جماحها . كما قال البوصيرى:

مـن لى بـرد جمـاح مـن غوايـتها كمـا يـرد جمـاح الخـيل بالـلجم

وقـال سـيدى جعفـر الصادق: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات . ولم يخالفها فى جميع الحالات . كان مغروراً ومن نظر إليها باستحسان شئ منها فقد أهلكها .

ولـذا قال المصنف: فإن حظوظ النفس رأس البلية يعنى أن تمكين النفس من حظوظها كلـذة الجاه وإقبال الخلق رأس أى أصل البلية أى ما يبتلى به الإنسان فليزجرها المريد بأشد الزواجـر. ويعـرض علـيها عـذاب مـن يعلم ما فى السرائر، وليقتد بأفعال الصالحين . فإنهم

كانوا يزجرون نفوسهم كل وقت وحين.

فقد حكى أن شقيق البلخى كان يعاتب نفسه وينصحها ويقول يا شقيق لا تعص الله إلا على حسب ما تطيق من عذابه واعمل لآخرتك على قدر حوائجك وطالب بالرزق على قدر مقامك فى الدنيا واعمل لدار لا نفاذ لها فسوف ترى إذا انكشف الغبار.

وحكى أن سعدون المجنون كان يدور فى شوارع البصرة ويقول: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾(الحج:١) . ثم يبكى ويقول:

فلو لم يكن شئ سوى الموت والبلى ... وتفريق أعضاء ولحم مبدد

لكنت حقيقاً يا ابن آدم بالبكا ... على نائبات الدهر مع كل مسعد

وكان إذا اشتد به الجوع أنشأ يقول:

إلهى أنت قد آليت حقاً ... بأنك لا تضيع من خلقتا

وأنك ضامن للرزق حتى ... تؤدى ما ضمنت كما قسمتا

وإنى واثق بك يا إلهى ... ولكن القلوب كما علمتا

وكان عليه جبة صوف مكتوب على كمها الأيمن سطر:

عصيت مولاك يا سعيد ... ما هكذا تفعل العبيد

وعلى كمها الأيسر سطران:

تباً لمن قوته رغيف ... يأتى به السيد اللطيف

يعصى إلهاً له جلال ... وهو به راحم رؤف

ومن خلفه سطران:

كل يوم يمر يأخذ بعضى ... يذهب الاطيبين منى ويمضى

نفسى كفى عن المعاصى وتوبى ... ما المعاصى على العباد بفرض

ومن بين يديه سطران:

أيها الشامخ الذى لا يرام ... نحن من طينة عليك السلام

إنمــــا هـــــذه الحــــياة مـــــتاع ثــم مــوت بـــه تســاوى الانـــام

وعلى عكازه سطران:

اعمـل وأنـت بـذى الدنـيا عـلى وجل واعــلم بــأنك بعــد المــوت مــبعوث

واعــلم بــأنك مــا قدمـت مــن عمــل يحصــى علــيك ومــا خلفـت مــوروث

فقـيل لـه أنـت حكـيم لا مجـنون فقـال أنا مجنون الجوارح لا مجنون القلب ثم قال المصنف ﷺ:

تَــزِينُ لَـــهُ الأَفْعَــال مَــعَ قَوْلِــهِ وَلاَ يَكُـــونُ لَـــهُ مِـــنْ فِعْلِـــهِ وَزنُ ذَرَّةِ

يقـال (زان) الشـئ صـاحبه زيـنا مـن باب سار وأزانه ازانه وزينه تزييناً مثله والزين نقـيض الشـين والمعـنى أن مـن شـان الـنفس أنهـا تـزين للإنسـان الأفعال الذميمة حتى يراها حمـيدة فـى نظره فهى كالشيطان الذى قال الله فيه: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾(النمل: ٢٤) .

وقـد روى أنـه لما نزل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾(الأنفال: ٣٣) صاح إبلـيس ودعـا بـالويل والثـبور فاجتمعـت علـيه شياطينه وقالوا له مالك قال نزلت آية لا يضر بعدها ذنب وذكرها لهم فقالوا انفتح لهم باب الأهواء وتحسين الأعمال حتى لا يتوبوا ففرح بذلك .

واعـلم أيهـا المـريد أن الشيطان قاسم أباك آدم وأمك حواء أنه لهما لمن الناصحين وقد رأيـت مـا فعـل بهما وأما أنت فقد أقسم على غوايتك حيث قال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(ص: ٨٢) . فشـمر عـن سـاعد الجـد فـى الفـرار مـن مكـائده، والـبعد عـن وساوسه ومقاصده: ولله در الإمام البوصيرى حيث قال:

وخـالف الـنفس وللشـيطان واعصـهما وإن همـــا محضـــاك النصـــح فـــاتهم

ولا تطـع مـــنهما خصـــماً ولا حكمـــاً فأنـت تعـرف كـيد الخصـم والحكـم

وقولـه مع قوله أى تزين له أن يقول القول القبيح، ويعتقد أنه مليح . أو مع قوله بأن الأفعـال التى فعلها مليحة والحال أنه لا يكون له من فعله الذى زينته له نفسه وزن أى زنة ذرة وهـى الـنملة الصـغيرة وقيـل مـا يرى من الهباء فى شعاع الشمس، وذلك لأن هذا الفعل الذى زينته له نفسه باطنه خراب . فلا يستحق عليه الثواب .

فـائدة: روى أن مـن أراد أن لا يوفقـه الله على قبيح أعماله ولا ينشر له ديواناً فليدع بهـذا الدعاء في دبر كل صلاة وهو (اللهم إن مغفرتك أرجى من عملى وإن رحمتك أوسع من ذنبى اللـهم إن لم أكـن أهلاً أن أبلغ رحمتك فرحمتك أهل أن تبلغنى لأنها وسعت كل شئ يا أرحم الراحمين) .وقد كان الإمام الشافعي ملازماً عليه ثم قال المصنف ﷺ:

وَيُظْهِـرُ مَـا يَخْطُـر علَـيْهِ لِشَـيْخِهِ فَفِـيْهِ أُمُـورٌ كالشُّـمُوسِ المُضِـيئَةِ

أى ومن شأن المريد أن (يظهر) أى يبين كل ما (يخطر) بضم الطاء أى يمر على قلبه مـن الخواطـر لشيخه ليميز له الوارد الإلهى من غيره فإنه كثيراً ما يخطر الشيطان بوساوسه عـلى القلب خصوصـاً عـند الغفلـة عـن الذكـر . قـال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَـه شَـيْطَاناً فَهُـوَ لَـه قَرِينٌ ﴾(الزخرف:٣٦) . ومعلوم أن الخواطر التى يتحرك القلب لها أربعـة أقسـام (ربـانى، وملكـى) وهما ما يبعثان على مفروض أو مندوب وذلك بطريق الإلهام (ونفسـانى) وهـو مـا فـيه حـظ للـنفس (وشيطانى) وهو ما يدعو إلى مخالفة الحق، وقد سكن المصـنف الـراء مـن يخطر لضرورة الوزن، وقوله (ففيه) أى فيما يخطر على المريد أمور ظاهرة للشيخ (كالشموس المضيئة) فهو الذى يعرف الخواطر ويميز بينها ويرشد المريد لما يراه مناسباً لحاله فإن الشيخ يلزم أن يكون من أهل الفراسة أى النظر .

وفي الحديث: {اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ﷻ} .

وقـال أبـو سـعيد الخـراز: مـن نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق وتكون مواد علمه من الحق بلا سهو ولا غفلة بل حكم حق جرى على لسان عبد .

وقـال الواسـطى: إن الفراسـة سـواطع أنـوار لمعت فى القلوب . وتمكين معرفة جلت الأسـرار الكامـنة فـى الغـيوب . فصاحبها يشهد الأشياء من حيث اشهده الحق . فيتكلم إذ ذاك على ضمير الخلق .

ومـن غريب ما أتفق أن الشيخ محيى الدين اللقانى جاء ليأخذ الطريق من سيدى أبى السعود الجارحى فقال:

يظـن الـناس بـى خـيراً وأنـى أشـر الـناس إن لم تعـف عـنى

بنصب الـناس ففارقـه الشـيخ اللقـانى ساكتاً وقال فى نفسه هذا لا يعرف الفاعل من المفعـول ثـم إنـه رأى رؤيا تدل على رفعة مقام الشيخ فجاءه فلما رآه الشيخ قال الصواب رفع

الناس فقال اللقانى الله أكبر فقال له الشيخ كيف تطلب الطريق وأنت تفر من نصبه وتأتى برفعه فتاب واستغفر . ثم قال المصنف ﷺ:

وَمِنْهُ شُؤُنٌ كالسُّيُوفِ قَوَاطِع وَفِي كَتمِهِ حَجْبُ وَفَقْدُ نَتِيجَةِ

أى ومن الذى يخطر على قلب المريد (شئون) أى أمور لها شأن وهى الأحوال التى يكون بها صلاحه فتكون عند مرورها على القلب (كالسيوف) اللامعة ومن صفتها أنها (قواطع) للعوائق التى تعوقه عن حسن السير (وفى كتمه) أى وفى كتم المريد وعدم إظهار ما يخطر على قلبه لشيخه (حجب) بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم أى منع له عن الوصول إلى مقام الواصلين، (وفقد نتيجة) كانت تظهر له من المقدمات التى يبديها لشيخه فيكون بها من العارفين . غير أنه لا يبدى له إلا ما تكرر ودام من الخواطر وإلا فهى كثيرة جداً . ثم قال المصنف ﷺ:

وَتَحْسِينُهُ مَا حَسَّنَ الشَّيْخُ ثُمَّ مَا يُقَبِّحُهُ مِنْ بَعْدِ نَصْبِ الأدِلَّةِ

أى وفرض على المريد فى طريق الصوفيه تحسين ما حسنه الشيخ لجزمه بأنه لا يفعل إلا الحسن ثم تقبيح ما يقبحه لجزمه بأنه لا يقبح إلا القبيح فى الحقيقة وإن ظهر للمريد أن الأمر الذى حسنه الشيخ غير حسن بحسب ظاهر الأمر لأنه ينبغى له أن يحمل أفعاله شيخه التى ظاهرها الفساد على نحو من سبعين محملاً من الصحة والحسن فإن الشيخ ربما فعل ذلك مع مريده إختباراً لحاله وهو معه بالصدق فى أفعاله وأقواله. ومن ثم قال الخضر لموسى عليهما السلام لو صبرت لعلمتك ألف باب من العلم الغامض وقوله من بعد نصب الأدلة معناه أن المريد يلزمه أن يقيم الأدلة على تحسين ما حسنه شيخه وتقبيح ما قبحه إن كان فيه قوة على ذلك . ثم قال المصنف ﷺ:

وَإِنْ صَارَ يُخْفِى عَنْهُ شَيْئاً فَإِنَّهُ بذلِكَ يَعْصى عِنْدَ أَهْلِ الحَقِيقَةِ

أى (وإن صار) المريد يخفى أى يكتم عن شيخه شيئاً مما يرد عليه من الخواطر والأحوال التى تحتاج إلى الكشف عنها فإنه بذلك الكتمان (يعصى) أى يصير عاصياً عند (أهل الحقيقة) أى الصوفية لأنه حينئذ يكون كالساعى فى إهلاك نفسه وأما إذا أظهر له ذلك فإنه ينال شفاء أسقامه بمحاسن أدوائه . ثم قال المصنف ﷺ:

بَلِ الوَاجِبُ المَشْهُورُ إِيثَارُ أَمْرِهِ وَإِظْهَارُهُ بالصِّدْقِ دُونَ البَرِيَّةِ

بل للإضراب والإنتقال من أمر لآخر أى (بل الواجب) على المريد المشهور بين القوم

إيثار بكسر الهمزة أى تقديم أمره أى الشيخ وإظهاره بين الناس بالصدق أى موافقة الظاهر للباطن بحيث يكون المريد فى جميع نوازله الدينية والدنيوية موافق الظاهر للباطن حتى يكون سره وعلانيته سواء ليكون من الصديقين وقوله (دون البرية) أى الخلق بمعنى أن المريد يتبع ما يأمره به شيخه لا غيره من الناس . ثم قال المصنف ﷺ:

وَنَفْـــىُ خِـــلاَفٍ وَامْتِـــثَالٌ لأَمْـــرِهِ   وَإِبْـــدَاءُ وَارِدْهِ بِصَـــفْوِ السَّـــرِيرَةِ

أى ومن الواجب على المريد نفى (خلاف) يقه بينه وبين شيخه (وامتثال لأمره) دون منازعه (وإبداء) أى إظهار وارده بسكون الدال المهملة لضرورة الوزن أى ما يرد عليه من الخواطر (بصفو السريرة) أى السريرة الصافية من التكدير من ذلك وهذا البيت تأكيد لما تقدم . ثم قال المصنف ﷺ:

وَيُشْـهِدُهُ فِـى الْقُـرْبِ وَالـبُعْدِ عِـنْدَهُ   مُقِـيماً علَـى حَـالَىْ حُضُـورٍ وَغَيْـبَةِ

أى ومن الواجب على المريد أنه (يشهده) أى يلاحظ شيخه فى حال القرب منه والبعد عنه مقيماً عنده وقوله (على حالى حضور وغيبة) بفتح اللام تثنية حال وقد ذكره لتتميم البيت وإلا فهو مستفاد من صدره وعلى بمعنى فى وهذه المشاهدة تساعده على الربط القلبى الذى هو أعظم شرط عندهم . ثم قال المصنف ﷺ:

وَإِيـــثَارُهُ بِالمَـــالِ وَالـــرُّوحِ بِالرِّضَـــا   وَتَفْوِيضُـــهُ لله فِـــى كُـــلِّ طَـــرْفَةِ

أى ومن الواجب على المريد (إيثاره) أى تقديم شيخه بالمال على نفسه وافداؤه بالروح فى مواطن الهلكات مع تلقى ذلك بالرضا فإن أول قدم فى الطريق بذل الروح ومن الواجب عليه أيضاً (تفويضه لله) أى رده كل أمر لله تعالى مع التبرى من الحول والقوة (فى كل طرفة) عين أى تحريكها للنظر فإن الله هو الفاعل المختار ومن فوض إليه الأمر سلم من الأكدار.

التزام لبس الصوف

ثم قال المصنف ﷺ:

وَيَلْزَمُ لُبْسَ الصُّوفِ فَهْوَ شِعَارُ مَنْ تَلَقَّبَ بالصُّوفي بَيْنَ الْخَلِيقَةِ

أى ومن آداب المريد الداخل فى طريق القوم أنه يلزم أى يلازم لبس الصوف لما فى الحديث (عليكم بلباس الصوف تجدوا حلاوة الإيمان) . وقال ﷺ {براءة من الكبر لباس الصوف ومجالسة الفقراء المؤمنين وركوب الحمار واعتقال العنز وأكل أحدكم مع عياله} . وقد كانت الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام يستحبون لباس الصوف وتبعهم فى ذلك من مشى على سنتهم ولذا قال فهو شعار أى علامة من تلقب أى عرف واشتهر بالصوفى بين الخليقة أى الخلق فهو منسوب للصوف لكونه ملازماً للبسه وهذا على بعض الأقوال كما تقدم .

وكان الحسن البصرى يقول: من لبس الصوف تواضعاً لله ﷻ زاده نوراً فى بصره وقلبه .

وكان سيدى أحمد الرفاعى إذا رأى على فقير جبة صوف يقول له: يا ولدى انظر بزى من تزييت وإلى من قد أنتسبت قد لبست لبسة الأنبياء وتحليت بحلية الأتقياء هذا زى العارفين . فاسلك فيه مسالك المقربين . وإلا فانزعه والسلام .

ثم قال المصنف ﷺ:

وَيَتَّخِذُ الإبْرِيقَ مِنْ بَعْدِ مِئْزَرٍ وَقَدْ صَحَّ فى الأخْبَارِ إرْخَاءِ عَذْبَةِ

أى ومن آداب المريد أنه(يتخذ الإبريق) ليباشر طهارته بنفسه كما كان يفعل النبى ﷺ وقوله (من بعد مئزر) بكسر الميم وبالهمزة ويبدل ياء وهو ما يؤتزر به من قطن ونحوه لما روى أن النبى ﷺ كان يلبس الإزار .

وعن أبى بردة قال: أخرجت لنا عائشة ﵂ كساء ملبد أو إزاراً غليظاً وقالت: قبض رسول الله ﷺ فى هذين .

وذكر الواقدى أن طول ردائه ﷺ كان ستة أذرع فى ثلاثة أذرع وطول إزاره أربعة أذرع وشبرين فى ذراعين وشبر وحيث كان النبى ﷺ متباعد عن الدنيا وزينتها وراضياً منها بما يستر العورة فالصوفى التابع لسنته أولى بإتباعه فى الزهد فيها والتباعد عن زينتها والرضا منها بالكفاف وقد صح أى ثبت فى الأخبار الصحيحة (إرخاء) بكسر الهمزة أى إسدال

(عذبة) بين الكتفين وهى بفتحتين وإنما سكنت الذال فى البيت للضرورة طرف العمامة ثم بين مقدارها بقوله ﷺ:

وَتَطْوِيلُهَا فِتْراً لَقَدْ جَاءَ مُسْنَداً وَلِلنَّاسِ فى خَيْرُ الْوَرَى خَيْرُ أُسْوَةِ

أى (وتطويل) العذبة مقدراً (فتر) بكسر الفاء أى قريباً من شبر ومثله الشبر ونحوه إلى أن تبلغ ذراعاً فإن ذلك كله قد جاء مسند بفتح النون أى أسند الراوى على اختلاف الطرق والأحوال إلى النبى ﷺ .

وقد سئل ابن عمر كيف كان يعتم رسول الله ﷺ فقال: كان يدبر كور العمامة على رأسه ويغرزها من ورائه ويرخى ذؤابة بين كتفيه وقوله (وللناس فى خير الورى) أى الخلق وهو النبى ﷺ خير أى أعظم (أسوة) بضم الهمزة وكسرها أى اقتداء قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾(الأحزاب:٢١) . ثم قال المصنف ﷺ:

وَخَيْطاً وَمِخْيَاطاً ومُوسَى وَسُبْحَةً وَمَا كَانَ مُحْتَاجاً إِلَيْهِ لِفِطْرَةِ

أى ومن آدب المريد أن يتخذ (خيطاً ومخيطاً) بكسر فسكون أى إبره لأن شرط الفقير الصادق أن لا يكون عنده إلا ثوب واحد فيحتاج إلى مصاحبة ما ذكر لئلا يتخرق منه فتفسد عليه صلاته إذا انكشفت عورته فيستغنى بذلك عن سؤال الناس لأن سؤالهم داء عضال للمريد وما ألطف قول الصفى الحلى:

لا تكن طالباً لما فى يد النا س فيزور عن لقياك الصديق

إنما الذل فى سؤالك للنا س ولو فى سؤال أين الطريق

ويتخذ أيضاً موسى لتحسين هيئته وحلق عانته ويتخذ أيضاً سبحه بضم السين المهملة لأجل الذكر فإنها تذكره ذلك وهى من شعار الصالحين . كما قال بعضهم فيها:

ومنظومة الشمل يخلو بها الـ ـبيب فيتجمع من همته

إذا ذكر الله جل اسمه عليها تفرق من هيبته

وقيل للجنيد: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحه فقال طريق به وصلت إلى ربى لا أفارقه، يعنى أنه لم يزل ملازماً على ما اعتاده فى بدايته من الأوراد فإن المدد فى مداومتها وهى مجموع الأذكار والأدعية ونوافل الخيرات .

كما قال سيدى إبراهيم الدسوقى: ما قطع مريد ورده يوماً إلا قطع عنه الإمداد فى ذلك اليوم فإن طريق القوم تحقيق وتصديق وعمل وتنزه وغض بصر وطهارة يد وفرج ولسان فإن خالف شيأ من ذلك رفضته الطريق ولو كرهاً أ هـ .

وبقى مما يلزم المريد اتخاذه أمور منها السواك وهو عود الأراك . الذى قال فيه بعضهم:

بــالله إن جــزت بــوادى الأراك وقبلــت أغصــانه الخضــر فــاك

فابعــث إلى الملــوك مــن بعضــها فأنــنى والله مــالى ســواك

ولـه فضائل كثيرة ومنها المشط لتسريح الشعر وينبغى أن يبدأ فى تسريح لحيته بالجانب الأيمن ويقرا (الفاتحة) ثم يقرأ (ألم نشرح) عند تسريح الأيسر (وقل هو الله أحد) عند تسريح الأسفل، فأنه يرى الفتح العظيم . والتيسير الجسيم ومنها العكاز فإن حمل العصا من شعار الصالحين لأنهم دائماً مسافرون إلى الآخرة كما قال بعضهم:

حملت العصا لا ضعف أوجب حملها علـى ولا أنـى تحنيـت مـن كـبر

ولكنـنى ألزمـت نفسـى حمـلها لأعـلمها أنـى المقـيم عـلى سـفر

ولعله أدخل ذلك فى قولَه وما كان محتاجاً إليه لفطره بكسر الفاء وسكون الطاء المهملة .

قال الكرمانى: الفطرة السنة القديمة التى أختارها الأنبياء واتفقت عليها الشرائع فكأنه أمر جبلى فطروا أى خلقوا عليه .

وقال ابن العربى: الفطرة أصل الخلقة وعلى كل فالمراد بها هنا خصال يكمل بها الإنسان ثم قال المصنف ﷺ:

(العزله من أركان الطريق)

وَيَعْـتَزِلُ الْخَلْـقَ الْجَمِـيعَ وَفِعْـلَهُمْ كَـذاكَ وُلاَةَ الأمْـرِ فـى دَارِ دُنْـيةِ

أى ومن أركان الطريق أن (يعتزل) المريد (الخلق) الذين لا خير فيهم جميعهم ويترك فعلهم خصوصاً . (ولاة الأمر) الذين تولوا شيأ من أمور الدنيا الدنيه فإن الخلطة بهم مبعدة عن التقرب إلى رب البرية .

وقد حكى: أن الخليفة المنصور لقى سفيان الثورى فقال لَه ما يمنعك أن تأتينا يا أبا عبد الله فقال أن الله سبحانه نهانا عنكم حيث يقول: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا

﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾(هود:١١٣) . (ودخل) عليه يوماً وقد أرسل إليه فقال له سل حاجتك فقال أو تقضيها قال نعم قال حاجتى أن لا ترسل إلى حتى آتيك ولا تعطينى شيأ حتى أسألك ثم خرج فقال المنصور ألقينا الحب للعلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان .

(وما ألطف قول بعضهم):

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعظما

ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما

وكتب سفيان إلى عابد من العباد يقول له : أعلم يا أخى أنك فى زمان كان أصحاب رسول الله ﷺ يتعوذون أن يدركوه ومعهم من العلم ما ليس معنا ولهم من القدم ما ليس لنا فكيف بنا حين أدركناه على قلة العلم. وقلة الصبر، وقلة الأعوان على الخير وفساد من الزمان. فعليك بالخمول فإن هذا زمان خمول وعليك بالعزلة وقلة مخالطة الناس وقد كان الناس إذا التقوا انتفع بعضهم ببعض فأما اليوم فقد ذهب لك فالنجاة الآن فى تركهم فيما ترى. وإياك يا أخى والأمراء أن تدنوا منهم أو تخالطهم فى شئ من الأشياء ويقال لك تشفع أو تدرأ عن مظلوم أو ترد مظلمة فإن ذلك من خديعة إبليس وإنما أتخذ ذلك القراء سلماً للقرب منهم واصطياد الدنيا بذلك .

وكان يقول للمهدى: احذر من هؤلاء الأعوان والمترددين عليك من الفقراء والفقهاء فإن هلاكك على أيديهم يأكلون طعامك ويأخذون دراهمك ويغشونك ويمدحونك بما ليس فيك .

ونصح يوماً إنساناً رآه فى خدمة الولاة فقال: فما أصنع بعيالى فقال ألا تسمعون لهذا يقول أنه إذا عصى الله رزق عياله وإذا أطاعه ضيعهم .

وكان يقول: إذا رأيتم العالم يلوذ بباب السلطان فاعلموا أنه لص وإذا رأيتموه يلوذ بباب الأغنياء فاعلموا أنه مراء .

وكان يقول: هذا زمان لا يأمن فيه الخامل على نفسه فكيف بالمشهور فيه .

وكان يقول: هذا زمان عليك فيه بخويصة نفسك ودع العامة أ هـ . وما ألطف قول بعضهم يمدح العزلة:

أخص الناس بالإيمان عبد ... خفيف الحاد مسكنه الغفار

لَـه فـى الليل حـظ مـن صلاة ... ومـن صـوم إذا طلـع النهار
وقـوت النفس يأتيها كفافـاً ... وكـان لَـه عـلى ذاك اصطبار
وفـيه عفـة وبـه خمـول ... إلـيه بالأصـابع لا يشـار
فذلـك قـد نجـى مـن كـل شـر ... ولم تمسـه يـوم البعـث نـار

والحاذ بتخفيف الدال المعجمة الظهر (وحكى) أنه وجد تحت وسادة الغزالى هذه الأبيات:

كنـت عـبد والهـوى حـاكمى ... فصـرت حـراً والهـوى خـادمى
وصـرت بالعـزلة مستأنسـاً ... مـن شـر أنـواع بـنى آدم
مـا فـى اختلاف الناس خـير ولا ... ذو الجهـل بالأشـياء كالعـالم
يـا لائمـى فـى تـركهم جـاهلاً ... عـذرى منقوش عـلى خـاتمى

فنظروا فإذا نقشه وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ولبعضهم:

نصـحتك لا تغـترر بالمقـال ... فـرب فعـال أنـت بالنقـيض
ولا يخدعـنك بشـر الوجـوه ... فـإن الصـواعق تحـت الومـيض
ويـا طالمـا كـان فـى العـائدين ... خلـيل تمـنى وفـاة المـريض

(وما ألطف قول بعضهم):

لا تركـنن إلى ذى منظر حسـن ... فـرب رائقـة قـد سـاء مخـبرها
مـا كـل أصـفر ديـنار لصـفرته ... صـفر العقـارب أرداهـا وأنكـرها

(وما أصدق قول بعضهم):

مـن لم يكـن فـى الله خلـته ... فخلـيله مـنه عـلى خطـر

(وللصفدى):

وجـدت فـى عشـرة صـحبى أذى ... مـا لزمـت البيـت فـى الوقـت زال

يــا عجــباً مــن أشــعرى غــدا يحمــد رأى الــناس فــى الاعــتزال

وقال بعضهم:

لا أرى كـــثرة التصـــادق إلا تعـب القلـب فـى اقتضـاء الحقـوق
فاصـرف الـود عـن كـثير مـن الـنا س فمـا كـل مـن تـرى بصـدوق

وقال آخر:

عديـرى مـن الإنسـان مـا أن جفونـه صـفا لى ولا أن صـرت طـوع بدايـه
وأنـــى لمشـــتاق إلى ظـل صـاحب يـروق ويصـفو ان كـدرت علـيه

وما ألطف قول الصفى الحلى:

ولـيس صـديقاً مـن إذا قلـت لفظـة يحـاول فـى أثـناء موقعهـا أمـراً
ولكـنه مـن لـو قطعـت بـنانه توهمـه قصـداً لمصـلحة أخـرى

ولعزة الأخ المشاكل . أتضح قول القائل:

إنـى لأفـتح عيـنى حـين أفـتحها عـلى كـثير ولكـن لا أرى أحـداً

ولله در أبى المواهب الشاذلى حيث قال:

تغـير أحـوان هـذا الـزمان فكـل خلـيل عـراه الخلـل
وكـانوا قديمـاً عـلى صـحة وقـد داخلـتهم حـروف العلـل
قضـيت التعجـب مـن أمـرهم فصـرت أطـالع بـاب الـبدل

وكان يقول: إياك وعثرات اللسان عند بعض الأصدقاء فقد أصيب من هذا الباب خلق كثير لثقتهم بأصدقائهم وما علموا أنهم جعلوا ذلك سلاحاً لوقت العداوة فإياك ثم إياك أ هـ . وأخذ بعضهم هذا المعنى فقال وأجاد:

أحـــذر عـــدوك مـــرة وأحـــذر صـــديقك ألـــف مـــره
فلـــربما انقلـــب الصـــديـ ـــق فكـــان أدرى بالمضـــرة

وفساد الزمان يوجب شكر من كان شره مقطوعاً . وإن كان خيره ممنوعاً . كما قال المتنبى:

إنا لفى زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمال

فعليك أيها العاقل بتجنب الأشرار . وصحبة الأخيار . إن كانوا على حد ما قيل:

أحب من الإخوان كل مواتى ... وكل غضيض الطرف عن عثراتى

يوافقنى فى كل أمر أريده ... ويحفظنى حياً وبعد وفاتى

فمن لى بهذا ليت أنى أصبته ... فقاسمته مالى من الحسنات

(أو على حد ما قيل):

اصحب من الأخوان من وده ... أصفى من الياقوت والجوهر

ومن إذا سرك أودعته ... لم يذكر السر إلى المحشر

ومن إذا غيبت عن عينيه ... أقلقه الشوق ولم يصبر

ومن إذا أذنبت ذنباً أتى ... معتذراً عنك ولم يهجر

وقليل ما هم . وإن أتعبت نفسك لا تراهم . فاحبس نفسك فى زاوية العزلة . فإن عزلة المرء عزله . ولقد أنصف من قال:

هم الناس والدنيا ولابد من قذى ... يلم بعين أو يكدر مشربا

ومن قلة الإنصاف أنك تبتغى الـ ... ـمهذب فى الدنيا ولست المهذبا

وينبغى أن تكون العزلة بعد التحقيق بالعلم والزهد فإنها بغير عين العلم زلة، وبدون زاى الزهد علة . ويلزم المريد أن يقصد باعتزاله عن الخلق سلامتهم من شره فإن من استصغر نفسه كان من المتواضعين . ومن رأى لها مزية على غيره كان من الهالكين . وقد أشبعنا الكلام على هذا المبحث فى كتابنا (تحفة العصر الجديد) . فعليك به أن أردت المزيد، ومن النصائح فى التحذير من الدنيا الدنيه قول بعضهم:

يا مولعاً بالأمانى غير معتبر ... كيف الأقامة والدنيا على سفر

لا تركنن إلى دار الغرور ولا ... تسكن إلى وطن فيها ولا وطر

وسالم الناس تسلم من مكائدهم مسلماً لقضاء الله والقدر
كم منحة بدرت ما كنت تأملها ومحنة لم تكن منها على حذر

وقال آخر:

ألم تر أن المرء طول حياته معنى بأمر لا يزال يعالجه
يدور كدود القز ينسج دائماً ويهلك غماً وسط ما هو ناسجه

وقال أبو العتاهية:

عش ما بدا لك سالماً في ظل شاهقة القصور
يسعى إليك بما اشتهيت لدى الرواح وفي البكور
فإذا النفوس تغرغرت بزفير حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً ما كنت إلا في غرور

وللسيد الرضى:

ما أسرع الأيام في طينا تمضي علينا ثم تمضي بنا
في كل يوم أمل قد نأى مرامه عن أجل قد دنا
أنذرنا الدهر وما نرعوى كأنما الدهر سوانا عنى
فعابث والموت في جسده ما أوضح الأمر وما أبينا

وقال التهامي:

تنافس في الدنيا غرور وإنما قصارى غناها أن تعود إلى الفقر
وإنا لفي الدنيا كركب سفينة نظن وقوفاً والزمان بنا يجري

وما ألطف قول بعضهم:

ألا إنما الدنيا كأحلام نائم وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل إذا ما نلت بالأمس لذة وأفنيتها هل أنت إلا كحالم

ومما ينسب إلى الإمام على كرم الله وجهه:

أن الذيـــن بـــنوا فطـــال بـــناؤهم ... واســـــتمتعوا بالمـــــال والأولاد

جـرت الديـار عـلى محـل ديـارهم ... فكـــأنهم كـــانوا عـــلى مـــيعاد

ولما سئل ﷺ فى أيام شيخوخته عن حاله فقال: هو ذا أموت قليلاً قليلاً.

وكان يقول: إذا أدركت الدنيا الهارب منها جرحته وإذا أدركت الطالب لها قتلته.

وكان يقول: سرور الدنيا أن تقنع بما رزقت وغمها أن تغتم لما لم ترزق.

وكان: بعض العارفين يقول ما أصنع بدنيا إن بقيت لم تبق لى وإن بقيت لم أبق لها.

وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن تعرف قدر الدنيا فانظر عند من هى.

وقال بعض العارفين: دخلت المارستان فرأيت مجنوناً مقيداً فوقفت عنده متفكراً فقال يا أخى لا تفكر فالدنيا إن حلت أنحلت، أو جلت أوجلت. أو حلت أوحلت، أو كست أوكست. أو هنت أوهنت. فالسعيد من خرب رباعها، وإن مدت إليه باعها باعها، كم من قبور تبنى ولا تبنا. وكم من مريض عدنا ولا عدنا. يا مغتراً بالسلامات كم من عاشق سلا مات. وكم من ملك دقت له الطبول ونشرت على رأسه العلامات فلما علا مات، فلما سمعت كلامه اتعظت له وقلت فى نفسى أنا المجنون ثم حول رأسه على وجعل يخلط كلامه.

ومن كلام بعض البلغاء: الدنيا إن أقبلت بلت، أو أدبرت برت، أو أطنبت نبت، أو أركبت كبت. أو أبهجت هجت. أو أسعفت عفت، أو أينعت نعت، أو أكرمت رمت، أو عاونت ونت، أو ماجنت جنت، أو سامحت محت، أو صالحت لحت. أو واصلت صلت، أو بالغت لغت، أو وفرت فرت، أو زوجت وجت، أو نوهت وهت، أو ولهت لهت، أو باسطت سطت.

ولله در القائل:

مـــن نـــال مـــن دنـــياه أمنـــية ... أســـقطت الأيـــام مـــنها الألـــف

(وقال آخر):

ألا يـــا نفـــس أن ترضـــى بقـــوت ... فأنـــت عزيـــزة أبـــداً غنـــية

دعـــى عـــنك المطـــامع والأمـــانى ... فكـــم أمنـــية جلبـــت منـــية

ومن حكم سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام الدنيا ثلاثة أيام يوم مضى وليس بيدك منه شئ، ويوم يأتى لا تدرى أتدركه أم لا، ويوم أنت فيه فاغتنمه وما ألطف ما قيل:

إنما هذه الحياة متاع والغرور الغرور من يصطفيها

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيها

وقال بعضهم: الدنيا ساعة . فاجعلها طاعة . ثم قال المصنف ﷺ:

وَلاَ يَلْتَفِتْ يَوْماً إلى غَيْرِ شَيْخِهِ فَذَلِكَ وَصْفٌ مُوجِبٌ لِلْقَطِيعَةِ

أى ينهى مريد التربية الصادق على الهمة عن أن يلتفت يوماً أو بعضه إلى غير شيخه المستجمع للخصال الحميدة شرعاً وهو شيخ التربية فإن ذلك الالتفات إلى شيخ آخر وصف قبيح موجب للقطيعة عن الحصول . على ما به الوصول وأما إذا كان الشيخ من الذين قيل فيهم « من بعض واصفيهم:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها

فلا يكون له هذا الحكم ولذا قال الإمام الشعرانى فى الأنوار القدسية: (أحذر أن تقتصر على شيخ واحد فى هذا الزمان فإنه تحجير عليك وقلة نفع لك بل اعتقد فى كل شيخ يحصل لك الخير على يديه وإنما كان أهل العصر الخالى يقيدون بذلك على تلامذتهم لأنهم كانوا أولياء عارفين بالله وبالأحكام حتى لو فقدوا الجواب من طريق النقل أجابوا من طريق الكشف وأما مشايخ هذه الزمان فليس معهم من العلم اللدنى شئ)أ هـ .

وقال الإمام الغزالى: (أن متصوفة أهل هذا الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزى والمنطق والهيئة من السماع والرقص والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله فى الجيب كالمتفكر وتنفس الصعداء وخفت الصوت فى الحديث إلى غير ذلك فظنوا بذلك أنهم منهم فلم يتعبوا أنفسهم فى المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية) .

وكل ذلك من أوائل منازل المتصوفة ولو فرغوا جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم من الصوفية ، كيف ولم يحرموا أحولها قط بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون فى الفلس والرغيف والجبة ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بعضهم أعراض بعض وليسوا من الرجال بل هم أعجز من العجائز فى المعارف فإذا كشف

عنهم الغطاء فوا فضيحتاه على رؤس الأشهاد أ هـ . ثم قال المصنف ﷺ:

وَإغْضَاضُـهُ لِلطَّـرْفِ حَـالَ جُلُوسِـهِ لَدَيْـهِ وَفـى حـالاَتِ نَـسٍ وَوَحْشَـةِ

أى ويجب على المريد أغضاضه الطرف بسكون الراء أى البصر بمعنى أنه يحبس بصره عن النظر إلى شيخه حال جلوسه لديه أى عنده إجلالاً له ويستصحب ذلك فى جميع الحالات لا فرق بين حالة الانس التى من شأنها أن ترتفع فيها الحشمة لحصول الانبساط بالمحبوب ولا بين حالة الخلوة عن الناس فيلزمه مراعاة هذا الأدب فى جميع الحالات فإنه يرقى بذلك فى طريق القوم أعلى الدرجات . ثم قال المصنف ﷺ:

وَيَـرْفَعُ تَوْقِـيراً كَـبيراً لِسِـنِّهِ كَـذَا فَاضِـلاً عَـنْهُ وَلَـوْ ابْـنَ لَـيْلَةِ

أى ويجب على المريد أن يرفع قدر الكبير فى السن لأجل توقيره أى تعظيمه فقوله توقيراً مفعول لأجله مقدم على المفعول به الذى هو كبيراً .

وفى الحديث: {ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا} .

وقال ﷺ: {من إجلال الله أكرام ذى الشيبة المسلم} .

وورد: ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه وقوله كذا فاضلاً أى وكذا يجب على المريد أن يرفع فاضلاً أى زائداً فى الفضل عنه ولو كان ابن ليلة واحدة لأن الله سبحانه يخص بفضله من شاء ولا يتوقف فضله على عمل ولا على طول أجل فإن السعادة قبل الولادة وقد قيل أن أبا يزيد البسطامى كان إذا أكلت أمه طعاماً فيه شبهة لا يقبل ثديها فى ذلك اليوم . ثم قال المصنف ﷺ:

وَيَـرْفَعُ أَبْـنَاءَ الطَّـرِيق وَيَتَّصِـفُ بِأَوْصَـافِهِمْ يَسْـمُو بِـنَفْسٍ زَكِـيَّةِ

أى ومن الواجب على المريد أنه يرفع أى يعظم أبناء الطريق الواصلين المتصفين بمكارم الأخلاق ويتصف بالسكون لأجل الوزن أى يتخلق بأوصافهم المحمودة فأنه عند ذلك يسمو أى يعلو إلى مقام الأبرار بنفس زكية أى طيبة طالبة لمرضاة العزيز الغفار .

وكان: سيدى إبراهيم الدسوقى يقول الفقراء كالملوك فمن لم يعرف أدب الملوك لا ينبغى له مجالستهم لأنه ربما جره عدم احترامهم إلى العطب .

وقال أبو مدين الغوث:

مـا لـذة العـيش إلا صـحبة الفقـرا ... هـم السـلاطين والسـادات والأمـرا
فاصـحبهمو وتـأدب فـى مجالسـهم ... وخـل حظـك مهمـا قدمـوك ورا
واسـتغنم الوقت واحضـر دائماً معهم ... واعـلم بـأن الرضـا يـأتى لمـن حضـرا

قـال بعـض المـريدين لأستاذه متى نصل إلى مقامك يا سيدى فقال له حتى يصير أقل أخوتـك الفقـراء عندك فى منزلتى يشير إلى أن تعظيم مقام المريدين. واسطة انتظام هذا العقد الثمين. ولذا قال المصنف ﷺ:

فَتَعْظِـيمُهُمْ أَجْـرٌ وَتَحْقِـيرُ نَفْسِـهِ ... وَإِنْصَـافُهُمْ مِـنْها جَدِيـرٌ بِجَـنَّةِ

أى فتعظيم أبـناء الطـريق سـبب للأجـر والـثواب، لأنـه فـى الحقـيقة تعظيم للملك الوهـاب، وتحقـير نفسـه أى المريد بأن يعدها أمر حقيراً وإنصافهم أى أبناء الطريق منها أى مـن نفسـه بـأن يعـترف لهـم بحقوقهـم عليها جدير أى حقيق بجنة والمراد أن من فعل هذه الخصال، كان من السابقين الحائزين فى الجنة مراتب الكمال .

تنبـيه: كـان سـيدى إبراهـيم الدسـوقى يقول لا يكون الفقير فقيراً حتى يكون حمالاً لـلأذى مـن جمـيع الخلـق إكراماً لمن هم عبيده ﷺ فلا يؤذى من يؤذيه، ولا يتحدث فيما لا يعنـيه. ولا يشـمت بمصـيبة، ولا يذكـر أحـداً بغيـبة، ورعـاً عـن المحـرمات، موقوفـاً عـن الشـبهات، إذا بلى صبر، وإذا قدر غفر، غضيض الطرف يعمر الأرض بجسده والسماء بقلبه طريقه الكظم والبذل والإيثار والعفو والصفح والاحتمال .

ثم قال المصنف ﷺ:

وَبَـــرُّهُمُو إِنْ تَسْـــتَطِعْهُ فَوَاجِـــبٌ ... وَإِنْقَـاذُهُمْ مِـنْ كُـلِّ ضَـيْقٍ وَشِـدَّةٍ

يعـنى أن بر أبناء الطريق بمعنى التوسعة عليهم، والإحسان إليهم، واجب فى طريق القـوم مـع الأسـتطاعة وكذلـك يجب انقاذهم أى تخليصهم من كل ضيق اعتراهم وشدة نزلت بهـم. لما فى الحديث: {من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يـوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه} أ هـ .

فقـم أيهـا المـريد بمـا يلـزم الأخـوان، وبـادر بما يخلصهم من الشدة إن كنت من أهل

العرفان. ولا تكن كمن قيل فيه، من بعض واصفيه:

إذا كنت في اليسر لا ترتجى ... ولا لك فضل ولا توسعة

فما أنت إلا كمن لم يكن ... وإن كنت ذا ضيعة واسعة

ولا كمن قيل فيه عند عيادة أخيه:

لما مرضت زارني ... من ليس معه خردلة

تعساً لَه من زائر ... وعائد بلا صلة

بل كن كصاحب هذه الفضيلة التى تقر بها العين. وهى أن بعض الظرفاء مرض فكتب إلى السلطان هذين البيتين:

أنظر إلى بعين مولى لم يزل ... يولى الندى وتلاف قبل تلافى

أنا كالذى أحتاج ما يحتاجه ... فاغنم دعائى والثناء الوافى

فحضر السلطان إلى عيادته بنفسه وأتى إليه بألف دينار وقال لَه أنت الذى وهذه الصلة وأنا العائد ولا يخفى ما فى قولَه وإنا العائد من حسن التورية فأنه يحتمل أنه عائد الموصول وهو الذى وأنه من العيادة وأنه من العود بالصلة مرة أخرى.

وفى الحديث الشريف: (أن من موجبات المغفرة إدخالك السرور على أخيك المسلم ومن جملة بر الإخوان المصافحة كلما لقيهم.

لما فى الحديث: {إذا تصافح المسلمان لم تفترق أكفهما حتى يغفر لهما ومن جملة برهم ملاقاتهم بالترحيب وطلاقة الوجه}.

لما فى الحديث: {إن للقادم دهشة فتلقوه بالترحاب ومن جملة برهم أن يفرش لهم شيأ يقيهم من التراب}.

لما فى الحديث: إذا زار أحدكم أخاه فألقى لَه شيأ يقيه من التراب وقاه الله عذاب النار ومن جملة برهم التفسح لهم فى المجالس.

لما فى الحديث: {إن للمسلم حقاً إذا رآه أخوه أن يتزحزح لَه ومن آداب الصحبة السؤال عن اسم الصاحب واسم أبيه}.

لما في الحديث: {إذا آخيت رجلاً فاسأله عن أسمه واسم أبيه فإن كان غائباً حفظته وإن كان مريضاً عدته وإن مات شهدته} .

وورد: إذا أحب أحدكم أخاه في الله فليعلمه فإنه أبقى للألفة وأثبت في المودة وقد قسموا الصحبة إلى ثلاثة أقسام (صحبة مع من هو أعلى) وهي في الحقيقة خدمة له (وصحبة مع من هو أدنى) وهي تقضى على المتبوع بالشفقة والرحمة وعلى التابع بالوفاق والحرمة (وصحبة الاكفاء والنظراء) وهي مبنية على الايثار والفتوة، والتغابى أي التغافل عن زلات الصديق فإن ذلك من مقتضيات الأخوة، على حد ما قيل:

ليس الغبي بسيد قومه ... لكن سيد قومه المتغابى

واعلم: أنه ينبغي الاستكثار . من الإخوان الأخيار .

لما في الحديث: {استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة يوم القيامة} .

وقال ﷺ: {رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس وأن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة وأن أهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر الآخرة وأن صنائع المعروف تقى مصارع السوء} .

وقال الإمام الشافعي: لولا صحبة الأخيار، ومناجاة الحق بالأسحار، وما أحببت البقاء بهذه الدار .

وقال الإمام الشافعي: عليك بصحبة الفقراء فإنه لو لم يكن إلا أخذهم بيدك يوم القيامة مع ما يحملون عن أصحابهم في دار الدنيا من المصائب لكان في ذلك كفاية.

ثم قال المصنف ﷺ:

إذا جازَ هذا الوَصْفَ أَعْنى جَميعَهُ ... فَبَشِّرْهُ بالقُرْبِ السَّنِيِّ لِحضْرَةِ

يعنى إذا حاز المريد هذا الوصف أي الأوصاف السابقة لأن أل في الوصف للجنس فيشمل جميع ما تقدم من الأصول والأركان والآداب ولذا قال: أعنى جميعه أي جميع ما سبق فبشره أي فبشر هذا المريد الصادق بالقرب السنى نسبة إلى السناء بالمد أي الرفعة وهو قرب معنوى لكونه لحضرة الله جل وعلا .

الغناء والرقص فى الذكر

ثم قال المصنف ﷺ:

وَيَظْفَرُ بِالدَّارِ التى عَزَّ وَصْفُها وَفِيهَا البُدُورُ الْغِيدُ أَسْقَتْ وَغَنَّتِ

أى ويفوز هذا المريد الصادق بالدار الآخرة وهى الجنة وإنما قال التى عز وصفها لأن فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فلا يمكن وصفها حقيقة تفصيلاً إلا بعد المعاينة وأما وصف ما فيها على سبيل الإجمال فهو ممكن ولذا قال وفيها البدور أى الحور العين التى تشبه البدور أى الأقمار فى الحسن وهذا على سبيل التقريب . وإلا فقد ورد أن الحوراء لو أبرزت أنملة من أناملها إلى دار الدنيا لغلب ضوءها على ضوء الشمس .

وقولَه الغيد بكسر الغين المعجمة أى الناعمات فى لين يقال امرأة غادة أى ناعمة لينة .

وقولَه أسقت أى ناولت الإناء الذى يستقى منه يقال سقيته وأسقيته يأتى ثلاثياً ورباعياً فمن الأول قولَه تعالى: ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾(الانسان:٢١) ومن الثانى قولَه تعالى: ﴿ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً ﴾(الجن: ١٦) .

وقولَه وغنت من الغناء بالكسر والمد وهو الصوت الذى فيه ترنم يحصل به الطرب وأما بالكسر والقصر فهو اليسار .

وفى الحديث: {أن الحور العين يغنين أزواجهن فى الجنة بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الحور الحسان خلقن لأزواج كرام} .

فائدة: سئل بعضهم عن سماع الغناء بالألحان المطربة عند الذكر أو بعده . فقال: قد حرمه من لا ينكر عليه لصدق مقاله . وأباحه من لا يعترض عليه لقوة حاله، فمن كان عنده شئ من نور المعرفة فليتقدم، وإلا فالوقوف عند ما لَه الشارع أولى وأسلم، والله أعلم .

وسئل بعضهم: عن جماعة يجتمعون وينشد لهم المنشد أبياتاً فى المحبة وغيرها فمنهم من يتواجد حتى يصير كأنه يرقص ومنهم من يصيح ويبكى ومنهم من يغشاه شبه الغيبه عن حواسه . فأجاب بقولَه:

الرقص نقص والسماع رقاعة وكذا التواجد خفة فى الرأس

والله ما رقصوا لطاعة ربهم بل للذى طحنوه بالأضراس

وقال بعضهم فى ذلك:

صوفية الوقت فيهم ... من البراغيث قرب

فيهم خصال ثلاث ... أكل ورقص ودب

والصحيح أنه لا بأس بسماع الإنشاد المحرك للأحوال السنية . الخالى عما يوجب الخروج عن حد الشريعة المطهرة المرضية، إذا كان السامع من أهل هذه المراتب الثلاث فانهم قسموا أهل السماع إلى ثلاثة أقسام منهم من يشاهد الوعيد فيرهب، ومنهم من يشاهد الوعد فيرغب . ومنهم من يشاهد الحق فيطرب، ولا لوم على من بلغ هذه المقامات، إذا تواجد مما سمع من النغمات، فقد حكى أن سفيان الثورى سمع من يقول:

أتوب إلى الذى أضحى وأمسى ... وقلبى يتقيه ويرتجيه

تشاغل كل محبوب بشغل ... وشغلى فى محبته وغيه

فجعل يبكى ويتواجد ويكرر قولَه وشغلى فى محبته وفيه .

وحكى أن ذا النون المصرى لما دخل بغداد دخل عليه جماعة ومعهم قوال فاستأذنوه أن يقول شيأ فأذن لَه فأنشد:

صغير هواك عذبنى ... فكيف به إذا احتنكا

وأنت جمعت من قلبى ... هوى قد كان مشتركا

أما ترثى لمكتئب ... إذا ضحك الخلى بكى

فطاب قلبه وتواجد حتى سقط على جبهته وتقاطر منها الدم .

وسمع الشبلى قائلاً يقول:

أسائل عن سلمى فهل من مخبر ... يكون لَه علم بها أين تنزل

فزعق وقال لا والله ما فى الدارين مخبر وكان المصنف يتواجد إذا سمع المنشد يقول:

رعى الله أياماً تقضت بقربكم ... فما كان أهناها وأحلى وأطيبا

وكان شيخ الشيوخ صدر الدين ممن يحب السماع وكان لَه قوال وحيد فى صناعة

الغناء فوقعت منه هفوة وتقصير فى خدمة الفقراء فطرده وهجره عاماً وأحضر قوالاً غيره فلما ضاق به الحال جاء مستخفياً إلى الرباط بعد أن اجتمع فيه الشيخ وجماعته وأنشأ يقول:

جئت مستخفياً وقد عرفونى ... ها أنا تائب فهل يقبلونى

أنا بالباب واقف لى دهر ... كلما رمت وصلهم أبعدونى

أبعدونى وقربوا الغير دونى ... ولهذا أموت من غير حين

لم أكن للوصال أهلاً ولكن ... أنتموا فى الوصال أطمعتمونى

كنت إن جئت قيل أهلاً وسهلاً ... وأنا اليوم يغلق الباب دونى

فاجبروا كسر مذنب قد أتاكم ... يرتجى عفوكم بكم فارحمونى

فى بحار الهوى غرقت بوجدى ... طال شوقى لهم وقد تركونى

أيها النفس ساعدينى ونوحى ... ويح قلبى أحبتى هجرونى

فطاب شيخ الشيوخ عند ذلك وقام وسط الحلقة إلى أن وصل إليه وأخذ بيده وأجلسه على سجادته وخلع عليه وطاب القوم وكانت ليلة عظيمة فلا يصلح السماع إلا لمن كان قلبه حياً ونفسه ميتة وأما من كان قلبه ميتاً ونفسه حية فلا، وكل هذا ما لم يكن المنشد أمرد تنجذب النفوس إليه، وإلا كان المنع متفقاً عليه .

وقد سئل ابن سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن، فقال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن جلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن صعقوا كانوا من الصادقين .

وسئل الشبلى عن السماع فقال ظاهره فتنة وباطنه عبرة فمن عرف الإشارة من الكلام حل له استماع العبرة وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية أ هـ .

والحاصل أن السماع عندهم لا يكون مباحاً إلا بشروط منها، أن يكونوا فى مكان لا يطلع عليهم فيه غيرهم، وأن يكون القوال ملتحياً، وأن يكون كلامه مما تقوى به قلوبهم على السير إلى الله تعالى بالترقى إلى المقامات العلية، وأن يكون بغير أجرة، وأن لا يكون معهم شبان، وأن يكون سماعهم مع السكون والأدب لا مع الحركة والرقص وضرب الأرض بالأقدام بإظهار التواجد، ولا سيما إذا كان ذلك فى المساجد على الطريقة المعلومة الآن مع رفع الصوت بالألحان المهيجة للشهوات، وتمايل الأمرد الجميل بالحركات والسكنات، فإن

ذلك حرام بإجماع المسلمين، ولا يقول بحله إلا من ابتدع أو تزندق أو كان من الضالين المضلين. خصوصاً إذا اجتمع مع ذلك التصفيق، أو الضرب على مثل الدف فى المسجد الذى جعلوه على طريقهم كالطريق، مع أنه ينزه عن رفع الصوت المشوش على المصلين حتى بالقرآن الكريم، فإن دام هذا فلا يسعنا إلا أن ترفع أكف الشكوى لله فتقول سبحانك هذا بهتان عظيم . ثم قال المصنف ﷺ:

يُشَاهِدُ أقْمَاراً بِهَا وَعَرَائِسَا ويَشْرَبُ مِنْ كأسِ الْهَنا والْمَسَرَّةِ

أى يشاهد هذا المريد الواصل إلى درجات الكمال، أقماراً فى الجنة وعرائس فى غاية الحسن والجمال، ولعله أراد بالأقمار الولدان، وبالعرائس الحور الحسان .

(وقد روى): أن الواحدة من الحور العين تلبس سبعين حلة ومع ذلك يرى مخ ساقها من وراء الحلل من الحسن . وللمؤمن فى الجنة سبعون حورية أو أكثر على حسب مراتب الأعمال، وما ينوف عن ألف خادم من الولدان الذين لا يفنى شبابهم ولا يعتريهم زوال. ويشرب المريد بمناولة الحور والولدان له من كاس الهنا والمسرة قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾(الانسان:٥) والهنا بالقصر الفرح والمسرة والسرور، بما أعده له العزيز الغفور، ثم قال المصنف ﷺ:

هُنَاكَ الْكِرَامُ النَّازِلُونَ مِنَ العُلاَ مَنازِلَ أَفْرَادٍ مَعَاهِدَ سَادَةِ

الإشارة بهناك إلى الجنة التى أعدها ذو الجلال والإكرام، لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام. فإن الموصفين بهذه الأوصاف ينزلون فيها من الدرجات العلى منازل أفراد، مخصوصين بمزيد الإكرام من المنعم الجواد، وتوصف تلك المنازل بكونها معاهد سادة من الناس أى أماكنهم التى عهدت لهم فإن المعهد المنزل والسادة جمع سيد وهو من له السيادة على غيره . قال المصنف:

بحيْثُ الْبَهَا وَالأُنْسُ بالقُدْسِ يَنْجَلِي عَلى السِّرِّ جَهْراً فِى جَمَالٍ وَبهْجَةِ

يعنى أن هؤلاء الكرام، المخصوصين بمزيد الإكرام فى دار السلام . ينزلون منها بحيث البهاء الخ أى بمنزل ينجلى أى ينكشف فيه البهاء أى الحسن والانس بالمحبوب أى يظهر لهم ذلك بسبب ما فى قلوبهم من القدس أى الطهارة القلبية . قال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ ﴾ . أى ما قلوبهم التى فى الصدور ﴿ مِنْ غِلٍ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾(الحجر: ٤٧)

. وفيه إشارة إلى مقعد الصدق المختص بالمتقين المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾(القمر:٥٥) . فيتجلى ما ذكر من البهاء والأنس على السر أى اللطيفة المودعة فى القلب التى هى محل المشاهدة جهراً بلا خفاء فى جمال أى فى حلل جمال وبهجة أى هيئة حسنة تبتهج بها النفس وتنسر ويحتمل أن المعنى أن هذا المريد إنما يكون فى هذه المنازل العالية إذا كان فى الدنيا بحيث البهاء الخ أى إذا كان بهذه الحالة التى يتجلى فيها البهاء والأنس على سره بسبب القدس أى الطهر القائم بقلبه فلا يكون فى قلبه غل ولا غش ولا حسد ليتضح قوله ﷺ:

وَحَيْثُ كَمَالُ الذَّاتِ بِالذَّاتِ وَاحِدٌ　　　تَغَانَتْ بِهِ الأَكْوَانُ عَنْ كُلِّ وِجْهَةِ

أى ويكون المريد فى تلك المنازل العالية إذا وصل إلى معرفة أن كمال الذات الأقدس بالذات أى بذاته تعالى واحد أى فرد جامع لجميع أوصاف الكمال تغانت بالغين المعجمة أى استغنت يقال تغانيت تغانياً بمعنى استغنيت وقوله به أى بذلك الكمال عن كل وجهة أى جهة ومقصد فلا ينبغى للمريد أن يقف مع الأسباب، بل ينظر إلى مسببها فإنها فى الحقيقة كسراب، ثم قال المصنف ﷺ:

وَحَيْثُ الْبَقَا بَعْدَ الفَنَاءِ لِسَالِكٍ　　　أَزَالَ حِجَابَ الْعَيْنِ مِنْ غَيْرِ نُقْطَةِ

أى ويكون المريد فى منازل الأبرار إذا وصل إلى مقام البقاء بالله بعد مقام الفناء فيه بمعنى أنه بعد أن يتجلى الله عليه بصفاته السنية، فيفنى عن أوصافه البشرية ويشاهد اضمحلال ما دون الحق بالكلية، يتجلى عليه ثانياً يتجلى الذات فى حضرة الأسماء فيبقى متصفاً بصفات الحق جل شأنه من حيث أنه يكون عاملاً بمقتضى قوله ﷺ: {تخلقوا بأخلاق الله} . أى بأوصافه التى تليق للبشر من الصفح والحلم ونحو ذلك وعند ذلك يتحقق بمقام الحب المشار إليه فى (الحديث القدسى) (بقوله لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به . إلى آخره وإلى هذين المقامين أشار البكرى فى ألفيته التى فى التصوف بقوله:

كم لذة فاقت على اللذات　　　تجلى علينا فى تجلى الذات

ففى تجلى وصفه يفنينا　　　وفى تجلى ذاته يبقينا

وقوله أزال أى كشف ذلك الشهود والتحقق بمقام البقاء بعد الفناء عن هذا السالك

حجاب أى سائر العين أى عين القلب المسماة بالبصيرة الكائن ذلك الحجاب من غين نقطة بفتح الغين المعجمة وهو فى الأصل الغيم الرقيق أطلق هنا على ما يغشى القلب فيكون على عين البصيرة كالنقطة على عين البصر فيحول بين البصيرة وبين إدراك الحقائق كما إن النقطة تمنع البصر من رؤية الشئ وقد يطلق الغين على التجليات الإلهية (كما فى حديث) (أنه ليغان على قلبى وأنى لأستغفر فى اليوم مائة مرة) . فهو ﷺ بعد أن يتجلى الله عليه بالتجلى الذاتى يرى حالته الأولى أقل من الحالة التى أنتقل إليها فأنه ما من كمال إلا وعند الله أكمل منه قال تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴾(الضحى: ٤) . أى وللحظة المتأخرة خير لك من اللحظة المتقدمة فيستغفر الله من الحالة الأولى من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين وإياك أن تفهم أن الغين رين يخالطه قلبه الشريف، فتزل بك القدم وتستحق اللوم العنيف. بل هى أغيان أنوار، وليست أغيان أعيار .

فنزه قلبه عن كل وصف ... يباعده عن الذات العلية

ثم قال المصنف ﷺ:

وَإِنْ لَم يَكُنْ شَيْخٌ يُرِيهِ شُخُوصَها ... وَيُدْنِيه مِنْ أُمِّ القُرَى وَبُثَيْنَةِ

فَلَيْسَ لَهُ مِنْ عُمْرِهِ غَيْرَ رَسْمِهِ ... وَعِيشَتُهُ فِينَا كعَيْشِ البَهِيمَةِ

أى وإن لم يكن للمريد شيخ عارف بأصول الطريق التى بها يريه شخوصها أى أحوالها ويدنيه أى يقربه بإمداده من أم القرى وهو من أسماء مكة وإنما سميت أم القرى لأن الدنيا دحيت من تحتها . لما فى الحديث {أول بقعة وضعت فى الأرض مواضع البيت} ثم مدت منها الأرض أو لأن أهل القرى يقصدونها للحج فهى أم بهذا المعنى وهذا كناية عن كونه يقربه للمحل الذى هو أحق بالقصد من غيره كما أنه كنى ببثينه عن الذات العلية وبعضهم يكنى عنها بليلى وبعضهم بسلمى وبعضهم بعزة ونحو ذلك كما قال البكرى:

وهذه كناية العرفان ... ورمز أهل الحق والايقان

عن سرها كنيت بالألحان ... وحانها ونعمة القيان

وكيف لا يستر سر عزة ... ومجدها له أجل عزة

وقال آخر :

تمنت سليمى أن تموت صبابة ... وأهون شئ عندنا ما تمنت

وقال سلطان العاشقين ابن الفارض:

فكل مليح حسنه من جمالها ... معار لَه أو حسن كل مليحة

بها قيس لبنى هام بل كل عاشق ... كمجنون ليلى أو كثير عزة

وقال بعض العاشقين . المحبين لرب العالمين .

نسمات هواك لها أرج ... تحيا وتعيش بها المرج

وينشر حديثك يطوى الغم ... عن الأراح وينفرج

وببهجة وجه جلال جما ... ل كمال صفاتك أبتهج

لا كان فؤاد ليس يهيـ ... ـم على ذكراك وينزعج

ما الناس سوى قوم عرفوا ... ك وغير همو همج همج

قوم فعلوا خيراً وصلوا ... وعلى الدرج العليا درجوا

دخلوا فقراء إلى الدنيا ... وكما دخلوا منها خرجوا

شربوا بكؤس تفكرهم ... من صرف هواك وما مزجوا

يا مدعياً لطريقهم ... قوم نظروا بك ينعوج

تهوى ليلى وتنام الليـ ... ـل وحقك ذا طلب سمج

ثم إن جواب الشرط قولَه فلبس لَه أى للمريد الذى لم يكن لَه شيخ من عمره الذى عاشه غير رسمه فقط ورسم الدار فى الأصل هو ما درس منها وكان لاصقاً بالأرض أى أن عمره صار لا منفعة به بل تكون عيشته فينا معاشر الصوفية كعيش البهيمة كما قال بعضهم:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردا لك لازم

وتنصب فيما سوف تكره عينه ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

(اللقيط فى الطريق)

ثم قال المصنف ﷺ:

وَيُدْعَى لَقِيطاً أَيْنَ حَلَّ مُعطَّلاً وَإِنْ كَانَ ذا عِلْمٍ كَزَوْجٍ عَقِيمَة

دَعِياً مَعَ السَّادَاتِ فِى كُلِّ مَوْطِنٍ كَذا نَقَلُوهُ جُلَّ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ

يعنى أن من لم يكن له شيخ فإنه يدعى أى يسمى عند القوم لقيطاً أين حل أن نزل واللقيط فى الأصل الولد الملقوط أى المأخوذ من الأرض من غير أن يعلم له أب والمراد مقطوع النسب وقوله معطلاً أى من التحلية بالاندراج فى سلك القوم وإن كان ذا علم لأنه حينئذ يكون هو وعلمه كزوج امرأة عقيمة لأن علمه لا ينتج له شيأ كالمرأة العقيمة التى لا تلد لزوجها . ولذا قال الغزالى: (إذا وجدتم الرجل قد طبق الأرض علماً ولم يكن له شيخ يوصله إلى سلسلة القوم فهو عقيم لم يكن يلقى الحكمة) . أ هـ .

وحينئذ يدعى دعياً مع السادات أى غير منسوب لهم فى كل مواطن فهو كابن الزنا عند القوم كذا نقلوه جل بضم الجيم أى معظم أهل الحقيقة وهم السادة الصوفية . ثم قال المصنف ﷺ:

وَأَيَّامُهُ تَمْضِى وَأَعْمَالُهُ بِهَا بِلاَ وَفْقِ شَرْعٍ فِى أُمُورِ الشَّرِيعَةِ

أى وأيام الذى لم يكن له شيخ تمضى سدى وأعماله بها أى فيها تكون بلا وفق أى موافقة شرع لأنه لم يأخذها عن شيخ عارف متجر فى علوم الشريعة وحينئذ فيجب إتخاذ الشيخ الذى يحسن به الوصول إلى إصلاح الأعمال، ويبلغ به المريد فى درجات العرفان غاية الكمال،

ترجمة المؤلف

ثم قال المصنف ﷺ:

وَهـذا الَّـذِى قَـدْ يَسَّـرَ اللهُ نَظْمَـهُ ... عَلَـى أحمَـدِ المَشْـهُورِ بَـينَ الخَلِـيقَةِ

بوَالِـدِهِ عُـثْمَانُ مَـرْبًا وَمَنْشـأً ... بحَانَـاتِ شَـرْنُوبٍ بـأَرْضِ الـبُحَيرَةِ

اسـم الإشـارة راجـح إلى الكـلام الـذى قـد يسر أى سهل الله نظمه من البحر الطويل الـذى وزنـه فعولـن مفاعـيلن فعولـن مفـاعلن مرتين وقد أشار الشهاب الخفاجي إلى وزن هذا البحر فى منزع صوفى مع حسن الاقتباس فقال:

أيـا مـن طويـل الليـل بالـنوم قصـروا ... أنيـبوا وكونـوا مـن أنـاس بـه تـاهوا

وإن شـئتمو تحـيوا أميـتوا نفوسـكم ... ولا تقـتلوا الـنفس الـتى حـرم الله

وقولَـه عـلى أحمـد عـلى لسـان ناظمـة القطب الشهير . والبدر المنير « (سيدى أحمد عـرب الشـرنوبى ولى الله المحـبوب) » وخـزانة الأسرار والغيوب فلا تعجب إذ ظهرت على يديـه الكـرامات . وخرقـت لَـه فـى عـالم الملك سـبل العادات فأنه الإنسان الكامل عند كل إنسان » المشهور بين الخليقة أى الخلق بوالده عثمان وها أنا أذكر نسبه الشريف لتحصل لى بـركَة جـنابه المنـيف فـأقول (هـو سيدى أحمد عرب ابن سيدى عثمان ابن سيدى أحمد بن سـيدى عـلى نـور الديـن بن سيدى أحمد أبى العباس بن سيدى محمد ابن سيدى أحمد بن سيدى محمـد بـن سـيدى أحمـد بن سيدى على البرهانى المكنى بأبى الوفاء الحال ضريحه بشـرنوب بـن سـيدى خضـر بـن سـيدى عـلى بن سيدى محمد بن سيدى يوسف بن سيدى سـليمان بـن سيدى عـبد المهـيمن بـن سـيدى عبد الخالق صلاح الدين بن سيدى محمد قمر الدولـة الحـال ضـريحه بنفـيا كناه بذلك سيدى أحمد البدوى عند إجتماعه به وقال لَه أنت قمـر دولـتى ابـن سـيدى حسـن بـن سـيدى حسـن الصياد بن سيدى إبراهيم الغالبى الحال ضـريحه بِفاو ابن سيدي عمر بالصعيد الأعلى بن سيدى محمد عبد السلام بن سيدى إبراهيم الرضـى بـن سـيدى موسى الكاظم بن سيدى جعفر الصادق بن سيدى محمد الباقر بن سيدى على زين العابدين بن سيدنا الحسين بن سيدنا على بن أبى طالب ﷺ أجمعين) .

كـذا وجـد بخـط سيدى على نجل الأستاذ وقد أشار ﷺ إلى البلدة التى نشأ بها بقولَه مـربا ومنشـأ بحانـات شـرنوب أى إن مـرباه ومنشـأه كـان فى حانات جمع خان . وهو فى

الأصل محل إجتماع الندمان . والمراد هنا أماكن القرية التى يقال لها شرنوب الكائنة بأرض البحيرة وهى من أعمال مصر وفى تلك القرية نبى الله جرجيس وقد ظهر حال الأستاذ بها وهو ابن سبع سنين وكانت والدته من الصالحات واسمها عايدة وتنسب إلى سيدى أبى بكر الراعى الحال ضريحه بمحلة مرحوم وكانت تربط له الخبز والجبن على مئزره وتقول له احترز على غذائك من الأولاد لأنه كان يسرح معهم بالغنم فيأخذه الحال فيستغرق فى الذكر حتى يرمى بالمئزر فيأخذ الأولاد ما عليه ويجعلون مكانه شقفاً فإذا أفاق يقولون له أجلس يا أحمد للغداء فيجلس ويحل إزاره فإذا بخبزه على حاله فيتعجبون من ذلك، ولما اشتد به الحال توجه إلى مقام ولى هناك بناحية شرنوب يقال لد سيدى محمد الأعرج البرهانى، فكان لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً وقد ترك الأغنام واشتغل بالعبادة وابتلى بالإيذاء من أهل شرنوب، وكان عدة أهلها إذ ذاك تسعة آلاف رجل، وكانت والدته تقول له أصبر يا أحمد فإنه لا يرجم إلا الشجرة المثمرة، وكان من جملة المنكرين عليه رجل يقال له حماد، قال أتيت ذات يوم إلى المقبرة فرأيت الشيخ أحمد عرب قد علق على مواضع بجوار سيدى محمد الأعرج قطعاً من خرق فقلت له ما هذا الجنان الذى تفعله وتترك أغنامك، فقال لى إن ههنا أولياء تدوسون عليهم بنعالكم فأحببت أن أظهرهم، قال فتركته وأتيت بعد يوم فى وقت السحر ورميت ما عليهم وقلت أنه مجنون، وإذ أنه قد أتى إلى فقيدت بقيد القدرة فمسك أذنى ورمانى فى الأرض فما أفقت إلا وقت الضحى فتبت بعد ذلك إلى الله تعالى، ثم إن الأستاذ غاب فى السياحة سبع سنين حتى أن أهله لا يدرون أين توجه، ثم إنه أتى وأقام مدة بمدينة دمنهور البحيرة، قال الشيخ سليمان بن صالح وهو من خواص أتباع الأستاذ سألت أستاذى الشيخ أحمد عرب عند إجتماعى به بمدينة دمنهور البحيرة، فقلت له يا سيدى أتأذن لى فى سؤال ورد على، فقال يا سليمان تسألنى إلى أين أنتهت بنا السياحة، فقلت له نعم يا ولدى إلى المغرب الأقصى وجبال الزيتون وساحل البحر المحيط، قال فقلت فى نفسى إن الأستاذ لم يخبرنا عن جبل قاف، فتبسم الأستاذ وقال يا مبارك ها هو قاف قال فنظرت الجبل وما حوله ورأيت الأولياء والعباد يتعبدون هناك فغشى على من ذلك أ هـ .

فانظر يا أخى إلى هذه الكرامة . من هذا الأستاذ الذى بلغه الله مرامه :

وإذا لم تـــر الهـــلال فســلم لأنــــاس رأوه بالأبصـــــار

وأقام ﷺ بمصر مدة بالدرب الأحمر فى زاويته المشهورة وله بين العلماء الأعلام الكرامات المأثورة كما قال سيدى إبراهيم اللقانى صاحب الجوهرة، قد شاهدت من سيدى

أحمد عرب الشرنوبى الكرامات الخارقة عند إجتماعى به حال بدايتى فى مصر المحروسة بزاويته التى بالدرب الأحمر ورأيته متمسكاً بالكتاب والسنة، ورأيت جميع أتباعه مشتغلين فى الزواية بالقرآن وطلب العلم، وسمعت منه علوماً لم أسمعها من غيره. وسألنى جماعة من أهل الأزهر فى الإجتماع عليه، وقالوا يا إبراهيم لا بد أن تجمعنا على شيخك فقلت حباً وكرامة. فلما توجهنا إلى الزاوية، قال أحدهم فى خاطرى ملوخية. وقال الآخر وتكون بالأوز. وقال الثالث وأنا أريد عسلاً نحلاً وجبناً. وقال الرابع وأنا أسأله عن علم الذات والصفات. فقلت حيث أنكم اتيتم ممتحنين فلا أتوجه معكم، فقالوا تبنا فلما دخلوا على الشيخ قال لهم مرحباً بمن تابوا قبل وقوع الذنب، ثم قال يا نقيب هل بقى عندك شئ من الطعام فقال نعم فاحضر زبدية فيها ملوخية، فضرب الذى كان طالباً الأوز أصبعه فلم يجد مقصوده، فقال له الشيخ يا مبارك من فاته اللحم فليقنع بالمرق، ثم إن الشيخ فتت فيها بعضاً من الخبز وجعل يعطى هذا وركاً وهذا كتفاً وهذا جناحاً ثم قال يا نقيب هات ما تحت القصعة فإذا هو عسل نحل وجبن قديم، ثم قال والله يا أولادى من أطلعه الله على علم الذات والصفات وسكت عنه كان أولى له فاندهش الجماعة واخذوا عن الشيخ العهد، فقال الشيخ يا إبراهيم الفقراء مثل النحل، والمجاورون مثل الزنابير، ثم قال يا إبراهيم طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة ليس فيها دغل ولا غش ولا تلون من أحدث فيها ما ليس منها أفقره الله وكشف حاله أ هـ .

وقال العلامة الصاوى فى (حاشية الجوهرة): كان الشيخ إبراهيم اللقانى من أرباب الأحوال والكشف وأنشأ هذه المنظومة ليلاً بإشارة شيخ التربية فى التصوف سيدى أحمد عرب الشرنوبى وعلمه أنه إذا قرأ فى أذن المولود سورة القدر عند ولادته لم يقدر الله عليه زنا مدة حياته أ هـ . باختصار .

وللأستاذ مع العارف الشعرانى كرامات سنية وأحوال بهية أقر له فيها بالفضل والتقديم وقال: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾(الحديد:٢١) وقد أقام الأستاذ سبع سنين بمكة والمدينة وظهرت له ولأتباعه الكرامات العجيبة . قال الشيخ سليمان بن صالح كنت أنا والشيخ نور الدين والشيخ محمد نور الدين اللقانى من جملة من صحب الأستاذ فى السفر إلى مكة، فاتفق أننا تأخرنا عنه فنظرت إليهم فإذا هم صافون أقدامهم والأرض تطوى من تحتهم، فكتمت أمرى حتى لحقنا الأستاذ وعرفته الخبر فقال يا ولدى الآن عندنا من الفقراء نحو أربعة عشر تطوى لهم الأرض ثم بعد ذلك توجه الأستاذ إلى شرنوب

ثم توجه إلى البلاد الرومية حيث رأى النبى ﷺ فى المنام وهو يقول له (يا أحمد امض إلى الشيخ نور الدين زاده بالقسطنطينية وخذ عنه الطريق لأنه الآن رأس العارفين) . فتوجه إليه ومعه جملة من أصحابه الأكابر فلما وصل إلى الشيخ نور الدين خرج إليه من الخلوة، وقال مرحباً بمن أتانا بأمر النبى ﷺ ومرحباً بأولاد الفقراء، ثم دخل هو والأستاذ الخلوة وأخذ عنه الطريق وأقام معه مدة بجامع السليمانية وكساه جبة من الصوف الأخضر وأعطاه سبحه نحو الألف حبه فلما عزم السلطان سليم على فتح قبرص أتى إلى سيدى نور الدين يسأله الدعاء فدعا له وأمر سيدى أحمد عرب بالتوجه معه ففتح الله قبرص فى تلك المرة ورجع الأستاذ إلى القسطنطينية وأخرج مرسوماً تأمر السلطان بإبطال العوائد والمظالم عن أهل شرنوب فلما رجع الأستاذ إلى شرنوب واعلمهم بذلك ذهبوا إلى حاكم الولاية وقالوا: لا تزيد حماية عليك وليس لنا رغبة فى إقامة هذا الرجل وأتباعه فى بلدنا بل رغبتنا نفيهم من الديار فإنهم لصوص بالليل وفقراء بالنهار وشهدوا هذه الشهادة الزور، وأظهروا ما كانوا عليه من الفجور، وقد انقرض الآن نسل جميع المنكرين، وتلى عليهم: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(الأنعام:٤٥)، فتأمل يا أخى ما جرى للأكابر العارفين، وكن على ما ابتليت به من أهل بلدك من الصابرين، فإن هوى الوطن . لا يحرك من قلبك ما سكن .

ومن العجائب أن مقتول الهوى   أبداً يحن إلى لقاء القاتل

وكانت طريقة الأستاذ شاذلية وقد نقل عنه أنه قال مشايخنا الذين أخذنا عنهم هم الشيخ عبد الرحمن التاجورى والشيخ عبد السلام بن عبد الرحمن المغربى وسيدى على السكرى وسيدى على المتقى الهندى بمكة المشرفة وسيدى عبد الرحيم البيروتى وسيدى أبو الحسن البكرى وسيدى سليمان الخضيرى وسيدى إبراهيم الذاكر وسيدى بدر الدين العالى وسيدى محمد الشهاوى وسيدى زين ابن بنت المرصفى وسيدى نور الدين زاده القاطن بالقسطنطينية أ هـ .

وقد أشتهر ؓ بأنه وزير سيدى إبراهيم الدسوقى لأنه كان على قدمه وشرب من مشربه فهو وزيره حقيقة من حيث ائتلاف الأرواح وإن لم يجتمع معه فى عالم الأشباح، فإن الأستاذ أخذ الطريق أولاً عن سيدى محمد الشهاوى وثانياً عن سيدى سبط المرصفى وهو أخذ عن سيدى أبى القاسم البناء وهو وسيدى جلال الدين السيوطى أخذا عن سيدى محمد بن عبد السلام الشاذلى وهو وسيدى محمد العتريس أخذا عن سيدى محمد بن موسى أبى العمران وهو وأبوه وسيدى مرزوق الكفافى أخذوا عن القطب الحقيقى، سيدى إبراهيم الدسوقى .

وقد أخذ عن الأستاذ جملة من الخواص الذين ظهر سرهم بين الآنام ببركة ما لهم من

الإخـلاص . منهم سيدى سليمان بن صالح الدمنهورى وسيدى إبراهيم اللقانى صاحب الجوهرة كما تقدم وسـيدى داود اللقـانى وسـيدى عـلى المـنير اللقـانى وسيدى شهاب الدين الدمياطى والشـيخ أبـو البركات الحصاوى والشيخ إبراهيم الشبرخيتى والشيخ حجازى السكندرى والشيخ شمس الديـن التلبانى والشـيخ عـلى العلقمى والشيخ عامر النقيب والشيخ أحمد خاطر المدفون بجـوار مقـام سـيدى ياقوت العرشى والشيخ عبد ربه الابشيطى الحال ضريحه بالمحلة الكبرى والشـيخ محمـد البلقيـنى الحال ضريحه ببلقين والشيخ عبيد التمامى الحال ضريحه بالعكريشة والشـيخ أبـو النصـر الدسـوقى الحـال ضـريحه بدسوق والشيخ سليمان البرهامى الحال ضريحه بسنديون والشيخ شرف الدين المرشدى والشيخ البولينى والشيخ سليمان العلقمى والشيخ حميده الخويلـدى المعـروف بـأبى عمـران الحـال ضـريحه بالبهى والشيخ محمد بن سكران الخوانكى والشـيخ عامـر البقـلى والشـيخ إبراهـيم ابـن الشـيخ عـبد الجلـيل الشـرنوبى والشـيخ إبراهـيم السمديسـى والشـيخ حسن المنزلاوى والشيخ حسن النواصرى والشيخ سليمان العشماوى والشيخ عـبد الله المغـربى والشـيخ سـالم ابـن نعامـة الدمـنهورى والشـيخ زين المحلاوى والشيخ محمد الدسـوقى إلى غـير ذلـك مـن أكابـر الـرجال. أربـاب المقامـات والأحوال. الذين بذكرهم تتنزل الرحمات. نفعنا الله بهم وجعلنا من المحبين لنشر مناقب السادات .

وكانـت أوراد الأسـتاذ بعـد صـلاة العشاء (سورة يس) والصلاة على النبى ﷺ ومجلس التوحـيد وبعـد صـلاة الصـبح (سـورة الواقعة) (والدخان) (وهل أتى على الإنسان) (والبروج) (وألم نشـرح) (وأسمـاء الله الحسـنى) وبعـد العصـر (سـورة عـم يتسـاءلون) (وتبارك) (الملك) (والفـتح) وحـزب الـبحر ومجلس التوحيد وكان يأمر أصحابه بقراءة القرآن وطلب العلم وكان كـثير الجود والكرم حتى قال بعض أتباعه صحبت الأستاذ نحو أربعين سنة فما سمعته يوماً يقول أدخروا هذا لغد بل كان يجود بجميع ما عنده على حد ما قيل:

مـن ظـن بـالله خـيراً جـاء مبـتدئاً   والـبخل مـن سـوء ظـن العـبد بـالله

وقد كان ﷺ يترنم بهذه الأبيات:

أوسع رحلي على من نزل	وزادى مباح لمن قد أكل
تقدم ما عندنا حاضر	ولو لم يكن غير خبز وخل
فأما الكريم فيرضى به	وأما اللئيم فمن قد أقل

ومن كلامه ﷺ:

وليس أخى من ودنى بلسانه	ولكن أخى من ودنى فى المصائب

وكان يقول: يا أولادى إن الشيخ يحفظ المريد الصادق فى قربه وبعده .

وقد اتفق أن الشيخ سليمان بن صالح تلميذ الأستاذ كان مقيماً بالزاوية التى بالدرب الأحمر فى مصر والأستاذ فى شرنوب وكان الشيخ سليمان المذكور دخل الخلوة بالزاوية المذكورة وأقام بها أربعة عشر يوماً فأرسل لَه الأستاذ مكتوباً يقول فيه إذا قرأت كتابى فاخرج من الخلوة عاجلاً فلما قرأه امتثل أمر الأستاذ وقال هذا جزاء من يدخل الخلوة بغير إذن أستاذه فما استتم الخروج من الخلوة حتى سقط سقفها فعلم أن الأستاذ ملاحظ للمحافظة عليه .

وقال بعض أتباع الأستاذ: سافرت مرة إلى الحج فحصل لى مرض برجلى فطلبت الركوب فقال لى رجل معه ناقة أعطنى عشرة أنصاف وأنا أعطيك ناقتى تركبها فركبتها وقلت هذا من بركة أستاذى فقال ومن أستاذك قلت سيدى أحمد عرب الشرنوبى فرمانى من فوق الناقة فنزلت على رجلى الأخرى وقال لو تعطينى عشرة دنانير ما ركبتها فقلت لا حول ولا قوة إلا بالله لو علمت أن هذا يكره أستاذى ما ذكرته لَه وإذا أنا بالأستاذ قادم وبيده ناقة بيضاء فمسح على رجلى حتى برئت ثم قال لى إن الرجل الذى حملك على ناقته ثم رماك من أهل شرنوب من بيت الإنكار علينا واحمد الله حيث لم يقتلك فقلت لَه يا سيدى أنا أعلم أنك فى الحج فقال أكتم أمرك وأركب هذه الناقة فركبتها فلما رجعت أتيت لزيارة الشيخ بشرنوب وإذا بالرجل الذى رمانى دخل على الأستاذ وسلم عليه وصار يقول يا سيدى حملت رجلاً فى الحج على ناقتى من أجلك فقلت لَه لأى شئ رميتنى من فوق ظهرها كسرت رجلى فلما عرفنى خجل وولى (ثم إن الأستاذ) توجه ثانى مرة إلى الديار الرومية سنة أربع وتسعين وتسعمائة فى شفاعة لبعض أتباعه عند السلطان وكان معه جملة من خواصه فلما مر على أهل الشام أهدى لَه بعض الناس قماشاً ففصل منه مئزاراً طوله سبعة أذرع

وعرضـه ثلاثـة أذرع وقميصـاً واسـعاً وأمـر النقيب بحفظ ذلك إلى وقت الحاجة فلما وصل إلى بلـدة من بلاد الروم يقال لها أرجلى مرض بها ثلاثة عشر يوماً ومات ﷺ فأمر الوزير إبراهيم باشـا بـأن يبـنى للأسـتاذ مقـام وزاويـة فبـنى لـه ذلـك ورتب فيها ترتيباً عجيباً ووقف أهل الناحـية أيضـاً من الثمار ما يقوم بالزاوية والمترددين عليها لما شاهدوه من الكرامات الظاهرة، والأنـوار الـباهرة، فـإن مقامه عليه من الأنوار، ما يبهر الزوار، وقد كان عمر الأستاذ إذ ذاك ثلاثـاً وسـتين سـنة فـيكون مولـده سـنة تسـعمائه واحد وثلاثين . (وكان) ﷺ يقول من باب الـتحدث بالـنعمه (عرفـت العلم اللدنى وأنا ابن ثمان سنين واطلعت على اللوح المحفوظ وأنا ابن عشرين سنة وأقمت قطباً خمس وعشرين سنة) .

وقـد ألـف سـيدى على نجل الأستاذ كتاباً فى مناقب والده وكراماته فأنظره إن شئت وكـان عمـر سيدى على حين مات الأستاذ تسع سنين وأما سيدى محمد وسيدى يوسف فقد مـات الأسـتاذ وهمـا صـغيران وقـد حصـلت لهـم بـركة والدهـم حتى بلغوا أعلى الدرجات، وظهـرت عـلى أيديهـم الكـرامات ولكـل مـن هـؤلاء الثلاثة مقام بشرنوب، تلوح عليه الأنوار وتـنفس به الكروب، وقد مات للأستاذ جملة أولاد فى حياته (ومنهم) سيدى يوسف المدفون بدمـنهور الـبحيرة المشـهور بسيدى حجاج (ومنهم) سيدى عثمان ودفن بمصر بالدرب الحمر (ومـنهم) سـيدى محمـد الأول وسـيدى أحمد الأول والثانى وقد دفنوا بزاوية سيدى على أبو الوفـاء بشـرنوب وكذلـك جملـة بنات دفنوا بالزاوية المذكورة (وأما والد الأستاذ) فهو مدفون بـثغر سـكندرية وعـلى مقامـه مـا يـبهر الـزوار مـن الأنـوار البهية، ﷺ ونفعنا بهم أجمعين، وجعلـنا فـى سـلكهم مـن المنـتظمين. انـتهى ملخصاً من الطبقات الشرنوبية، المسماة بالأنوار القدسية. مع زيادة قليلة، أتيت بها لنشر محاسن المآثر الجميلة. ثم قال المصنف ﷺ:

وَأَرْجُـــوا مِـــنَ اللهِ الكَـــرِيمِ قَـــبُولَهُ	وَسِـــتْرُ عَـــيُوبٍ فِـــيهِ طَمَّـــتْ وَعَمَّـــتِ

لمـا فـرغ ﷺ ممـا كان بصدده من بيان أصول الطريق، شرع يرجوا قبوله وستر عيوبه مـن ولى التوفـيق، فـإن الكـريم لا يخيـب مـن ارتجـى ولا مـن إليه التجا، وقوله طمت بفتح المهملة وتشديد الميم أى غلبت وعمت بتشديد الميم أى شملت ولبعضهم:

كـــرم المهـــيمن منـــتهى أمـــلى	لا نيـــتى أرجـــو ولا عمـــلى
يـــا مفضـــلاً جلـــت فواضـــله	عـــن بغيـــتى حـــتى انقضـــى أمـــلى
كـــم قـــد أفضـــت عـــلى مـــن نعـــم	كـــم قـــد ســـترت عـــلى مـــن زلـــلى

إن لم يكـــن لى مـــا ألـــوذ بـــه يـــوم الحســـاب فـــإن عفـــوك لى

ثم قال المصنف ﷺ:

وينْفعُـــنا بـــالعِلْمِ ثُـــمَّ يُعِينُـــنا بتَوْفِـيقِهِ فِـى كـلِّ وقْـتٍ ولَحْظَـةِ

أى وأرجـو مـن الله بمعنى أطلب منه أن ينفعنا بالعلم وإنما بدأ بنفسه لما ورد أنه ﷺ كان إذا دعـا بـدأ بنفسه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾(محمد: ١٩) . وذنـبه ﷺ مـن بـاب حسنات الأبرار سيآت المقربين وإلا فهو ﷺ معصوم من وقوع ذنب وإنما أتى المصنف بنون العظمة فى قوله وينفعنا إشارة إلى جواز التعاظم بالعلم أى إظهار عظمته .

لـا فى الحديث: {ليس منا من لم يتعاظم بالعلم} . أى يعده عظيماً ولأن العلم أشبه شئ بالجماعة وقوله ثم يعيننا أى على القيام بحقه بتوفيقه أى خلق القدرة على الطاعة فينا فـى كـل وقـت مـن الأوقات، ولحظة من اللحظات، وهى الزمان اليسير بقدر ما تلحظ العين أى تنظر بلحظها ثم قال المصنف ﷺ:

وَيَجْعَـلَ إخْلاَصِـى إلَـيْهِ مُحَقَّقـاً وَيَـرْحَمُ شَـيْبى فِـى شَتَاتى وغُرْبـتُى

أى وأسـأله سـبحانه أن يجعل إخلاصى إليه فى الأعمال محققاً غير مشوب بشئ من الـرياء والسمعة وأن يرحم شيبى الحاصل فى وقت شتاتى أى فرقتى عن أوطانى وغربتى أى بعدى عنها .

وفى الحديث القدسى: (الشيب نورى وأنا أستحى أن أحرق نورى بنارى) .

ومما قيل فى مزية التغرب عن الأوطان:

ارحـل عـن الأهـل والأوطـان قاطـبة واحـذر تكـون عـن الأهلـين فى حرق

فـالكحل نـوع مـن الأحجـار مطـرح بـين الحجـارة مـرمى عـلى الطـرق

لـا تغـزب حـاز الفضـل أجمعـه وصـار يحمـل بـين الجفـن والحـدق

وقال آخر:

ارحـل عـن الأهـل والأوطـان قاطـبة واحـذر تكـون عـلى الأوطـان ندمانـاً

أمـا تـرى يوسـف الصديق حين أتى لمصـر فـى غـربة قـد صـار سـلطاناً

ولبعضهم وأجاد:

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه وأنصب فإن لذيذ العيش فى النصب

فالأسد لولا فراق الغاب ما اقتنصت والقوس لولا فراق السهم لم يصب

والتبر كالتراب ملقى فى أماكنه والعود فى أرضه نوع من الحطب

فإن تغرب هذا عز مطلبه وإن تباعد هذا بيع بالذهب

وقال الطغرائى:

إن العلا حدثتنى وهى صادقة فيما تحدث أن العز فى النقل

لو كان فى شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

وقال بعضهم:

وليس بقاء المرء فى دار غربة مضراً إذا ما كان فى طلب المجد

فائدة نقل عن سيدى أحمد زروق أنه قال من كان مسافراً ودخل بلدة لا يعرف بها أحداً فأنه يبادر إلى المسجد قبل أن يكلم أحد فيصلى ركعتين ثم يقول يا فتاح مائة مرة يا رزاق مائة مرة يا مغيث مائة مرة يا أرحم الراحمين مائة مرة ثم يصلى على النبى ﷺ مائة مرة ثم يخرج فأنه يجد قبولا عظيماً عند أهل هذه البلدة .

وفى الحديث الشريف: {لا غربة على المؤمن ما مات مؤمن بأرض غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه فيها السماء والأرض} .

وروى أن الميت فى الغربة يقاس لَه من مولده إلى منقطع أثره فى الجنة ثم إن بعضهم نظم الأمور التى تعجل الشيب فقال:

الشيب من سبعة يأتى الرجال ومن يأتى لَه السبع لم يامن من الخطر

هم ودين ركوب البحر رابعها موت اليقين عيال عند مفتقر

قهر الرجال وقطاع الطريق حكوا وقيل من بلغهم يأتى بلا نكر

شاب الخليفة قالوا شبت قال لهم من المنابر خوف اللحن فاعتبر

وقيل للمصطفى قد شبت قال لهم هود وأخواتها قد صح فى الخبر

يعنى أنه ﷺ قال شيبتنى هود وأخواتها عندما نزل قوله تعالى فيها: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾(هود: ١١٢) . فإن قوله كَمَا أُمِرْتَ يدل على أن الاستقامة تكون بحسب المعرفة فمن كملت معرفته بربه عظم عنده أمره ونهيه فإذا سمع كَمَا أُمِرْتَ علم أنه طولب باستقامة تليق بمعرفته بكما الآمر له ويحق لمن فهم ذلك يشيب أذ لا يطيق أحد أن يأتى بعبادة على حسب ما يعرف من عظمة ربه بل لا بد أن يستصغر جميع ما يأتى به بالنسبة إلى عظمة ربه ولذلك لما نزل قوله تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾(آل عمران:١٠٢) . قلقت الصحابة خوفاً من كونهم لا يقدرون على القيام بذلك فأنزل الله رحمة بهم: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (التغابن:١٦) . ثم إن أخوات هود هى السور التى ذكرت فيها أهوال القيامة كالواقعة والحاقة وسائل سائل والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت والقارعة وقد كان شيبه ﷺ قليلاً لا تزيد عن عشرين شعرة وأكثره فى عنفقته وما أحكم قول الإمام الشافعى

أأنعم عيشاً بعد ما حل عارضى طلائع شيب ليس يغنى خضابها

أيا بومة قد عششت فوق هامتى على الرغم منى حين طار غرابها

رأيت خراب العمر منى فزرتنى وما واك من كل الديار خرابها

إذا أصفر لون المرء وأبيض رأسه تبغض من أيامه مستطابها

فدع عنك فضلات الأمور فإنها حرام على نفس التقى أرتكابها

وما هى إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها

فإن تجنبتها كنت سلماً لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها

فطوبى لنفس أوطنت قعر دارها مغلقة الأبواب مرخى حجابها

وما ألطف قول بعضهم:

أنذرك الشيب فخذ نصحه فإنما الشيب نذير نصيح

وعلة الشيب إذا ما أعترت أعيت ولو كان المداوى المسيح

وقال آخر:

إلام تجـــر أذيـــال التصـــابى وشـيبك قـد نضـى بـرد الشـباب

لســان الشـيب فـى فوديـك نـادى باعـلى الصـوت حـى عـلى الذهـاب

وأجاد القائل:

ومـا أقـبح الـتفريط فـى زمـن الصـبا فكيف بـه والشيب فى الرأس نازل

تـرحل عـن الدنـيا بـزاد مـن الـتقى فعمـــرك أيـــام تعـــد قلائـــل

وقال بعضهم:

لم أقـــل للشـــباب فـــى دعـــة الله ولا حفظـــه غـــداة اســـتقلا

زائـــر زارنـــا أقـــام قلـــيلاً ســـود الصـــحف بـــالذنوب وولى

(وقال آخر):

لقـد نـزل المشـيب عـلى شـبابى وقـال لَـه ارتحـل هـا قـد نزلـنا

فقلـت لَـه أتـرحل يـا شـبابى وتتركـــنى فقـــال نعـــم عزلـــنا

(ثم قال المصنف ﷺ):

وَيُدْرِجُــنَا فِــى سِـلْكِ قَـوْمٍ أَحَـبَّهُمْ رَضُـوهُ وَأَرْضَـاهُمْ بحُسْـنِ مَـزِيَّةِ

أى وأسـأله سـبحانه أن يدرجـنا فـى سـلك قوم أحبهم لكونهم من خواصه المقربين: فهـو تعـالى يحـبهم ويحـبونه أولاهـم من المقام الأمين قد رضوه رباً ومالكاً ومتصرفاً فى جميع الأحـوال . فـلا يعتريهـم من تصرفاته فى أبدانهم ضجر ولا فيما لهم من الأموال، ولذا قربهم لديه وأرضاهم بحسن مزية خصوا عمن سواهم، ثم قال المصنف ﷺ:

وَيَعْفُــوَ عَــنى وَالَّذِيــنَ أحِــبُّهُمْ وَيَدْفَــعُ عَــنَّا كُــلَّ سُــوءٍ وَفِتْــنَةِ

أى وأسـأله سـبحانه أن يعفو عنى أن يمحو ذنوبى من ديوان الحفظة وكذلك يعفو عن الذين أحـبهم وأسـأله أن يدفـع أى يصـرف عـنا كـل سوء أى مكروه يسيئ الإنسان أى يحزنه وفتته أى بلية وامتحان واختبار من ذلك فتنة القبر أى امتحان الميت فيه بالسؤال هل كان مطيعاً أم لا .

وما ألطف قول الصفي الحلي:

تــب وادع ذا الجـــلال بالصــدق تجــد الله للدعـــاء سمـــيعاً
لا تخــف مــع رجـاء ربــك ذنــباً إنــه يغفــر الذنـــوب جمــيعاً

ثم قال المصنف ﷺ:

وَيَرْزُقَــنا وَالْمُسْــلِمِينَ بِأَسْــرِهِمْ يَقِيــناً يَقِيــنا كُــلَّ شَــكٍّ وَرِيــبَةٍ

أى وأسأله سبحانه أن يرزقنا والمسلمين بأجمعهم يقيناً أى جزماً مطابقاً للواقع فهو عبارة عن قوة الإيمان ورسوخه حتى يصير كأنه الطود الشامخ لا تزلزله الشكوك ولذا وصفه بقوله يقيناً من الوقاية أى يمنع عنا كل شك وريبه والعطف مرادف فإن الريبة هى الشك .

قال سهل بن عبد الله التسترى: يتفاضل الناس يوم القيامة بقدر يقينهم وأدنى مراتب اليقين الثقة بالله ثم إن المصنف ﷺ، توسل إلى الله فى إجابة دعائه أعظم الوسائل إليه، فقال:

بجَـــاهِ نَـــبِّي مِـــنْ سُـــلالَةِ آدَمٍ بِمَـنْ خَلْفَـهُ الأمْـلاكُ وَالرُّسْـلُ صَـلَّتِ

أى أتوسل إليك يا الله بجاه نبى عظيم من سلالة أى نسل آدم أبى البشر وقد قال ﷺ {توسلوا بجاهى فإن جاهى عند الله عظيم} . ويجوز التوسل أيضاً بغير الأنبياء كالشهداء والأولياء والعلماء الصالحين ويشهد لذلك ما رواه البخارى عن أنس أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا قحطو استسقى بالعباس بن عبد المطلب ويقول (اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا محمد ﷺ فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال فيسقون) .

ومن كلام بعض آل الصديق المجرب لدفع كل هم وضيق:

نبى الهدى ضاقت بى الحال فى الورى وأنــت بمــا أملــت مــنك جديــر
فســل خــالقى تفــريج كــربى فأنــه عــلى فــرجى دون الأنــام قديــر

ومما جرب لدفع كل شدة . هذان البيتان فاتخذهما لك عدة .

إلــيك رســول الله أشــكو نوائــباً مــن الدهــر لا يقــوى لهــا المتحمل
وإنــى لأرجــو أنهــا بــك تنجــلى فــإنك لى جــاه وحصــن ومعقــل

ومما جرب لدفع الكروب قراءة هذه الأبيات . المختومة بالتوسل بسيد السادات . وقد

قال السيوطى نقلاً عن النووى ما قرأها أحد ثم دعا الله عقبها بشئ إلا استجيب له .

يا من يرى ما فى الضمير ويسمع ... أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها ... يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه فى قول كن ... أمنن فإن الخير عندك أجمع
مالى سوى فقرى إليك وسيلة ... فبالافتقار إليك فقرى أدفع
مالى سوى قرعى لبابك حيلة ... فلئن رددت فأى باب أقرع
ومن الذى أدعو وأهتف باسمه ... إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لجودك أن تقنط عاصياً ... الفضل أجزل والمواهب أوسع
بالذل قد وافيت بابك عالماً ... أن التذلل عند بابك ينفع
وجعلت معتمدى عليك توكلاً ... وبسطت كفى سائلاً أتضرع
فبحق من أحببته وبعثته ... وأجبت دعوة من به يتشفع
أجعل لنا من كل ضيق مخرجاً ... والطف بنا يا من إليك المرجع

ومن الفوائد الشريفة . قول بعضهم فى فضل الصلاة على صاحب الدرجة المنيفة :

إذا كنت فى هم وضقت بحمله ... وأصبحت محزوناً وقلبك فى حرج
فصل على المختار من آل هاشم ... كثيراً فإن الله يأتيك بالفرج

ومن الأدعية : المجابة أن تقول، بعد أن تصلى على طه الرسول، (يا الله يا واحد يا أحد يا واجد يا جواد نفحنا منك بنفحة خير انك على كل شئ قدير) .وقد زاد المصنف فى الاستعطاف بذكر الأوصاف التى من الله بها على حبيبه حيث قال بمن خلفه أى وراءه الاملاك جمع ملك بفتح اللام وهم أجسام نورانية لهم قدرة علي التشكل لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ولا ياكلون ولا يشربون، ﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾(التحريم:٦)، والرسل بإسكان السين جمع رسول وهو إنسان ذكر حر من بنى آدم أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه كان له كتاب أو لا ولذا كثرت الرسل وقلت الكتب وأما النبى فهو إنسان ذكر حر من بنى آدم أوحى إليه بشرع أمر بتبليغه أم لا فهو أعم من الرسول على الأصحح والمراد من

الرسل مما يعم الأنبياء وعدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر وقيل وخمسة عشر يجب الإيمان بهم إجمالاً وأما تفصيلاً فلا إلا بخمسة . وعشرين مجموعين فى قول بعضهم:

حتم على كل ذى التكليف معرفة ... بانبياء على التفصيل قد علموا

فى تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهموا

إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وقوله صلت إلى بيت المقدس ليلة أسرى به ﷺ فإن الأنبياء اجتمعت هناك لملاقاته فلما وصله وكان صحبته جبريل وميكائيل أثنى كل من الأنبياء على مولاه، تحدثاً بما أنعم به عليه وأولاه، فقال إبراهيم الخليل: (الحمد لله الذى اتخذنى خليلاً) . وقال موسى: (الحمد لله الذى اتخذنى كليماً) إلى أن قال سيد الأولين والآخرين، (الحمد لله الذى بعثنى رحمة للعالمين) . فقال له الخليل بهذا فضلتنا تقدم فأنت الأمام فصلى بهم ركعتين من النوافل لأن الصلوات الخمس لم تفرض إلا ليلة الإسراء . وهل حضور الأنبياء فى بيت المقدس وفى السموات بعد ذلك كان بأرواحهم وإنما تشكلت بصور أجسادهم أو كان بالأجساد حقيقة فى ذلك خلاف فذهبت طائفة إلى الأول واستدلوا برواية أبى هريرة فلقى أرواح الأنبياء. وذهبت طائفة إلى الثانى واستدلوا برؤية النبى ﷺ لموسى عليه السلام قائماً يصلى فى قبره. وقالوا أن البرزخ ينسحب عليه بحكم الدنيا فى الاستكثار من الأعمال وزيادة الأجور لأن الذى ينقطع بالموت إنما هو التكليف وأما أعمال الآخرة فهى على سبيل التلذذ بها . ثم قال المصنف رضي الله عنه:

وَلَوْلاَهُ مَا كانَتْ لآدَم صُورَةٌ ... وَلا تَابَ عَنْهُ اللهُ مِنْ بَعْدِ أَكْلَةِ

أى ولولا الحبيب المحبوب الذى خلقت لأجله الأرض والسموات ما كانت لآدم صورة فى الوجود ولا لشئ من الموجودات ولذا قيل على لسان الحضرة النبوية:

وإنى وإن كنت ابن آدم صورة ... فلى فيه معنى شاهد بأبوتى

وذلك لأن آدم خلق من نوره ﷺ فإن الحقيقة المحمدية هى الذات المتعينة بالتعين الأول.كما يشير إلى ذلك حديث جابر حيث قال ﷺ {له أول ما خلق الله نور نبيك من نوره} . ويلزم أن نقول أن الحقيقة المحمدية لا تحتاج إلى محل تقوم به لأنها خلقت من

النور فهى من قبيل المجردات التى لا تحتاج إلى محل حتى يصح أنها أول ما خلق الله وأما أن قلنا أنها تحتاج إلى محل فلا بد من سبق المحل الذى تقوم به فلا تتحقق لها الأولية كما أفاده أستاذنا السقا نقلاً عن العلامة الأمير وقولَه ولا تاب عنه الله أى من الذنب الصورى الذى اقترفه هو وزوجته حواء بالأكل من شجرة الحنطة بعد أن نهاهما الله عنها بقولَه : ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(البقرة:٣٥) . وتسميتها شجرة مجاز لأن الشجر ما لَه ساق وقيل هى شجرة العنب وإنما قلنا من الذنب الصورى لأنه لم يتعمد الأكل منها وإنما أكل ناسياً لقولَه تعالى : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَه عَزْماً ﴾(طه:١١٥) وفى الحقيقة أن آدم لما أطلع على اللوح المحفوظ ورأى أنه سبق فى علم الله أكله من الشجرة وعلم ما يترتب على نزوله إلى الأرض من تناسل الأنبياء والمرسلين وظهور سيد الأولين والآخرين . بادر بتنفيذ القضاء فتسمية ما فعله ذنباً بحسب الظاهر فقط لأنه وإن كان منهياً ظاهراً مأمور باطناً ولذا قال بعض العارفين لو كنت بدل آدم لأكلت الشجرة بتمامها يعنى حيث ترتب على ذلك النفع العام بظهور البدر التمام .

وقد ورد أن آدم لما اقترف الخطيئة قال يا رب أسألك بحرمة محمد إلا غفرت لى فقال لَه يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه فقال (يا رب لما خلقتنى ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش لا إله إلا الله محمد رسول الله فعرفت أنك لم تضف إلى إسمك إلا أحب الخلق إليك فقال الله تعالى صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلى وحيث سألتنى بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك) .

فضل تنزيل القرآن

ثم قال المصنف -رحمه الله-:

فَفِــي فَضْــلِهِ القُــرْآنُ جَــاءَ مُبَيَّــناً ... وَنَاهِـيكَ قَـوْلُ اللهِ مِـنْ غَـيْرِ خِلْقَـةِ

أى ففى فضل رسول الله ﷺ وبيان عظيم قدره جاء القرآن الكريم حال كونه مبيناً أى موضح الدلالة على ذلك قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾(الأحزاب:٤٥-٤٦) . إلى غير ذلك من الآيات المشعرة بما لجنابه المنيف من على الدرجات فهو سيد الأولين والآخرين . وأفضل الخلائق اجمعين . كما قال اللقانى فى جوهرته:

وأفضل الخلق على الإطلاق ... نبينا فمل عن الشقاق

والانبيا يلونه فى الفضل ... وبعدهم ملائكة ذو فضل

وما ألطف قول الإمام البوصيرى:

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم

وحكى أنه رؤى ابن الفارض فى المنام فقيل له لم لم تمدح النبى ﷺ فقال:

أرى كل مدح فى النبى مقصراً ... وإن بالغ المثنى عليه وأكثرا

إذ الله أثنى بالذى هو أهله ... عليه فما مقدار ما تمدح الورى

ولذا قال المصنف وناهيك أى كافيك عن طلب غيره دليلاً على فضله قول الله العلى العظيم . الذى أنزل عليه من غير خلقة بل هو كلام القديم . ثم قال المصنف رحمه الله:

وَمَــنْ قَــالَ مَخْلُــوقٌ كَــلاَمُ إِلهِــنَا ... سَيَصْــلَى سَــعِيراً لِلْعُصَــاةِ أُعِــدَّتِ

أى ومن قال أن القرآن الذى هو كلام الله تعالى مخلوق فإنه سيصلى أى يدخل يوم القيامة سعيراً وهى طبقة من طبقات النار أعدت أى هيئت للعصاة بل هو قال:

كَـلامٌ قَدِيـمٌ مُـنْزَلٌ غَـيرُ مُحْـدَثٍ بِـهِ جَـاءَ جِـبْرِيل عَـلى خَـيْرِ أُمَّـةِ

أى بـل هـو كـلام الله القديم . المنزل عـلى نبيه العظيم . به جاء اى نزل جبريل على أى لأجـل خـير أمـة وهـى أمة محمد ﷺ حبيب الرحمن ومجتباه . المنزل فى شأنها ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾(آل عمران:١١٠) . وقد أنزل القرآن مـن اللـوح المحفوظ جملة واحدة إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ﴾(القدر:١) . ثم نزل به جبريل مفرقاً على حسب الوقائع فى ثلاث وعشرين سنة .

وقـد روى: فـى كيفية نزول القرآن أن الله تعالى إذا أراد إنزال سورة أو آية نظر بصفة العلم فـى قلـب جـبريل عليه السلام فحصل فيه علم ضرورى ثم نظر بصفة الكلام ففتق لسانه عليه السلام عـلى ألفـاظ القـرآن مـع النظم فأنزله على نبينا محمد ﷺ فالنظم له فى الحقيقة هو الله تعالى حيث فتق بلسان جبريل .

قـال الإمـام الشـعرانى: فـى كـتابه (القواعـد الكشفية) واعلم يا أخى أن مسئلة كيفية كـلام الله تعـالى والكلام على حدوثه وقدمه من عضال المسائل وقد حصل بسببها ضرب وقتل لبعض الأئمة فلنذكر لك أحسن ما رأيناه من كلام المتكلمين ثم ما رأيناه من كلام العارفين .

فـنقول وبـالله التوفيق اعلم إن القرآن يطلق بالأشتراك على معنيين كما قال الكمال ابن أبـى شـريف أحدهمـا الكـلام القـائم بالذات الأقدس الثانى اللفظ المنزل على محمد ﷺ ثم إن القـرآن بالمعـنى الأول محـل نظر عـلماء أصول الدين وبالمعنى الثانى محل نظر علماء العربية والفقـه ووجـه الإضـافة فـى تسـمية كـلام الله تعالى بالمعنى الأول أنه صفة الله تعالى وبالمعنى الـثانى أنـه أنشـاه بـرقومه فـى اللـوح المحفوظ لقوله تعالى: ﴿ **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ** ﴾(البروج:٢١-٢٢) . أو بحـروفه فى لسان الملك لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** ﴾(الحاقة:٤٠) . ثـم قـال وقـد مـنع السـلف الصالح القول بكون القرآن مخلوقاً بالمعنى الثانى أدباً واحـترازاً عـن ذهـاب الوهـم إلى القـرآن بالمعـنى الأول الذى هو كلام الله النفسى القائم بذاته تعـالى . وقـال (الإمـام ابن العربى) فى الباب التاسع والستين وثلاثمائة المراد بقوله تعالى: ﴿ **مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ** ﴾(الانبياء:٢) . أنه محدث الاتيان لهم لا الوجود فهو قديـم فـى العـين حـادث فـى الاتـيان ثم قال ومما يدلك على أن الكلام لله والترجمة للمتكلم قولـه تعالى مقسماً إنه يعنى القرآن **لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** فأضاف الكلام إلى الواسطة والمترجم كما أضـافه تعـالى إلى نفسـه بقولـه: ﴿ **فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** ﴾(التوبة:٦) . فإذا تلى علينا

القرآن فقد سمعنا كلام الله وموسى عليه السلام لما كلمه ربه سمع كلام الله ولكن بين السماعين . أبعد من المشرقين . لأن الذى يدركه من سمع كلام الله بلا واسطة لا يساويه من يسمعه وقال فى باب الأسرار ذكر القرآن أمان، وبه يجب الإيمان أنه كلام الرحمن، مع تقطع حروفه فى اللسان، ونظم حروفه فيما رقم باليراع والبنان، فحديث الألواح والأقلام، وما حدث الكلام، وحكم على العقول والأوهام، بما عجزت عن إدراكه الأفهام، وقال فيه أيضاً الذكر القديم ذكر الحق. وإن حكى ما نطق به الخلق. كما أن ذكر الحادث ما نطق به الخلق وإن كان كلام الحق إذا كان الحق تعالى يتكلم على لسان عبده فالذكر قديم . ومزاجه بالعبد من تسنيم، لا يعرف الحق فى هذه المسئلة إلا من كان الحق قواه، ولا يعرف قواه إلا أن أيده وقواه. ثم قال فإن قال قائل فهل كان يجوز لرسول الله ﷺ أن يتصرف فيما أنزل عليه بعبارة أخرى نظير جواز رواية الحديث بالمعنى للعارف فالجواب لا يجوز لأحد أن يعتقد أن رسول الله ﷺ تصرف فى اللفظ المنزل عليه أو أنه رواه بالمعني لأنه لو صحح فى حقه ذلك لكان مبيناً لنا صورة فهمه ﷺ لا صورة ما نزل عليه وقد قال تعالى: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾(النحل:٤٤) . وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾(المائدة:٦٧) أ هـ . باختصار .

واعلم: أن كلام الله تعالى لا يكيف كسائر صفاته من علم وإرادة وقدرة حتى لو سئل موسى عليه السلام كيف سمعت كلام ربك لا يقدر على إيصال علم كيفية ذلك إلينا بعبارة لأنه من جملة علوم الأذواق كما لو قلت لمن ذاق طعم العسل دونك صف لى طعمه فإنه لا يقدر على إيصال صورة ذوقه لك فى عبارة فافهم ذلك والله يتولى هداك .

ثم اعلم: أن القرآن إنما نزل مفرقاً ولم ينزل جملة كغيره من الكتب لأن إنزاله كذلك فيه تثبيت لقلب من أنزل عليه وعناية لاستلزامه كثرة نزول الملك إليه وجميع الكتب التى أنزلت من السماء مائة وأربعة منها (خمسون صحيفة على شيث) (وثلاثون على إدريس) (وعشرة على إبراهيم) (وعشرة على موسى قبل التوراة) (وتوراة موسى) (وانجيل عيسى) (وزبور داود) (وفرقان سيدنا محمد ﷺ) وعليهم أجمعين . وإنما سمى فرقاناً لكونه فارقاً بين الحق والباطل كما أنه سمى قرآناً من القرء بفتح القاف وهو الجمع لجمعه معانى الكتب السماوية جميعها وقد جمعه أبو بكر رضي الله عنه بإشارة عمر ثم جمعه ثانياً عثمان رضي الله عنه بإجماع الصحابة والفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان أن جمع أبى بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شئ بذهاب حملته لأنه لم يكن مجموعاً فى موضع واحد فى زمنه ﷺ التردد

الوحى بالناسخ والمنسوخ وإنما كان بعض الصحابة يحفظ سورة والبعض سوراً والبعض آيات ويكتبون ذلك فى أوراق أو على عسيب النخل أو نحو ذلك فجمعه أبو بكر فى صحائف مرتباً لآياته وسوره على ما وقفهم عليه النبى ﷺ فلا تتوهم من قول بعضهم

مخلف طه سبحتان ومصحف

أن القرآن كان مجموعاً فى مصحف واحد على عهده ﷺ وإنما المراد بعض آيات كانت مكتوبة أطلق عليها أسم المصحف مجازاً وأما جمع عثمان فكان لما كثر الأختلاف فى وجوه القرآن من أهل العراق والشام حين قرؤه بلغاتهم على اتساع اللغات فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض فخشى من تفاقم الأمر واختلافهم فيه كما أختلفت اليهود والنصارى فى كتبهم فنسخ تلك الصحف فى مصحف واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش نظراً لكونه نزل بلغتهم وكان قد وسع فى قراءته بلغة غيرهم دفعاً للحرج والمشقة فى ابتداء الأمر فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت واقتصر على لغة واحدة فكان التأليف للأيات والسور بالتوقيف فى الزمن النبوى والجمع فى الصحف فى زمن الصديق والنسخ فى الصاحف فى زمن عثمان والمشهور أن عدة المصاحف التى أرسلها إلى الآفاق خمسة وقيل سبعة وأمر بحرق ما عداها من الصحف فأرسل مصحفاً إلى مكه ومصحفاً إلى الشام ومصحفاً إلى اليمن ومصحفاً إلى البحرين ومصحفاً إلى الكوفة وأمسك مصحفاً بالمدينة وحفظ الله من الاختلاف كتابه المكنون كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(الحجر:٩) . وقد كانت الكتابة فى المصاحف العثمانية وغيرها وكتب الحديث بالخط المسمى بالكوفى واستمرت على ذلك مدة تقرب من ثلاثة قرون إلى أن جاء (بن مقلة) فى أواخر القرن الثالث وحولها إلى هذه الطريقة المعروفة وحاز بذلك فضيلة السبق ثم جاء بعده (على بن هلال) الكاتب البغدادى وهذبها وكانت المصاحف بدون شكل لأن العرب لا تلحن بطبعها فلا يلتبس عليها المرفوع مثلاً بالمنصوب والمجرور حتى تحتاج للشكل الذى يميزه ولكن لما كثرت الفتوح واختلطت العرب بالعجم وتغيرت ألسنتهم وسمع (أبو الأسود الدؤل) من يقر: ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾(التوبة:٣) . بكسر اللام بادر بوضع قواعد من علم العربية كان أخذها عن الإمام على كرم الله وجهه وشكل الكتاب العزيز بالحركات الثلاث والتنوين وأما بقية الشكل كالشدة والمدة والقطعة فمن عمل الحجاج .

ثم اعلم أنه قد ورد فى فضل القرآن أحاديث كثيرة (منها) قوله ﷺ (ما من شفيع

أفضل منزلة عند الله تعالى من القرآن لا نبى ولا ملك) .

ومنها قوله ﷺ {خيركم من تعلم القرآن وعلمه} .

ومنها قوله ﷺ {أفضل عبادة أمتى تلاوة القرآن} .

ومنها قوله ﷺ {من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظمه الله تعالى} .

ومنها قوله ﷺ {إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل وما جلاؤها يا رسول الله قال تلاوة القرآن وذكر الموت} .

فائدة: (قال الدميرى) من كتب هذه الآيات ووضعها فى متاع او غيره حفظ بإذن الله تعالى ومن حملها معه حفظ بإذن الله ولم ير فى نفسه ولا عياله مكروهاً وإذا علقت على صبى حفظ من القرائن والتوابع وأم الصبيان ونشأ منشأ صالحاً قال وحيث وصلت إليك هذه الذخيرة فعض عليها بالنواجذ فمنافعها كثيرة وهى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(الأنعام:٩٦). ﴿وَعَلَى اللَّـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(آل عمران:١٢٢). ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾(ابراهيم: ٤٢). ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾(ابراهيم:٣٤). ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ (الإسراء:٢٣). ﴿تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه:٤-٥). ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(الشعراء:٨٨-٨٩). ﴿ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(فصلت: ١١) ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾(الذريات:٢٢).

وقال أيضاً: ومما جرب لإذهاب الخوف والهم والغم أن يكتب هاتين الآيتين ويحملهما فإن الله تعالى يبارك له فى جميع أحواله وينصره على أعدائه وهما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(آل عمران:١٥٤) وقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ﴾(الفتح:٢٩) إلى آخر سورة الفتح . قال وهما ينفعان لأيضاً للأمراض الباطنة والظاهرة التى تحدث فى البدن كالدمامل والقروح والنفخ والحرارة ونحو ذلك فيكتب الآيتين فى إناء نظيف ويمحو بدهن ورد أو زيت طيب أو شيرج ويطلى به ذلك فإنه يبرأ قال وهما من الأسرار المخزونه .

ومن اللطائف أن بعض الأكابر كان يلتزم التكلم بالقرآن، خوفاً من الوقوع فيما يغضب الرحمن فمن ذلك، ما حكى أن عبد الله بن المبارك قال خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام، وزيارة النبى عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا فى بعض الطريق وإذا بسواد على الطريق فتميزته فإذا عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف فقلت السلام عليك ورحمة الله وبركاته

فقالت: ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾(يس:٥٨) . فقلت لها يرحمك الله ما تصنعين فى هذا المكان فقالت: ﴿ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَه ﴾(الأعراف:١٨٦) . فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها أين تريدين فقالت: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾(الإسراء:١) . فعلمت أنها قد قضت حجها وهى تريد بيت المقدس فقلت لها كم لك فى هذا الموضوع فقالت: ﴿ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾(مريم:١٠) . فقلت لها ما أرى معك طعاماً تأكلين منه فقالت: ﴿ هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾(الشعراء:٧٩) . فقلت بأى شئ تتوضئين فقالت: ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً ﴾(النساء:٤٣) . فقلت لها أن معى طعاماً فهل لك فى الأكل فقالت: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾(البقرة:١٨٧) . فقلت ليس هذا أشهر صيام رمضان فقالت: ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾(البقرة:١٥٨). فقلت قد أبيح لنا الإفطار فى السفر فقالت: ﴿ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(البقرة:١٨٤) . فقلت لم لا تكلمينى مثل ما أكلمك فقالت: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾(ق:١٨) . فقلت فمن أى الناس أنت فقالت: ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾(الإسراء:٣٦) . فقلت قد أخطأت فاجعلينى فى حل فقالت: ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾(يوسف:٩٢). فقلت لها فهل لك أن أحملك على ناقتى هذه فتدركى القافلة فقالت: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾(البقرة:١٩٧) . قال فانختها فقالت: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾(النور:٣٠) . فغضضت بصرى عنها وقلت لها أركبى فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾(الشورى:٣٠) . قلت لها أصبرى حتى أعقلها فقالت: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾(الانبياء:٧٩) . فعقلت الناقة وقلت لها أركبى فلما ركبت قالت: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ٭وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾(الزخرف:١٤) . قال فاخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح فقالت: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾(لقمان:١٩) . فجعلت أمشى رويداً رويداً وأترنم بالشعر فقالت: ﴿ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾(المزمل:٢٠) . فقلت لها ألك زوج فقالت: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾(المائدة:١٠١) فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها هذه القافلة فمن لك فيها فقالت: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾(الكهف:٤٦) . فعلمت أن لها أولاداً فقلت وما شأنهم فى الحج فقالت: ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾(النحل:١٦) . فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها الخيام وقلت هذه الخيام فمن لك فيها فقالت: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾(النساء:١٢٥). ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾(النساء:١٦٤). ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾(مريم:١٢) . فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار وقد أقبلوا فلما استقر بهم الجلوس قالت: ﴿ فَابْعَثُوا

أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَـذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَـا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ برِزْقٍ مِنْهُ ﴾(الكهف: ١٩) . فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدى فقالت: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾(الحاقة: ٢٤) . فقلت الآن طعامكم على حرام حتى تخبروني بأمرها فقالوا هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن، مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن، فقلت: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾(الحديد: ٢١) غير أنه لا ينبغى التكلم بالقرآن إذا خرج عن حده كما يحصل من بعض أفراد طلبة العلم وفقهاء الأرياف ثم إن المصنف ﷺ صرح باسم من به توسل ونعته الذى فاق به غيره من الرسل الكمل فقال:

مُحَمَّـدُ الْمَـبْعُوثِ لِلْخَلْـقِ رَحْمَـةً ... ودَعْوَتُـهُ فِـيمَا سِـوَى اللهِ عَمَّـتِ

أى أن الذى توسلت بجاهه هو سيدنا محمد الذى حمده أهل السماء والأرض ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانه بن خزيمة بن مدركه بن الياس بن مضر بن نزار بن معدن بن عدنان . واتفق النسابون على صحة النسب إلى عدنان وأما فوقه ففيه نزاع وأمه ﷺ آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة إلخ .

وقوله المبعوث أى المرسل للخلق كافة لا فرق بين العرب والعجم ولا بين الانس والجن قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾(الأعراف: ١٥٨) . وإذا قيل أن لفظ الناس لا يشتمل الجن على بعض الأقوال فنقول دليل إرساله للجن قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ٭ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾(الجن: ١-٢) . وهم مكلفون من حين الخلقة وأما إرساله ﷺ للملائكة فأرسال تشريف لا تكليف لأنهم معصومون من المخالفة كما قال تعالى فى حقهم: ﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾(التحريم: ٦) . وفى الحقيقة هو الرسول الأعظم لجميع الناس والأنبياء السابقون نواب عنه كما قال الإمام البوصيرى:

كأنه شمس فضل هم كواكبها ... يظهرون أنوارها للناس فى الظلم

فشرعه ﷺ قد نسخ جميع الشرائع السابقة عايه كما قال اللقانى:

ونسخه لشرع غيره وقع ... حتماً أذل الله من له منع

وفى الحديث الشريف {لو جئت فى زمن موسى ما وسعه إلا إتباعى} . وكانت بعثته ﷺ

رحمة للخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم بالهداية للمؤمن تأخير العذاب عن الكافر قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾(الأنفال: ٣٣) . وفى الحديث الشريف {إنما أنا رحمة مهداة} .

وورد: أنه ﷺ قال لجبريل {هل أصابك من هذه الرحمة شئ فقال كنت أخشى العاقبة فأمنت} . وقد أكد المصنف تعميم بعثته للخلق بقوله ودعوته فيما سوى الله عمت أى ودعوته الناس للإسلام عمت وفشت فيما سوى الله تعالى ومعلوم أن ما سوى الله اسم لجميع العوالم من أنس وجن وملك بل قيل أن بعثته عمت الحيوانات والجمادات بدليل شهادة الضب له ﷺ بالرسالة، وإجابة الشجر دعوته، وتسبيح الحصى فى يده، وقد توفى ﷺ عن مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً من الصحابة ﷺ أجمعين وجعلنا من التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين؛ ولما كان نبينا ﷺ هو الواسطة العظمى فى نعمة كل إنسان وجب علينا مدحه والثناء عليه لقوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلاَّ الْإِحْسَانُ ﴾(الرحمن: ٦٠) .

قصيدة الأباصيرى

ولكن لعلمى بقصور باعى عن مدح هذا الجناب المنيف وعجز يراعى عن رقم ما يليق بمنصبه الشريف استحسنت أن أزين كتابى بما نمقه سلطان العاشقين للحضرة المحمدية سيدى محمد البوصيرى فى قصيدته اللامية حباً فى نشر محاسن الحبيب المحبوب ورجاء أن أنال بذلك منه كل مطلوب ومرغوب فإنها اشتملت على غرر الخصائص الشريفة التى تزرى بقلائد العقيان واحتوت على المعجزات المنيفة التى يشف بها سمع المحبين لإنسان عين كل إنسان وقد ابتدأها بجملة من التصوف ترشد المريد إلى سلوك سبيل الرشاد . فقال ﷺ موفياً بالمراد:

إلى متى أنت باللذات مشغول ... وأنت عن كل ما قدمت مسئول

فى كل يوم ترجى أن تتوب غداً ... وعقد عزمك بالتسويف محلول

أما يرى لك فيما سر من عمل ... يوماً نشاط وعما ساء تكسيل

فجرد العزم إن الموت صارمه ... مجرد بيد الآمال مسلول

وأقطع حبال أمانيك التى اتصلت ... فإنما حبلها بالزور موصول

أنفقت عمرك فى مال تحصله ... وما على غير اثم منه محصول

ورحت تعمر داراً لابقاء لها ... وأنت عنها وإن عمرت منقول

جاء النذير فشمر للمسير بلا ... مهل فليس مع الإنذار تمهيل

وصن مشيبك عن فعل تشان به ... فكل ذى صبوة بالشيب معذول

لا تنكرنه وفى الفودين قد طلعت ... منه الثريا وفوق الرأس اكليل

فإن أرواحنا مثل النجوم لها ... من المنية تسيير وترحيل

وإن طالعها منا وغاربها ... جيل يمر ويأتى بعده جيل

حتى إذا بعث الله العباد إلى ... يوم به الحكم بين الخلق مفصول

تبين الربح والخسران فى أمم ... تخالفت بيننا منها الأقاويل

فأخسر الناس من عقيدته ... فى طيها لنشور الخلق تعطيل

وأمــة تعــبد الأوثــان قــد نصــبت لهــا التصــاوير يومــاً والتماثــيل
وأمــة ذهبــت للعجــل عــابدة فــنالها مــن عــذاب الله تعجــيل
وأمــة زعمــت أن المســيح لهــا رب غــداً وهــو مصــلوب ومقــتول
فثلثــت واحــداً فــرداً نوحــده وللبصــائر كالأبصــار تخيــيل
تــبارك الله عمــا قــال جــاحده وجــاحد الحــق عـند النصـر مخـذول
والفـوز فـى أمـة ضـوء الوضـوء لهـا قــد زانهــا غــرر مــنه وتحجــيل
تظــل تــتلو كــتاب الله لــيس بــه كســائر الكتــب تحــريف وتــبديل
فالكتـب والرسـل مـن عـند الإله أتت ومــنهمو فاضــل حقــاً ومفضــول
والمصــطفى خــير خلــق الله كــلهم لــه عـلى الرسـل ترجـيح وتفضـيل
محمــد حجــة الله الــتى ظهــرت بسـنة مـا لهـا فـى الخلـق تحويـل
نجــل الأكــارم والقــوم الذيــن لهــم عـلى جمـيع الأنـام الطـول والطـول
مــن كمــل الله معــناه وصــورته فـلم يفـته مـدى الحـالين تكمـيل
وخصــه بوقــار مــنه قــر لــه فـى أنفـس الخلـق تعظـيم وتبجـيل
بـادى السـكينة فـى سخط لـه ورضا فـلم يـزل وهـو مـرهوب ومـأمول
يقـابل البشـر مـنه بالـندى خلـق زاك عـلى العـدل والإحسـان مجهـول
مـن آدم ولحـين الوضـع جوهـره الـ ـمكنون فـى أنفـس الأصداف محمول
فللنــبوة إتمــام ومبــتدأ بــه وللفخــر تعجــيل وتأجــيل
أتــت إلى الــناس ومــن آياتــه جمـل أعيـت عـلى الـناس مـنهن التفاصـيل
أنــبا ســطيح وشــق وابــن ذى يــزن عــنه وقــس وأحــبار مقــاويل
وعــنه أنــبأ موســى والمســيح وقــد أصــغت حواريــه الغــر البهالــيل
بأنــه خــاتم الرســل المــباح لــه مــن الغــنائم تقســيم وتنفــيل

وليس لأعدل منه الشاهدون له ولا بأعلم منه إن همو سيلوا
وإن سألتهمو عنه فلا حرج إن المحك عن الدنيار مسئول
كم آية ظهرت في حين مولده به البشائر منها والتهاويل
علوم غيب فلا الأرصاد حاكمة ولا التقاويم فيها والتحاويل
إذ الهواتف والأنوار شاهدها لدى المسامع والأبصار مقبول
ونار فارس أضحت وهي خامدة ونهرهم جامد والصرح مثلول
ومذ هدانا إلى الإسلام مبعثه دهى الشياطين والأصنام تجديل
وانظر سماء غدت مملوءة حرسا كأنها البيت لما جاءه الفيل
فردت الجن عن سمع ملائكة إذ ردت البشر الطير الأبابيل
كل غدا وله من جنسه رصد للجن شهب وللإنسان سجيل
لولا نبي الهدى ما كان في فلك على الشياطين للأملاك توكيل
لما تولت تولى كل مسترق عن مقعد السمع منها وهو معزول
إن رمت أكبر آيات وأكملها كفاك من محكم القرآن تنزيل
وانظر فليس كمثل الله من أحد ولا كقول أتى من عنده قيل
لو يستطاع له مثل لجئ به والمستطاع من الأعمال مفعول
لله كم أفحمت أفهامنا حكم منه وكم أعجز الألباب تأويل
يهدى إلى كل رشد حين يبعثه إلى المسامع ترتيب وترتيل
تزداد منه على ترداده مقة وكل قول على الترداد مملول
وربما مجه قلب به ريب كما يمج دواء الداء معلول
ما بعد آياته حق لمتبع والحق ما بعده إلا الأباطيل
وما محمد إلا رحمة بعثت للعالمين وفضل الله مبذول

هو الشفيع إذا كان المعاد غداً واشتد للحشر تخويف وتهويل

فما على غيره للناس معتمد ولا على غيره للناس تعويل

ان امرأ شملته من شفاعته عناية لامرؤ بالفوز مشمول

نال المقام الذى ما ناله أحد وطالما ميز القدار تنويل

وأدرك السؤل لما قام مجتهداً وما بكل اجتهاد يدرك السول

لو أن كل علا بالسعي مكتسب ما جاز حين نزول الوحي تزميل

أعلى المراتب عند الله رتبته فاعلم فما موضع المحبوب مجهول

من قاب قوسين أو أدنى لَه نزل وحق منه لَه مثوى وتحليل

سرى إلى المسجد الأقصى وعاد به ليلاً براق يبارى البرق هذلول

يا حبذا حين قرب لا أكيفه وحبذا حال وصل عنه مغفول

وكم مواهب لم تدر العباد بها أتت إليه وستر الليل مسدول

هذا هو الفضل لا الدنيا وما رجحت به الموازين منها والمكاييل

وكم أتت عن رسول الله بينة فى فضلها وافق المنقول معقول

ه نور فليس لَه فئ يرى ولَه من الغمامة أنى سار تظليل

ولا يرى فى الثرى أثر لأخمصه إذا مشى ولَه فى الصخر توحيل

دنا إليه حنين الجذع من شغف إذنا لَه منه بعد القرب تزييل

فليت من وجهه حظى مقابلة وليت حظى من كفيه تقبيل

بيض ميامين يستسقى الغمام بها للشمس منها وللأنواء تخجيل

ما إن يزال بها فى كل نازلة للقل كثر وللتصعيب تسهيل

فاعجب لأفعالها إن كنت مدركها وأطرب إذا ذكرت لك الأقاويل

كم عاود البرء من أعلاله جسداً بلمسه واستبان العقل مخبول

ورد ألفين في رى وفي شبع إذ ضاق باثنين مشروب ومأكول
ورد مياء ونوراً بعد ما ذهبا ريق له بكلا العينين متفول
ومنبع الماء عذباً من أصابعه وذاك صنع به فينا جرى النيل
وكم دعا ومحبا الأرض مكتئب ثم انثنى وله بشر وتهليل
فأصبح المحل فيها لا محل له وعال ذكر الغلا من خصبها غول
فبالظراب ضروب للغمام كما عن البناء عزاليها معازيل
وآض من روضها جيد الوجود به من لؤلؤ النور ترضيع وتكليل
وعسكر لجب قد لج في طلب لغزوه غره بأس وترعيل
دعا نزال قولى والبوار به من الصبار الحصى والرعب منزول
واغيرنا حين أضحى الغار وهو به كمثل قلبى معمور ومأهول
كأنما المصطفى فيه وصاحبه الصديق ليثان قد آواهما غيل
وجلل الغار نسج العنكبوت على وهن فيا حبذا نسج وتجليل
عناية ضل كيد المشركين بها وما مكايدهم إلا الأضاليل
إذ ينظرون وهم لا يبصرونهما كأن أبصارهم من زيغها حول
أن يقطع الله عنه أمة سفهت نفوسها فلها بالكفر تعليل
فإنما الرسل والأملاك شافعها لوصلة منه تسآل وتطفيل
ما عذر من منع التصديق منطقه وقد نبا عنه محسوس ومعقول
والذئب والعير والمولود صدقه والظبى أفصح نطقاً وهو محبول
والبدر بادر منشقاً بدعوته له كما شق جيب وهو مبتول
والنخل أثمر في عام وسربه سلمان إذ بسقت منه العثاكيل
أن أنكرته النصارى واليهود على ما بينت منه توراة وانجيل

فقد تكرر منهم فى جحودهم للكفر كفر وللتجهيل تجهيل

قل للنصارى الأولى ساءت مقالتها فما لها غير محض الجهل تعليل

من اليهود استفدتم ذا الجحود كما من الغراب استفاد الدفن قابيل

فإن عند كمو توراتهم صدقت ولم تصدق لكم منهم أناجيل

ظلمتمونا فأضحوا ظالمين لكم وذاك مثب قصاص فيه تعديل

منكم لنا ولكم من بعضكم شغل والناس بالناس فى الدنيا مشاغيل

لقد علمتم ولكن صدكم حسد أنا بما جاءنا قوم مقابيل

أما عرفتم نبى الله معرفة الأ بناء لكنكم قوم مناكيل

هذا الذى كنتمو تستفتحون به لولا اهتدى منكمو للرشد ضليل

فلا ترجوا جزيل الأجر من عمل أن الرجاء من الكفار مخذول

تؤذنون بزق من جهالتكم به انتفاخ وجسم فيه ترهيل

موتوا بغيظ كما قد مات قبلكمو قابيل إذ قرب القربان هابيل

يا خير من رويت للناس مكرمة عنه وفضل تحريم وتحليل

كم قد أتت عنك أخبار مخبرة فى حسنها أشبه التفريع تأصيل

تسرى إلى النفس منها كلما وردت أنفاس ورد سرت والورد مطلول

من كل لفظ بليغ راق جوهره كأنه السيف ماض وهو مصقول

لم تبق ذكراً لذى نطق فصاحته وهل تضئ مع الشمس القناديل

جاهدت فى الله أبطال الضلال إلى أن ظل للشرك بالتوحيد تظليل

شكا حسامك ما تشكو جموعهمو ففيه منها وفيها منه تفليل

لله يوم حنين حين كان به كساعة البعث تهويل وتطويل

ويوم أقبلت الأحزاب وانهزمت وكم خبا لهب بالشرك مشعول

جاؤا باسلحة لم تحم حاملها ... إن الكماة إذا لم يصر واميل

من بعد ما زلزلت بالشرك أبنية ... وأنبت حبل بأيدى الريب مفتول

وظن كل أمرئ فى قلبه مرض ... بان موعده بالنصر ممطول

فأنزل الله أملاكاً مسومة ... لبوسها من سكينات سرابيل

شاكى السلاح فما تشكوا الكلال ومن ... صنع الأله لها نسج وتأثيل

من كل موضونة خضراء سابغة ... ترد حد المنايا وهو مفلول

وكل أبتر للحق المبين به ... وللضلالة تعديل وتمييل

لم تبق للشرك من قلب ولا سبب ... إلا غداً وهو متبول ومبتول

ويوم بدر إذ الإسلام قد طلعت ... به بدور لها بالنصر تكميل

سيئت بما سزنا الكفار منه وقد ... أفنى سراً تهمو أسر وتقتيل

كأنما هو عرس فيه قد جليب ... على الظبا والقنا روس مفاصيل

والخيل ترقص زهواً بالكماة وما ... غير السيوف بأيديها مناديل

ولا مهور سوى الأرواح تقبلها الـ ... ـبيض البهاثير والسمر العطابيل

ولو ترى كل وصل من كماتهم ... مفصلاً وهو معكوف ومشلول

كأحرف أشكلت خطاً فأكثرها ... بالطعن والضرب منقوط ومشكول

وكل بيت حكى بيت العروض له ... بالبيض والسمر تقطيع وتفعيل

وداخلت بالردى أجزاءهم علل ... غدا المرفل منها وهو مجزول

وكل ذى ترة تغلى مراجله ... غدا يقاد ذليلاً وهو مغلول

وكل جرح بجسم يستهل دما ... كأنه مبسم بالراح معلول

وعاطل من سلاح قد غدا وله ... أساور من حديد أو خلاخيل

والأرض من جثث القتلى مجللة ... والترب من أدمع الأحياء مبلول

غصت قلوب كما غص القليب بهم — فللأسى فيهمو والنار تأكيل

وأصبح البئر إذ أهل البوار به — مثل الوطيس به خرر رعابيل

وأصبحت أيمات محصنات تهمو — وأمهاتهمو وهى المثا كيل

لا تمسك الدموع من حزن عيونهمو — إلا كما يمسك الماء الغرابيلى

وصار فقرهمو للمسلمين غنى — وفى المصائب تفويت وتحصيل

ورد أوجههم سودا وأعينهم — بيضا من الله تنكيل وتشكيل

سالت وساءت عيون منهموا مثلاً — كأنما كلها بالشوك مسمول

أبغض بها مقلا قد أشبهت لبناً — طفا الذباب عليه وهو ممقول

ويوم عم قلوب المسلمين أسا — بفقد عمك والمفقود مجذول

ونال أحدى الثنايا الكسر فى أحد — وجاء يجبر منها الكسر جبريل

وفى مواطن شتى كم أتاك بها — نصر من الله مضمون ومأمول

وملكت يدك اليمنى ملائكة — غر كرام وأبطال بها ليل

يسارعون إذا ناديتهم لوغى — إن الكرام إذا نودوا هذا ليل

من كل نضو نحول ما يزال به — إلى المكارم جد وهو مهزول

بنانه بدم الأقران مختضب — وطرفه بسنا الإيمان مكحول

آل النبى بمن أو ما أشبهكم — لقد تعذر تشبيه وتمثيل

وهل سبيل إلى مدح يكون به — لأهل بيت رسول الله تأهيل

يا قوم بايعتكم أن لا شبيه لهم — من الورى فاستقيلوا البيع أو قولوا

جاءت على تلو آيات النبى لهم — دلائل هى للتاريخ تذييل

معاشر مارضوا أنى لمبتهج — بهم وما سخطوا إنى لمثكول

وإن من باع فى الدنيا محبتهم — ببغضة الله فى الأخرى لمرذول

وحسب من ثكلت عنهم خواطره … إن مات أو عاش تنكيل وتنكيل

إن المودة فى قربى النبى غنى … لا يستميل فؤادي عنه تمويل

وكم لأصحابه الغر الكرام يد … عند الإله لها فى الفضل تحويل

قوم لهم فى الوغى من خوف ربهم … حسن إبتلاء وفى الطاعات تبتيل

كأنهم فى محاريب ملائكة … وفى حروب أعاديهم رآبيل

حكى العباءة قلبى حين كان بها … للآل تغطية والصحب تخليل

ولى فؤاد ونطق بالوداد لهم … وبالمدائح مشغوف ومشغول

فإن ظننت بهم ختلا لبعضهم … أنى إذا بغرور النفس مخبول

أئمة الدين كل فى محاولة … إلى صواب أجتهاد منه موكول

ليقضى الله أمرا كان قدره … وكل ما قدر الرحمن مفعول

حسبى إذا ما منحت المصطفى مدحى … فى الحشر تزكية منه وتعديل

مدح به ثقلت ميزان قائله … وخف عنه من الأوزار تثقيل

وكيف تأبى جنى أوصافه همم … يزروقها من قطوف العز تذليل

وليس يدرك أدنى وصفه بشر … أيقطع الأرض ساع وهو مكبول

كل البلاغة عى فى مناقبه … إذا تفكرت والتكثير تقليل

لو أجمع الخلق أن يحصوا مناقبه … أعيتهمو جملة منها وتفصيل

عذرا إليك رسول الله من كلى … ان الكريم لديه العذر مقبول

ان لم يكن منطقى فى طيه عسل … فأنه بمديح منك معسول

هاحلة بخلال منك قد رقمت … ما فى محاسنها للعيب تخليل

جاءت يحيى وتصديقى إليك وما … حبى مشوب ولا التصديق مدخول

ألبستها منك حسنا فازدهت شرفا … بها الخواطر منا والمناويل

لم أنتحلها ولم أغصب معانيها ... وغير مدحك مغصوب ومنحول
وما على قول كعب أن توازيه ... وربما وازن الدر المثاقيل
وهل توازنه حسنا ومنطقها ... عن منطق العرب العرباء معدول
وحيث كنا معا نرمي إلى غرض ... فحبذا ناضل منا ومنضول
أن أقف آثاره انى الغداة بها ... على طريق نجاح منك مدلول
لما غفرت له ذنبا وصنت دما ... لولا ذمامك أضحى وهو مطلول
رجوت غفران ذنب موجب تلفا ... له من النفس أملاء وتسويل
وليس غيرك لى مولى أؤمله ... عند الإله وحسبى منك تأميل
ولى فؤاد محب ليس يقنعه ... غير اللقاء ولا يشفيه تعليل
يميل بى لك شوقا أو يخيل لى ... كأنما بيننا من شقة ميل
يهم بالسعي والأقدار تمسكه ... وكيف يعدو جواد وهو مشكول
متى تجوب رسول الله نحوك بى ... تلك الجبال نجيبات مراسيل
وأنثنى ويدى بالفوز ظافرة ... وثوب دينى من الآثام مغسول
فى معشر أخلصوا لله دينهمو ... وفوضوا أن هموا نالوا وأن نيلوا
شعث لهم من ثرى البيت الذى شرفت ... به النبيون تطيب وتكحيل
محلقى أرؤسا زبدت وجوههمو ... حسنا به فكأن الحلق ترجيل
قد رحب البيت شوقا والمقام بهم ... والحجر والحجر الملثوم والميل
نذرت أن جمعت شملى ببابك أو ... شفت فؤادى به قوداء شمليل
أبل من طيبة بالدمع طيب ثرى ... لغتى وغليلى منه تبليل
دامت عليك صلاة الله يكفلها ... من المهيمن أبلاغ وتوصيل
ما لاح ضوء صباح فاستسر به ... من الكواكب قنديل فقنديل

ثم قال المصنف ﷺ:

عَلَـيْهِ صَـلاَةُ اللهِ مَـا هَبَّـتِ الصَّـبَا وَمَـا نـاحَ طَـيْرٌ فَـوْقَ غُصْـنِ أَرِيكَـةِ

أى أطلب أن نتوارد عليه صلاة الملك الرحيم . وهى رحمته المقرونة بالتعظيم، وتدوم مادام هبوب الصبا بفتح الصاد المهملة وهى الريح التى تأتى من جهة المشرق ويقال لها القبول بفتح القاف وهى القائل فيها ﷺ لما نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وإنما أتى بالصلاة عليه ﷺ فى الحديث: {من صلى على فى كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام أسمى فى ذلك الكتاب} .

وقوله وما ناح أى صاح طير كحمام وقمرى أى ومدة صياح الطيور فوق غصن أى فرع أريكة بفتح الهمزة وكسر الراء أى شجرة أراك ونحوها والغرض من ذلك طول المدة التى نتوارد فيها الصلاة عليه ﷺ فالمقصود التأبيد .

وفى الحديث {إن أولى الناس بى يوم القيامة اكثرهم على صلاة} .

وقال ﷺ {أتانى جبريل ببشارة لم يأتنى بمثلها قط فقال من صلى عليك مرة واحدة صلى الله عليه بها عشرا ومن صلى عليك عشرا صلى الله عليه بها مائة ومن صلى عليك مائة صلى الله عليه بها ألفا ومن صلى عليك ألفا حرم الله جسده على النار} . ولله در من قال:

إن شئت من بعد الضلالة تهتدى صلى على الهادى البشير محمد

يا فوز من صلى عليه فإنه يحوى الأمانى بالنعيم السر مدى

يا قومنا صلوا عليه لتظفروا بالبشر والعيش الهنى الأرغد

ويخصكم رب الأنام بفضله والفوز بالجنات يوم الموعد

صلى عليه الله جل جلاله ما لاح فى الآفاق نجم الفرقد

ثم أتى المصنف بالسلام لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (الأحزاب:٥٦) فقال:

وتَسْـلِيمُهُ الأزكـى عَلَـيْهِ يَحُفُّـهُ وَرِضْـوَانُهُ عـنْ آلـهِ والصَّـحَابَةِ

والتسليم من الله على نبيه الكريم، معناه التحية اللائقة بجنابه العظيم، والأزكى معناه الأطيب وقوله يحفه أى يحيط به من كل جانب ولما كان الترضى عن الآل والصحب

مطلوبا طلبا أكيد قال المصنف ورضوانه عن آله والصحابة، وكما يستحب الترضى عن الآل والصحب يستحب الترضى عن العلماء العاملين، وعباد الله الصالحين، وخلافا لقول بعضهم يقال فى حق العالم مثلاً رحمه الله ولا يقال ﷺ فإنه تحجير على فضل الله، ثم أنه يختلف تفسير آله ﷺ باختلاف المقامات ففى مقام الزكاة هم الذين تحرم عليهم الزكاة كبنى هاشم وفى مقام المدح أهل بيته الكرام، الذين بحبهم وبزيارتهم يبلغ العبد المراد . وفى الحديث {ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له} ولله در القائل:

أرى حب آل البيتعندى فريضة ... على رغم أهل البعد يورثنى القربا

فما أختار خير الخلق منا جزاؤه ... على هديه إلا المودة فى القربى

وهم أهل العباء الذين جمعهم النبى ﷺ تحت الكساء وقال {اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا} . فأنزل الله ﷻ ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾(الأحزاب:٣٣) وهم الحسن والحسين وأمهما وأبوهم كما قال بعض الأفاضل :

إن النبى محمدا ووصيه ... وابنيه وابنته البتول الطاهرة

أهل العباء وإننى بولائهم ... أرجو السلامة والنجافى الآخرة

وقال بهاء الدين العاملى :

وثقت بعفو الله عنى فى غد ... وإن كنت أدرى أننى المذنب العاصى

وأخلصت حبى فى النبى وآله ... كفى فى خلاصى يوم حشرى إخلاصى

وأما فى مقام الدعاء كما هنا فكل مؤمن به ﷺ والصحابة جمع صحابى وهو من أجتمع به ﷺ أجتماعا متعارفا فيدخل فى ذلك عيسى عليه السلام فإنه أجتمع به ﷺ ليلة الإسراء فى بيت المقدس أجتماعا متعارفا وهو حى لأن الله تعالى رفعه إلى السماء حيا ونزل إلى بيت المقدس ليلة الإسراء لمقابلته ﷺ فهو أفضل الصحابة وآخر من يموت منهم وفيه ألغز التاج السبكى بقوله

من باتفاق جميع الناس أفضل ... خير الصحاب أبى بكر ومن عمر

ومن على ومن عثمان وهو فتى ... من أمة المصطفى المختار من مضر

ثم قال المصنف ﷺ:

وَعَــنْ مَــالِكٍ وَالشَّــافِعِيِّ وَأَحْمَــدٍ   وَنُعْمَــان الــثَّوْرِى وَبَــاقِى الأَئمــةِ

أى ورضوان الله تعالى عن الإمام مالك بن أنس أمام دار الهجرة ونجم السنة الذى كان مكتوبا على فخذه بقلم القدرة مالك حجة الله فى أرضه .

وفى الحديث: {يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فى طلب العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة} .

وناهيك قول الإمام الشافعى إذا ذكر العلماء فما لك النجم الثاقب وما أحد أمن على من مالك وقال كنت أتصفح الورقة بين يدى مالك تصفحا رقيقا هيبة له لئلا يسمع وقعها كما قيل فيه:

يأبى الجواب فلا يراجع هيبه   والسائلون نواكس الأذقان

أدب الوقار وعز سلطان التقى   فهو المطاع وليس ذا سلطان

وقد ثبت أن الإمام أبا حنيفة مع كونه أسن منه تلقى عنه بعض أحاديث ولد ﷺ سنة ثلاث وتسعين من الهجرة على الأصح وقيل سنة تسعين ومكث فى بطن أمه ثلاث سنين وقيل سنتين ومات سنة تسع وسبعين ومائة عن سبع وثمانين سنة وأقام مفتيا بالمدينة ستين سنة ودفن بالبقيع الشريف وعلى مقامه من الأنوار ما يليق بمقامه المنيف وفى الليلة التى مات فيها عمر بن يحيى بن سعيد الأنصارى قائلا يقول .

لقد أصبح الإسلام زعزع ركنه   غداة ثوى الهادى إلى ملحد القبر

أمام هدى مازال للعلم صائنا   عليه سلام الله فى آخر الدهر

قال فانتبهت وكتبت البيتين على السراج، وإذا الصارخة على مالك ﷺ عابدا زاهدا مبالغا فى تعظيم علم الدين، حتى كان إذا أراد أن يقرأ الحديث توضأ وسرح لحيته وأستعمل الطيب، ومنع الناس أن يرفعوا أصواتهم، ثم جلس فى صدر المجلس على وقار وهيبة، فقيل له فى ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ، وبلغ من تعظيمه للحديث أنه لدغته عقرب وهو يحدث ست عشرة مرة، فصار يصفر ويتلوى حتى تم المجلس ولم يقطع كلامه، وكتب بيده مائة ألف حديث، وجلس للتدريس وهو ابن تسع

عشرة سنة، وكان الناس يزدحمون على بابه لأخذ الحديث والفقه، كأزدحامهم على باب السلطان. وكان لَه حاجب يأذن أولا للخاصة، فإذا فرغوا أذن للعامة، وكان إذا أكثروا السؤال قال حسبَكم من أكثر فقد أخطأ، ومن أحب أن يجيب عن كل مسئلة فليعرض نفسه على الجنة والنار ٠ ثم يجيب، وقد أدركناهم إذا سئل أحدهم فكأن الموت أشرف عليه وكان يقول ينبغى للعالم أن يورث جلساءه. لا أدرى ليكون أصلا لهم يفزعون إليه، وقد سئل عن ثمانية وأربعين مسئلة . فقال فى ثنتين وثلاثين منها لا أدرى. وكان لا يدخل الخلاء إلا كل ثلاثة أيام مرة، ويقول والله قد أستحييت من كثرة ترددى للخلاء وقيل لَه كيف أصبحت فقال فى عمر ينقص وذنوب تزيد. ولما ألف الموطأ أتهم نفسه فى الإخلاص فيه فألقاه فى الماء وقال أن أبتل فلا حاجة لى به فلم يبتل منه شئ. وقال لَه هرون الرشيد يوما يا أبا عبد الله ينبغى أن تترد علينا حتى تسمع صبياننا منك الموطأ، فقال لَه أعز الله مولانا الأمير أن هذا العلم منكم خرج فإن أنتم أعززتموه عز وإن أنتم أذللتموه ذل العلم يؤتى ولا يأتى. فقال صدقت يا أبا عبد الله ثم قال لأولاده أخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس، وكان إذا دخل بيته يكون شغله تلاوة القرآن فى المصحف وكان يقول بلغنى أن العلماء يسئلون يوم القيامة عما يسئل عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكان يقول مثل المنافقين فى المسجد كمثل العصافير فى القفص إذ فتح باب القفص طارت العصافير. وقد أخذ ﷺ العلم عن تسعمائة شيخ منهم ثلاثمائة من التابعين. ثم إن بعض مشايخه أخذ عنه فسبحان ذى الفضل العظيم وكان ﷺ يقول ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يضعه الله تعالى فى القلب، وكان يقول حق على من طلب العلم أن يكون لَه وقار وسكينة وخشية، وكان يقول لا ينبغى للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيعه فإنه ذل وأهانة للعلم، ولما منعه جعفر بن سليمان من رواية الحديث فى طلاق المكره وحمله على بعير وقال لَه ناد على نفسك لم يمتنع ﷺ من روايته بل قال وهو على تلك الحالة إلا من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا مالك بن أنس أقول طلاق المكره ليس بشئ، فبلغ ذلك جعفر فقال أدركوه وأنزلوه وأتفق أن أمرأة غسلت امرأة فالتصقت يدها بفرجها فتحير الناس فى قطعها أو قطع فرج الميتة فاستفتو فى ذلك فقال سلوها ما قالت حين وضعت يدها عليها فسألوها فقالت قلت طالما عصى هذا الفرج ربه فقال أجلدوها حد القذف فجلدوها ثمانين جلدة فخلصت يدها فمن ثم قيل (لا يفتى ومالك بالمدينة)، ثم قال المصنف والشافعى أى ورضوان الله تعالى عن الإمام أبى عبد الله محمد بن أدريس الشافعى الوارد فيه عالم قريش يملأ طباق الأرض علما ولد بغزة سنة خمسين ومائة يوم وفاة أبى حنيفة ثم جل إلى مكة وهو ابن سنتين ونشأ

يتيما فى حجر أمه وحفظ القرآن وهو ابن تسع سنين، وحفظ موطأ الأمام مالك فى تسع ليالى . وهو ابن عشر سنين، وتفقه على مسلم بن خالد مفتى مكة، وأذن له فى الفتوى وهو ابن خمس عشرة سنة وكان يكثر التردد على الإمام مالك بالمدينة ويأخذ عنه العلم، وكان يجالس العلماء ويكتب ما يستفيده على العظام ونحوها، لأنه كان فى قلة من العيش وقد قسم الإمام مالك عليه ماله ثلاث مرات لكثرة كرمه وأنفاقه ما كان يدخر شيئاً، ثم رحل إلى بغداد وصنف فيها كتابه القديم ثم عاد إلى مكة فأقام بها مدة ثم رجع إلى بغداد ثم خرج منها إلى مصر، وأقام بها أربع سنين وصنف كتبه الجديدة ولم يزل ناشراً لواء العلم بجامعها العتيق إلى أن مات سنة أربع ومائتين ودفن بالقرافة فى دار ابن عبد الحكم وعلى مقامه من الأنوار ما يبهر الزوار ومما جرب لقضاء الحوائج أن يقول الزائر هذه الأبيات التى قالها سيدى أحمد البدوى عند زيارته

يا أماما يرجى لكل ملم	وهماما يرد بأس القوى
يا حسيبا أنا عليك حسبنا	ودخلنا فى كهفك المحمى
وبظل الجناب منك أحتمينا	من عدو وحاسد وبغى

ولَه دعاء مشهور بالإجابة .وهو (اللهم باللطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير) فمن واظب عليه كل يوم مائة واحدى وأربعين مرة كان محفوظا من شر الحوادث .

وكان ﷺ يقول: لا شئ أزين للعلماء من الفقر والقناعة والرضا بهما، وكان يقول جمال العلماء هو كرم النفس وزينة العلم الورع والحلم، وكان يقول لا عيب بالعلماء أقبح من رغبتهم فيما زهدهم الله فيه، وكان يقول من طلب العلم بعز النفس لم يفلح ومن طلبه بذل النفس وخدمة العلماء أفلح، وكان يقول أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ورغب فى مودة من لا ينفعه وقبل مدح من لا يعرفه، وكان يقول طلب فضول الدنيا عقوبة عاقب الله بها أهل التوحيد، وكان يمشى على العصا فقيل لَه فى ذلك فقال لا ذكر أنى مسافر من الدنيا، وكان يقول من غلبته شدة الشهود للدنيا لزمته العبودية لأهلها، وكان يقول من أحب أن يفتح الله تعالى عليه بنور القلب فعليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذين لا يريدون بعلمهم إلا الدنيا، وكان يقول ما شبعت منذ ست عشرة سنة لأن الشبع يثقل البدن ويقسى القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة .

فانظر إلى حكمته فى ذكر آفات الشبع ، وسئل عن مسئلة فسكت فقيل لَه ألا تجيب رحمك الله، فقال حتى أرى الفضل فى سكوتى أو فى جوابى فانظر إلى مراقبته للسانه . وكان ﷺ شديد الخوف والوجل .

حكى أنه سمع القارئ يقرأ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون فتغير لونه وأقشعر جلده وخر مغشيا عليه. فلما أفاق قال (أعوذ بك من مقام الكاذبين وأعراض الغافلين اللهم لك خضعت قلوب العارفين وذلت لك رقاب المشتاقين الهى هب لى جودك وجللنى بسترك وأعف عن تقصيرى بكرم وجهك) .

وقال لَه بعض أصحابه علمنى مما علمك الله، فقال لَه أعلم أن من صدق الله نجا ومن أشفق على دينه سلم من الردى، ومن زهد الدنيا قرت عيناه بما يراه من ثواب الله غدا، ثم قال أفلا أزيدك قال نعم قال من كان فيه ثلاث خصال فقد أستكمل الإيمان من أمر بالمعروف، وأئتمر ونهى عن المنكر. وأنتهى وحافظ على حدود الله تعالى، ثم قال ألا أزيدك قال بلى قال كن فى الدنيا زاهدا وفى الآخرة راغبا. وأصدق الله تعالى فى جميع أمورك، تنج مع الناجين وكان يقول ما كلمت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى، ولا أبالى ظهر الحق على لسانى أو على لسانه وكان يقول لو أجتهدت كل الجهد على أن ترضى كل الناس فلا سبيل إلى ذلك فأخلص عملك ونيتك لله ولما حضرته الوفاة أنشأ يقول .

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى	جعلت رجائى نحو عفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته	بعفوك ربى كان عفوك أعظما

وقال ﷺ :

بموقف ذلى دون عزتك العظمى	بمخفى سر لا أحيط به علما
بأطراق رأسى باعترافى بذلتى	بمد يدى أستمطر الجود والرحما
بأسمائك الحسنى التى بعض وصفها	لعزتها يستغرق النثر والنظما
بعهد قديم من ألست بربكم	بمن كان مجهولا فعلمته الأسما
أذقنا شراب الأنس يا من إذا سقى	محبا شرابا لا يضام ولا يظما

ثم قال المصنف وأحمد أى رضوان الله تعالى عن (الإمام أحمد بن حنبل) ناصر السنة والصابر على المحنة . وقد بالغ أئمة السلف فى مدح الظاهر والباطن من حاله . وأطبقوا على تحسين ما صدر عنه من أقواله وأفعاله . وناهيك قول شيخه الإمام الشافعى خرجت من بغداد وما خلقت فيها أورع، ولا أتقى، ولا أفقه، ولا أعلم من أحمد، ولد سنة أربع وستين ومائة، ومات سنة أحدى وأربعين ومائتين، ولما مات أرتجت الدنيا وهرع أهل بغداد للصلاة عليه بالصحراء فكان يوما مشهودا أجتمع فيها للصلاة عليه ما ينوف عن تسعمائة ألف نفس ما بين رجال ونساء، وأسلم يوم موته من اليهود والنصارى والمجوس نحو عشرين ألفا، وبالجملة ففضائله كثيرة ومناقبه شهيرة . نقل عنه أنه قال رأيت رب العزة فى المنام فقلت يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك فقال بكلامى يا أحمد فقلت بفهم أو بغير فهم فقال بفهم وبغير فهم وكان إذا جاع أخذ الكسرة اليابسه فنفضها من الغبار ثم صب عليها الماء فى قصعة حتى تبتل ثم يأكلها بالملح وكانوا فى بعض الأوقات يطبخون له فى فخاره عدسا وشحما، وكان إذا مشى فى الطريق لا يمكن أحدا يمشى معه، وكان يحيى الليل كله منذ كان غلاما، وكان له فى كل يوم وليلة ختمة، وكان ورده كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة. فلما ضرب بالسياط أيام المحنة وهى القول بخلق القرآن ضعف بدنه. فكان يصلى مائة وخمسين ركعة .

قال الفضيل بن عياض: حبس الإمام أحمد ﷺ ثمانية وعشرين شهرا وكان فيها يضرب كل قليل بالسياط إلى أن يغمى عليه وينخس بالسيف ثم يرمى على الأرض يداس عليه ثم خلى عنه، وأول هذه المحنة كان فى زمن المأمون سنة ثمان عشرة ومائتين، لكنه مات قبل أن يتمكن من قتل الإمام أحمد، وكان الذى أغراه على ذلك أحمد بن أبى داود ولما مات المأمون أوصى المعتصم بحمل الناس على القول بذلك، ولما مات المعتصم وولى بعده الواثق أتى بشيخ مقيد فامتحنه ابن أبى دؤاد فقال له الشيخ هذا هو الذى تقوله شئ علمه رسول الله ﷺ وخلفاؤه أو جهلوه قال بل علموه فقال هل دعوا إليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا، قال بل سكتوا، قال فهل وسعك ما وسعهم من السكوت فسكت ابن أبى داؤد وأعجب الواثق كلام الشيخ وخلى سبيله، وقام الواثق من مجلسه وهو يقول فهل وسعك ما وسعهم وجعل يكررها، ولما مات الواثق وولى بعده المتوكل رفع المحنة وأظهر السنة وكتب إلى الآفاق بان القرآن كلام الله غير مخلوق وخمدت المعتزلة وأمر السنة بأحضار الإمام أحمد وإكرامه . ثم قال المصنف ونعمان أى رضوان الله تعالى عن الإمام أبى حنيفة النعمان الذى قال فيه الإمام مالك حين قيل له هل رأيت أبا حنيفة، فقال رأيت رجلا لو كلمك فى هذه

السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته ، ولد بالأنبار سنة ثمانين وتوفى بالسجن لتمنعه من القضاء بعد أن ضرب مائة سوط وقيل مات خارجه ببغداد سنة خمسين ومائة، وكان كثير العبادة قيل أنه صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة ومع ذلك كان يكثر البكاء فى أخر الليل بعد التهجد ويقول:

فوا حزنا أن لا حياة هنيئة ولا عمل يرضى به الله صالح

ومن روعه أنه كان لا يجلس فى ظل جدار غريمه، ويقول (كل قرض بحر نفعا فهو ربا) . وكان يقول (إذا أرتشى القاضى فهو معزول وإن لم يعزله الإمام) . وسئل ﷺ أيما أفضل علقمة أو الأسود فقال والله ما نحن بأهل أن نذكرهم فكيف نفاضل بينهم وكان يقول جالست الناس منذ خمسين سنة فما وجدت رجلا غفر لى ذنبا ولا وصلنى حين قطعته ولا ستر على عورة ولا أأتمنه على نفسى إذا غضب فالاشتغال بهؤلاء حمق كبير، وكان يقول بلغنى أن ليس فى الدنيا أعز من فقيه ورع وقال له رجل أنى أحبك فقال وما يمنعك من محبتى ولست جارى ولا ابن عمى. وكان يقول لا ينبغى للقاضى أن يترك على القضاء أكثر من سنة لأنه إذا مكث فيه أكثر من سنة ذهب فقهه .

ثم قال المصنف والثورى أى رضوان الله تعالى عن الإمام أبى عبد الله سفيان الثورى بفتح المثلثة وإسكان الواو: ولد سنة سبع وتسعين ومات بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة. وكان له مذهب وأتباع مقلدون له لكنهم أنقرضوا بعد الخمسمائة. كان ﷺ عالم الأمة وعابدها وزاهدها وكان يقول قد ظهر من الناس الآن أمور يشتهى الرجل أن يموت قبلها، وكان يقول الهى أن البهائم يزجرها الراعى فتنزجر عن هواها، وأرانى لا يزجرنى كتابك عما أهواه فيا سوأتاه. وكان يقول أحب لطالب العلم أن يكون فى كفاية فإن الآفات وألسن الناس تسرع إليه إذا أحتاج، وذل، وكان يقول أن الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد فى الدنيا، وأن الرجل ليكون فقيرا وهو راغب فيها، وكان قد جعل على نفسه ثلاثة أشياء أن لا يخدمه أحد، ولا يطوى له ثوب. ولا يضع لبنه على ابنه، وكان يقول إن الملكان ليجدان ريح الحسنات والسيآت إذا عقد القلب على ذلك فكما لا يؤذونك لا تؤذهم وقيل له ألا تدخل على الولاة فتتحفظ وتعظهم وتنهاهم فقال أتأمرونى أن أسبح فى بحر ولا تبتل قدماى، أنى أخاف أن يرحبوا بى فأميل أليهم فيحبط عملى وكان يقول إذا أرضيت ربك أسخطت الناس وإذا أسخطتهم فنهيأ للسهام والتهيؤ للسهام أحب إلى من أن يذهب دين الرجل .

ثم قال المصنف وباقى الأئمة أى رضوان الله تعالى عن باقى الأئمة كسفيان بن عيينة والإمام الليث بن سعد وداود الظاهرى وغيرهم من الأئمة الذين أنقرضت مذاهبهم وقبر الإمام الليث يزار . وعلى مقامه من الأنوار ما يبهر الزوار . ولد ﷺ سنة أربع وتسعين وتوفى سنة خمس وسبعين ومائة ، قال أبنه شعيب خرجت مع أبى حاجا فلما قدم المدينة بعث إليه الإمام مالك بن أنس بطبق رطب فجعل على الطبق ألف دينار عند رده إليه قيل كان دخله فى كل سنة ثمانين ألف دينار ومع ذلك لم تجب عليه زكاة قط ثم قال المصنف ﷺ .

وَعَنْ مُنْشِيءِ الأَبْيَاتِ مِنْ فِكْرِهِ وَمَنْ ... قَـرَاها وأَقْـرَاها بِفَهْـمٍ وَفِطْـنَةِ

أى رضوان الله تعالى عن منشئ أى مخترع هذه الأبيات من فكره أى ذهنه مع كونه أميا لا يقرأ ولا يكتب وعدتها أحد وتسعون بيتا ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾(المائدة:٥٤) .

ومن كراماته : أنه كان إذا سمع القرآن وغلط القارئ يقول له أمسك فقد غلطت فقيل له فى ذلك فقال لأنى انظر نورا يخرج من فم القارئ كالعمود يتصاعد إلى السماء فإذا أنقطع ذلك النور علمت أنه غلط .

ومن مؤلفاته : كتاب فتح المواهب وكتاب فى معنى لا إله إلا الله وكتاب فى صفة تلقين الذكر وعقيدتان صغرى وكبرى وله ديوان فيه عقائد وموشحات وله كتاب فى أسئلة وردت عليه وأجاب عنها نثرا ونظما وله قصائد غير هذه التائية . ومن كلامه ﷺ

كل من كان ذاد ناءة أصل ... وأعتلى رفعة فهى مستعارة

ود قتل الذى حباه قديما ... خيفة أنه سيكشف عارة

حكمة الله لا تردو لكن ... رفع قدر الأعذال فقع المرارة

وقوله ومن قراءها بالألف بدون همز ولا جل الوزن وكذلك ما بعده أى رضوان الله عمن قرأها لنفسه وأقرأها أى أسمعها لغيره بفهم أى أدراك للمعانى وفطنة أى وجوده ذهن.

ثم قال المصنف ﷺ :

وَمَنْ قَدْ رَأى عَيْباً وَأَصْلَحَهُ وَلَوْ ... بِخَطِّ حُرُوفٍ أَوْ بِتَغْيِيرِ شَكْلِهِ

أى ورضوان الله عمن قد عاين فى هذه الأبيات عيبا وأصلحه بالتنبيه عليه فى الشرح أو على الهامش لا أنه يمحوه ويثبت غيره فى الأصل فإنه وبما كان على حد قول بعضهم:

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

وقول الآخر :

كالنجم تستصغر الأبصار رؤيته والعيب للعين لا النجم فى الصغر

فقولَه بخط حروف أى بكتابة الكلمات التى يرى أنها الصواب . فى الشرح الذى يكتبه أو على هامش الكتاب . وقولَه أو بتغيير شكله مراده أن الناظر ينبه على أن الصواب تغيير الشكله التى وقعت خطأ بشكله غيرها أن لو كان هناك شكل فإنه بذلك يدخل فى دعاء الناظم ﷺ وأرضاه والله تعالى يوفقنا ويبلغنا ببركة دعائه ما نتمناه . والحمد لله وحده . والصلاة والسلام على من لا نبى بعده . وكان الفراغ من هذا الشرح ليلة القدر المباركة السابعة والعشرين من رمضان . سنة أثنتين وثلاثمائة وألف من هجرة سيد ولد عدنان ﷺ وعلى آله الكرام، وأصحابه الأعلام، ما لاح بدر التمام وفاح مسك الختام صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

ولما أطلع على هذا الشرح الجميل حضرة أستاذ الجهابذة الجليل ذو التآليف التى نورها فى الأكوان سارى أستاذنا العلامة السيد عبد الهادى نجا الأبيارى قال :

تقاريظ الأفاضل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى به مبدأ كل شئ وإليه منتهاه والصلاة والسلام على من أوضح الطريق إلى الله وعلى آله وصحبه وكل من أهتدى بهداه ما كشف الحجاب لسالك فرأى الله فى كل ما يراه .

وبعــــد: فقد أطلعت على هذا الشرح اللطيف والكتاب الكريم . فرأيته شرحا ينشرح به صدر كل ذى قلب سليم جمع من لطائف العوارف وعوارف اللطائف ما به تقتطف النفوس المطمئنة قطوف الأنس فى روض القدس الوارف ورفع منار الطريق لمريدى حسن السلوك ونظم من جواهر الطريقة والحقيقة ما يعز مثله من الفرائد عند الملوك ولعمرى لقد انكشفت به عن عرائس الوصول لعاشقها الأستار وظهرت لأولى الأبصار والبصائر فى طى عباراته البارعة نفائس الأسرار عبارات هى أحلى من التسنيم . وأجلى من البدر الشريق فى الليل البهيم وأرق فى إيراد الرقائق من مر النسيم وأشوق من سمر الغانيات لمن بها يهيم ترد على الأفئدة المظلمة فتنورها وعلى النفوس الساهية اللاهية فتذكرها وعلى القلوب القاسية فتلينها وعلى الأخلاق السيئة فتحسنها لاسيما بسريان سر أخلاص مؤلفة وحسن نيته وجريان ماء بركته من عيون أنهار فضيلته فلقد منح من التوفيق وهو عزيز ما به عز بين الأنام ومن التأليف والتأنيق ما إن مفاتحه لتنوه بكثير من ذوى الأفهام ولا غرو فهو المفيد المجيد والسيد الوحيد عبد المجيد ه أدام الله تعالى به نفع العباد إلى يوم المعاد ما صلى مصل على الرسول الأعظم وسلم وجلى مجل فى ميادين الهداية فسلم وسلم آمين آمين والحمد لله رب العالمين كتبه عبد الهادى الأبيارى .

وقال وحيد الدهر الذى ليس لَه مدانى، أستاذنا العلامة الشيخ محمد البسيونى البيبانى:

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله حمد اتفنق من رياض قبوله كما ثم أزهاره، وأشكر ه شكر أهل العرفان الذين أينعت فى حظائر قدسهم نضيرات أثماره، ونصلى ونسلم على أفضل نبى وأكرم رسول مختار سيدنا محمد الآتى فى السلوك إلى ملك الملوك بما لا تبقى معه حيرة مختار وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبابه .

أما بعد: فقد وقفت على (**تائية السلوك إلى ملك الملوك**). التى نظمها قطب دائرة الوجود وإمام كل موجود الولى الأمى الذى يضرب بعلمه اللدنى الأمثال والعارف الصمدانى الربانى الذى عز عن المثال من حققت له المقامات ووضحت له الكرامات وأتى فى طريقه وسلوكه بالآيات البينات فهيهات الدهر أن يسمح الدهر بمثله هيهات ألا وهو سيدى وسندى السيد أحمد عرب الشرنوبى فرج الله به كروبى وغفر ذنوبى فوجدتها متآلفة من شقيق ومنثور متألفه بنظمها الزاهى على البدور تدير بأيدى المحبين شموس الراح وتذهب ما يغشى القلوب من الهموم، وألا تراح فهى فى طريق القوم كعبة القصاد والبيت المعمور لكل حاضر وباد، فحبذا منهاج الأصول للسائرين إلى حضرة القدس والطريق الأقوم فى الوصول إلى معارج الأنس، حقق ما فى الطريق غاية التحقيق آخذا بالكتاب والسنة ◦ فعظمت به على أهل كل عصر المنة ◦ والإجماع منعقد على علو شأنه فالقياس أن لا يعدل عن رسالة أحمد إلى البعث وزمانه بيد أنها انطوت على أسرار تحتاج على كشف أستار وتضمت من الرقائق رموزا وحوت من الدقائق المخبأة كنوزا فاحتاجت إلى شرح يشرح صدور المطلعين عليها وموقف يوقف من ألقى زمام الاسترشاد إليها ومازالت تنادى بلسان حالها لحلها ◦ وتخطب هى بنفسها كفوا يسهر الليالى فى طلب الآلى الجليلة من أجلها ◦ حتى يسر الله لها ما تروم وأنالها وقيض لها خبيرا بها حين دعا الداعى قال له أنالها حضرة القدوة المحقق والفهامة المدقق واسطة العقد الفريد والمراد لكل مريد والشهاب الثاقب لكل مريد أستاذ المجيد الشيخ عبد المجيد بلدى الأستاذ المشار إليه الحائز قصب السبق فى مضمار حوز مدده لديه لهمام الكامل الفرد الذى جمع أنواع الفضائل وتقدم على من تقدم من الأفاضل وأنى يدرك بعض فضله الفاضل وذاك لغزارة علمه وجودة ذكائه وفهمه كما يشاهد من أدبه وكما يطالع فى كتبه ◦ فلو رآه ابن عيينة لقبله بين عيينة ولو شامه قدامة لتبرك بأثر قدميه فشرحها شرحا زاد محاسن الأوصاف عادلا عن التعسف مائلا إلى الأنصاف تعجز البلغاء بلاغته وتقحم الفصحاء فصاحته أختلب بما جلب القلوب بملاحته ◦ وأستلب العقول بفصاحته وصباحته فالصحاح درر ثغره والقاموس بعض فيض نهره والبيان من سحر كلامه والرياض من بشاشته وابتسامة وعوارف المعارف أشارا به ورسالة القشيرى براغاته والخير من طباعه وطبعه والشمس من ضيائه ونفعه زاد فيه مما أفاء الله عليه وأحسن كما أحسن الله إليه أوضح أصولها التى بها الوصول وأفصح عن أجناس حدود معالمها والفصول حتى ببسقت فروعها وعرف منها نسبها محمولها وموضوعها فأبدى ذلك الشرح عجابا وأبدع فى كل أصل فصلا خطابا وقال بلسان حاله يصف رب قاله :

أصــولى لَــه عــلم وفهــم | يفـيد بـه الطـريق إلى الأصـول
ويظهــر بالأصـول لـنا فـروعا | فتقتـبس الفـروع مـن الأصـول

وبالجملة فما الذى تتنفس كمائم الأزهار أو تهب به نسائم الأسحار بالطف مما جادت به هذه الأسفار من معالى رفيعة وأوصاف بديعة ورقائق كريمة تفوق الدرارى اليتيمة مع أعذب منهل لاى وارد وأبهى مربع لكل وافد فجزى الله مؤلفة خيرا ووقاهما وضيرا ماغردت الحمائم وردت الغمائم ووصل واصل لربه وصلى على سيدنا محمد وآله وصحبه، كتبه محمد البسيونى البيبانى .

وقال الأستاذ الفاضل . والهمام الكامل الشيخ إبراهيم راضى أحد خوجات مدرسة المرحوم إسماعيل باشا راتب . بلغنا الله وإياه المآرب:

حسن السلوك إلى ذى العرش قد جمعا | فى أن تكون لنهج الشرع متبعا
فالـزم أوامـره واتـرك نواهـيه | ولا تكن عاملا بالرأى مبتدعا
فللشـريعة حـد قـف لديـه فمن | تجاوز الحد فى مهوى الهوى صرعا
وعامل الناس بالحسنى وأن أحد | أساء فارفع إلى مولاك ما وقعا
وأقنع بما قسم الله الحكيم تكن | فى غنية أن أغنى الخلق من قنعا
وأن ترد عزة فالزهد منشؤها | والذل لم يقترن إلا بمن طمعا
وأستعمل الصبر أن نابتك نائبة | لا فاز من قضاء الله قد جزعا
فبينما المرء فى عسر يئن به | إذا جاءه اليسر من مولاه مندفعا
وأوف بالعهد أن الخلف منقصه | وكن من الزور والبهتان ممتنعا
واترك هوى النفس إن النفس آمرة | بكل سوء وخف مولاك مرتدعا
ولا تصاحب من الدنيا سوى رجل | يهدى إلى طرق التقوى من أتبعا
فالناس أعداء بعض فى المعاد خلا | أهل التقى فهم الأحباب والشفعا
ولا تؤاخ أخا جهل فصحبته | أضر شئ على الإنسان لو سمعا

واحـرص على طلب العلم الشريف فمن ... ســعى إلـيه بجـد دام مــرتفعا
أمـا تـرى المرتضى عـبد المجـيد عـلا ... عـلى السماك بفضل العـلم وأرتفعـا
حـبر لقـد أشـرقت أنـوار حكمـته ... وبـرق تحقـيقه بـين الـورى لمعـا
بحـر ولكـن محـيط لا قـرار لَـه ... لله بحـر علـوم راق واتسـعا
أن قسـت فسـابه مـا أنـت منصـفه ... كم مـثل قس بـه فى عصرنا بـرعا
أنعـم بـه مـن مجـيد فـى عـبارته ... مـع أنسـجام حـلى لله مـا صـنعا
يـروى بـنظم الـلآلى نظـم فكـرته ... وطالمـا سـلب الألـباب ان سـجعا
تألـيفه منبـئ عـن فضـل حضـرته ... تـبارك اللـله مـا أوعـى ومـا جمعـا
وأى التصـوف فـنالا نظـير لَـه ... فقـام واهـتم فـى تدويـنه وسـعى
أتـى بشـرحين فـيه يشـهدان لَـه ... بأنـه شمـس عـلم نـوره سـطعا
همـا لتائـية الشـرنوبى مـع حكـم ... أجادهـا ابـن عطـاء الله مخترعـا
لحـبه فـى عمـوم الـنفع زانهمـا ... بحسـن طـبع لـمن رام الهـدى نفعـا
فاجعـلهما قـدوة فالمقـتدى بهمـا ... بشـرى لَـه فهمـا لـلخير قـد جمعـا
وخذهمـا عـدة فـى كـل نازلَـه ... ولا يفوتـك فـوزان تكـن ورعـا
وأشـكر مجـيدهما عـبد المجـيد فقـد ... أبـدى لنا السر فى شرحين مجتمعا
يـا حسـن طـبعهما أرخهمـا بـزهى ... شـرحان مـن ماجد فى عصـرنا طبعا

تم بحمد الله كتاب
تائية السلوك إلى ملك الملوك

مكتبة القاهرة
على يوسف سليمان وأولاده

فهرس كتاب تائية السلوك